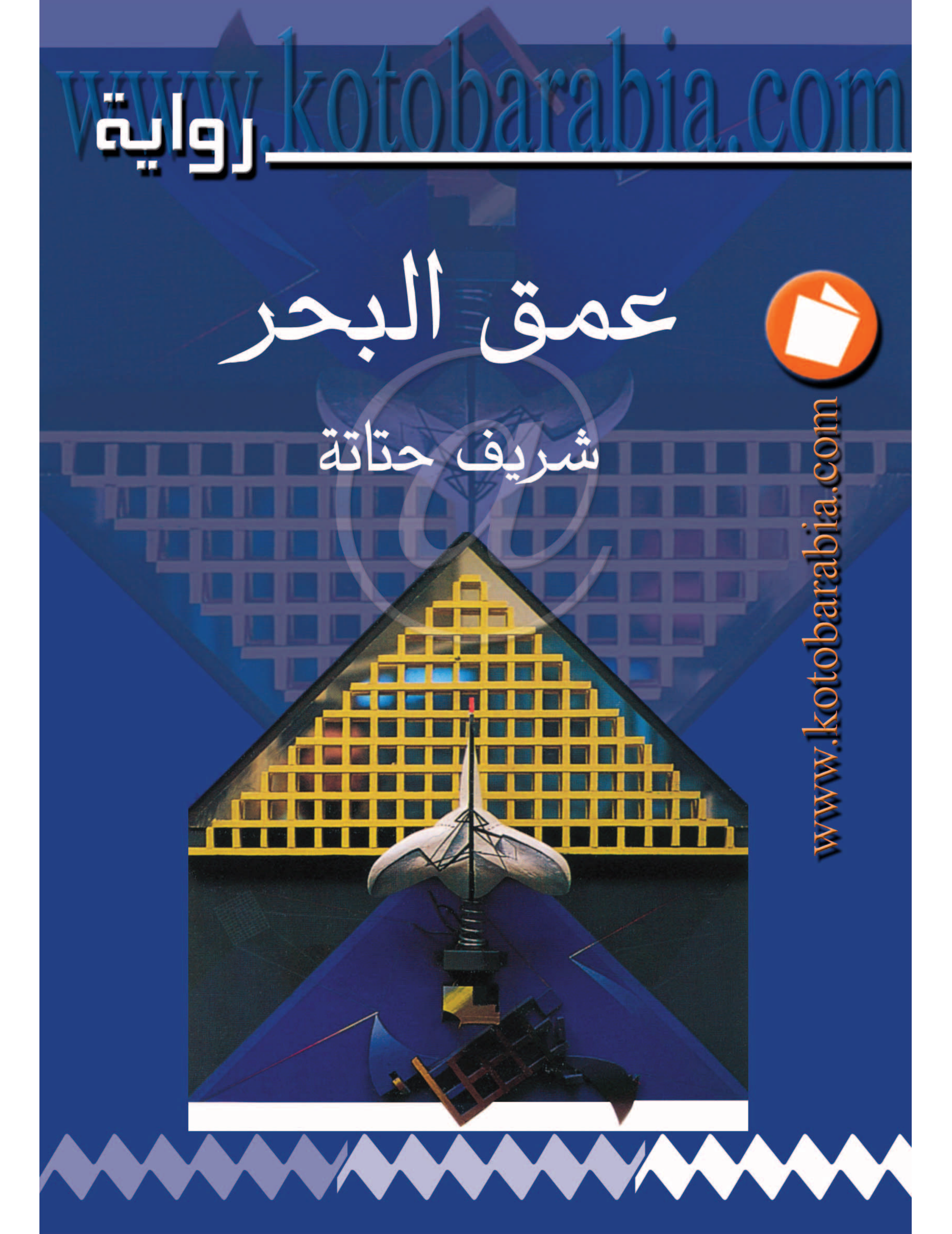

رواية
عمق البحر
شريف حتاتة

رواية

عمق البحر

شريف حتاتة

(١)

علا صوت " السارينة" وهي تولول مخترقة هـ دير السيارات. فتح عينيه . ظل راقدا دون حركـ ـة ثـ ـم أخـ ـرج إحدى ذراعيه من تحت الغطاء. اصـ ـطدمت يـ ـده بالبطانـ ـة الخشبية للجدار، فأعاد ذراعه إلي حيث كانت. أغلق جفونه هاربا من اليقظة إلى راحة اللاوعـ ـي بالأشـ ـياء. عـ ـادت " السارينة" صارخة بأعلى صوتها فأزاح الغطاء مـ ـن علـ ـى جسمه وقام. دس قدميه في الخـ ـف. وسـ ـار فـ ـي العتمـ ـة الرمادية حتى النافذة. فتح ضلفتي الزجاج وجـ ـذب شـ ـريط الساتر الهابط من أعلاها. اصطدمت عيناه بلافتـ ـة كبيـ ـرة برتقالية اللون. حملق في صورة الفارس يمتطي حصـ ـانا. ويرفـ ـع رايـ ـة كتـ ـب عليهـ ـا" سـ ـانزبوري" بـ ـالحروف الإنجليزية،ومن تحتها بالعربية " متعـ ـة الشـ ـراء بـ ـأرخص الأسعار."

على كل جانب من الشارع العريض اصطف طـ ـابور من عساكر البوليس ارتدوا ملابس الصيف البيضاء . أمام "

السوبر ماركت" الجديد توقفت شاحنة لتفرغ حمولتها مـ ـن القطران. من نافذته في الدور الثالث للعمارة لمـ ـح رجـ ـلا أصلع الرأس عريض المنكبين تجمع حوله عدد من الضباط ليصنعوا دائرة من العوينات السـ ـود تتحـ ـرك مـ ـع ذراعـ ـه الطويلة يشير بها في مختلف الاتجاهـ ـات . تفرقـ ـوا فجـ ـأة بإشارة من يده. امتطوا الدراجات البخارية وانطلقوا بها في اتجاه الميدان فصدرت عن"السارينات " سلسلة متصلة مـ ـن الصرخات".

أغلق النافذة واستدار.وقف يتأمل الحجرة. البلاكـ ـار الكبير، والسريران ، والمقعد والمرآة الطويلة بالقرب مـ ـن الباب ومنضدة مستطيلة منخفضة عليها زخارف،وزهريـ ـة تدلت ورودها في انكسار. جلس علـ ـى السـ ـرير . أشـ ـعل سيجارة وأخذ منها نفسين ثم أطفأهـ ـا. لا بـ ـد أن يسـ ـرع بالهبوط قبل أن يمنعوا مرور السيارات. منذ يومين قضـ ـى أربع ساعات في طريق المطار. سأل أحد العساكر لمن هذه التشريفة؟ فقال " علمي علمك يا باشا. بيقولولي أقف هنـ ـا باروح وأقف.

أحس بالجو ثقيلا في الصالة فأدار المروحة،وسار حتى الباب . التقط الجريدة من على الأرض، وعاد إلى الصالة. أضاء الفانوس. فانعكس نوره في الصينية الكبيرة المصنوعة من النحاس. عندما ابتاعها كان معه صديقهما الرسام. وضعها في حقيبة السيارة ثم جلسا على مقهى عند جامع الحسين. شربا قدحين من الشاي الأخضر بالنعناع. لا يتذكر ما دار بينهما من حديث. يرى وجهه أمامه أسمر حزيناً،والأنف المدبب، والعينين الخضراوين. عندما مات لم يمش في جنازته، أو يجلس في صوان المعزين. علقت" نجوى قائلة:" أنت كمن أحاط نفسه بلوح من الزجاج. لا يخفيك عن الناس. يرونك سائرا بخطواتك السريعة، أو مستغرقا في الحديث ، أو مقدما عليهم بابتسامة كأنك تفتح صدرك للآخرين. لكن سرعان ما تنسحب روحك خلف لوح الزجاج، لتنظر إليهم من خلاله، وعيناك تقولان:" أنا إنسان مثلكم. اشعر بالفرحة وأعاني الألم. أبحث عن مكان بينكم. لكني لا أستطيع أن أشارككم اللعبة التي تمارسونها في الحياة".

يستمع إليها في صمت. تسأله : " لماذا لـ م تـ ذهب إلي الجنازة؟ كان صديقنا". هز كتفيه وقـ ال: " لا أعـ رف". كان يريد أن يذهب لكنه امتنع . في المدرسة كـ ان يكـ ره طوابير الصباح، وتحية العلـ م،والنشـ يد يغنونـ ـه بـ أعلى صوت.قالت" لذلك تزوجتك قال" لذلك أحببتك. معك أسـ تطيع أن أكون مختلفاً.

تنهد . وقعت عيناه على جريدة الصـ باح وضـ عها على المقعد. فتحها. حملق في صورة الرئيس ثـ م طواهـ ا وأعادها إلي مكانها. سمع صوتها يهمس. " قفص الزجـ اج لا يخفيك عني. أراك جيدا. مع ذلك كثيرا ما يفصل بيننـ ا". ينظر في عينيها العسليتين،ويقول " ولكني أحبـ ك". تتأملـ ـه ودون أن ترفع نظراتها عن وجهه تقول: " ربما ، لكن لماذا لم يعد بين جسمي وجسمك الاشتياق الذي كان؟"

يرتبك . يمسك بالجريدة مـ ن جديـ د هاربـ ا مـ ن سؤالها. قرأ المانشتات:" ضخ ٢٥ ملياراً من الجنيهات في السوق للتغلب على الركود. البنك الدولي يؤكد أن اقتصـ اد مصر مزدهر." عيد أول مايو، مظاهرات ضخمة في لنـ دن وعدد من العواصم.

الجموع تهتف بسقوط الرأسمالية.

تذكر فجأة. اليوم عيد ميلاده. عمره ثلاث وخمسون سنة. قام يحملق في المرآة المعلقة قرب المدخل. شعره اسود، والتجاعيد في وجهه قليلة تكاد لا ترى. يجلس إلي جوار جدته أمام الفرن. تلقي فيه برغيف من الخبز المرحرح. يرقص اللهب الأحمر في وجهها سال عليه العرق. تمسحه من على وجهها بطرق الجلباب. تلتفت إليه قائلة:" أمي كانت سودانية،ودماء " حام" تجري في عروقنا ساخنة. العرق عندنا قوي، والكرامة". آمن أنه مثل الأفارقة، سيعيش مائة سنة. ثم يزحف الشيب على رأسه، ويموت فجأة دون أن يعرف الشيخوخة.

ربما لذلك تعود أن يحيا في الحاضر. لا يعود إلي الماضي إلا إذا جلس أمام الورق. عندئذ تؤرقه الذكريات، تصبح كالأحجار يقيم بها البناء. فيما عدا ذلك تبقى الذكريات غائبة.

وتتكرر أعياد الميلاد دون أن يلتفت لها. لكن بعد أن تزوجا كانت تذكرة بها. يستيقظ في الصباح فيجدها في السرير راقدة إلي جواره. ترفع جفونها المثقلة بالرموش

كأنها مكحلة. تكشف عن عينيها يبهره صد فاؤهما. يشد عر بشفتيها على شفتيه تمتصانه.

تقول : "حبيبي " يوسف " اليوم عيد ميلادك ولا بـ د أن نحتفل" . تنطلق خارج الغرفة وشعرها الطويل يتمـ اوج وراءها. يصله صوت الدش تنهمر مياهه،وبعد قليل يراهـ ا واقفة أمامه، قوامها ملفوف في البشد كير.وعل ى كتفيهـ ا العاريتين نقاط المياه كاللآلئ.

قبل أن ترتدي ملابسـ ها يـ دق التليفـ ون. ترفـ ع السماعة يذهب إلى المطبخ. يملأ البراد بالماء ويضعه على الموقد، ثم يصب كوبين من عصير البرتقال ويحمل أحدهما إليها. بعد أن ينتهي من إعداد الشاي وطعام الإفطار ينـ ادي عليها. يجلسان على جانبي المائدة المزودة بمستطيل مـ ن الرخام الأبيض.

يشربان الشـ اي، ويـ أكلان قطعتـ ين مـ ن الخبـ ز المقدد،والجبن الأريش بزيت الزيتون،والزعتر. تحدثه عـ ن برنامج للندوات تعده أو عن طالب يستعد للحصـ ول علـ ى الدكتوراه وقع في غرامها. ترن ضحكاتها في مرح فـ اجر. تتوقف فجاة وتلقي إليه بنظرة فاحصة ثم تسأله : " لمـ اذا

تحرص على إخفاء الغيرة التي تستولي عليك، عندما أحكي لك عن غرامياتي؟"

يضحك قائلاً:

" لا أريد أن أخوض معركة خاسرة مع شاب وسـ يم في الجامعة".

يلمح في عينيها نظـ رة سـ اخرة. يتمطـ ع دون أن يواجه نظراتها . الشمس تسقط إشعاتها من النافذة. يستمع إليها بنصف عقله وهي تسترسل في كلامها عن الطالـ ب. تتسلل عيناه إلي الحفرة الناعمة بين نهديها،وتنشغل هـ ي بصب قدح من الشاي لنفسها الكسـ تنائي ،ويقبلهـ ا خلـ ف أذنيها وعلى شفتيها،وأعلى صدرها. تضغط على يده كأنهـ ا تريد منه أن يوقف مداعباته ثم فجأة تقـ ف علـ ى قـ دميها وتجره وراءها بسرعة إلي الصالة. تفك الشريط المربـ وط حول خصرها. تجذبه إليها وتهبط على ظهرها لترقد علـ ى السجاد وهو فوقها. تأخذه إليهـ ا فيضـ يع فـ ي نشـ وتها المنتفضة الصارخة.

يفيق إليها مسندة رأسها على صدره . ترفع عينيها إليه فيقرأ فيهما الفرحة. تلتصق بـ ـه كالطفلـ ـة المطمئنـ ـة،

فيحتضنها،ويقبلها على ثديها. تفلت منه بحركة مباغتة وتقول بصوت فيه حسم.

"لابد أن أصل إلى الكلية قبل الساعة العاشرة".

يسألها:

" وعيد ميلادي"؟

تضحك وتقول:

"احتفلنا بعيد ميلادك بما فيه الكفاية".

قبلته بسرعة وقامت. لمح الدوران الأنثوي أسفل ظهرها ثم اختفت. ظل راقدا على السجادة . ترى هل يمكن أن تخلص له هذه المرأة الشابة؟ أحيانا يشغله التفكير حول علاقتها به. خطر في باله أنه لم يكتب شيئا منذ اليوم الذي ذهب ليزور " أسعد خلدون" في الكلية فوجدها جالسة في انتظاره.

أحس بالضيق لهذا الخاطر فقام ودخل إلي الحمام. فتح صنبور الدش وترك المياه الباردة تنهمر على جسمه. ثم جفف نفسه بالمنشفة ضاغطا بقوة كأنه يفرغ التوتر المستتر في أعماقه.

تصفح الجريدة بسرعة ثم توجه إلي المطبخ. النافذة المغلقة على المنور قرب السقف لا يتسرب منها إلا ضوء شاحب. عندما ينظر إليها يتذكر السجن الحربي. ضغط على المفتاح البارز من الجدار قرب بابه فارتعشت لمبة النيون، وألقت بضوئها الأبيض على محتوياته. صنع لنفسه كوبا من الشاي وجلس يرتشف منه. اليوم عيد ميلاده. عادت أعياد الميلاد كما كانت متشابهة تنقل حياته من رقم إلي رقم مثل ساعة الحائط تدق في الحجرة المجاورة. لكن هذه المرة تزاحمت عليه الذكريات. أطلقتها " سارينة" البوليس فركب في " البوكس" وفي يديه الحديد وانطلقت به السيارة تحت الضوء الأصفر للمصابيح. اخترقت الشوارع الراقدة في عتمة ما قبل الفجر لتدخل من بوابة وقف عندها حارسان في أيديهما البندقية يطل منها السنكي مثل لسان الحية.

وقف أمام المرآة في الحمام يحلق ذقنه، عندما استيقظ اليوم شعر أنه مرهق، عقله يقفز من موضوع إلى موضوع.

حذرته الجدة لا تتزوج من امرأة أصغر منك، المرأة لا يمكن أن تحب رجلا يوجد بينها وبينه فارق كبير في السن، إذا تزوجته فلسبب لا علاقة له بالحب، ربما لترضي أهلها، أو طموحها، أو غرورها، أو لتفلت من حصار مفروض عليها، أو بسبب المال الذي يملكه زوجها.

راحت تلك الأيام النابضة بالمشاعر، المفعمة بلحظات التوتر اللذيذ، جاءت لحظات الصمت، وأصبحت تطول، إنه الأكبر سنا، وهو يحبها، فلماذا لم يفاتحها فيما كان يحدث؟ هل هو الكبرياء؟ هل كان يخاف من احتمالات المصارحة؟

كانت تبادله الحب، فهل انطفأ حبها؟. أم أن الحب ليس سوى وهم تعويض عن الإحباط، عن الوحدة، والحزن حلم الخلاص من عذاب الجسم في جسم آخر يحتويه.

نظر في ساعته تشير إلى الثامنة إلا ربع، ارتدى ملابسه، خرج من باب الشقة وأغلقها ثم هبط على السلالم ناقلا قدميه على درجاتها المنهارة بحرص، تسللت إلى أنفه رائحة عطنة فأسرع الخطوة ومرق أمام حارس الأمن جلس

قرب المدخل ينظف أسنانه بعود من الكبريت، وأمامه صحن فيه بقايا من الطعام لم يكملها.

قاد سيارته في الشارع العريض مسافة صغيرة ثـ م توقف الزحف، على مقربة منه شاب صغير السـ ن يقـ ود سيارة "مرسيدس" يصعد منها نـ بض "الدسـ كوتيك" كـ ان منشغلا بالحديث في المحمول لم يتنبـ ه لحركـ ة الطـ ابور وصرخت الأبواق من ورائه، انحنى بالسيارة صاعدا علـ ى كوبري الجامعة بقفزات سريعة، وانحني هو وراءه متفأدىا شاحنة مليئة بعسكر الأمن توقفت فجـ أة أمامـ ه، تحسـ س المقعد إلى جواره ليطمئن على الحقيبة التي فيهـ ا الملـ ف، منذ يومين قرأ كتابا "لفرويـ د" فيـ ه إن الطاقـ ة الجنسـ ية المختزنة يمكن أن تتحول إلى إبداع في الفن والعلم.

إن الحضارة نشأت بسبب الكبت، الآن يسـ تطيع أن يمتحن نظرياته، ابتسم في المرأة، انشغل بابتسامته وكاد أن يصدم صبيا حاول أن يمر أمام سيارته لعن "فرويد" في سره وعاد إلى الشارع المزدحم أمامه، استنشق رائحة خبز خرج من الفرن، فعاد إليه وجد جدته، في آخر أيام حياتها فقـ دت بصرها، تجلس في القاعة الفسيحة الرطبـ ة غارقـ ة فـ ي

ظلالها، عندما يأتي لزيارتها تحس به واقفا عند مـ دخلها، تقول "يا يوسف" أنت جئت، اقترب مني حتى أحتضنك "ترفع يديها وتتحسس تقاطيع وجهه، تهمس "طبق الأصل من أمك وضعت فيك بذرتها وراحت الله يرحمها".

عند المفارق حياه الصول المنتصب تحت الكشك ثم ألقى ناحيته بنظرة فيها ود كأنه يقول: "صدمنا أنا، وأنـ ـت للزمن الصعب"، رفع الكاب من على رأسه ومسـ ـح عرقـ ـه وجهه أسمر، جاف، يعلوه شعر أبيض مجعد مثـ ـل القطـ ـن يطل من اللوزة في موسم الجمع، هز رأسه ناحيته وانحني إلى اليسار، ركن السيارة في مكانها أمام المركـ ـز وصـ ـعد السلالم الرخامية بقفزات سريعة كأن تحية الصول أعـ ـادت إليه حيويته.

* * *

(٢)

ضبط شفرة الحقيبة عند رقمها، أخرج الملـف، و وضعه على المكتب أمامه، توقفت عيناه على الصورة يطل عليه من بروازها الفضي، شعرها الكستنائي يتـوهج فـي الضوء تسأله: "لماذا تصر على الاستمرار في المركز؟ أنت تقول إن الكتابة أهم شيء في حياتك، مع ذلك تضيع أيامـك في أشياء لا تمت إليها بصلة".

ترفع خصلة من شعرها سقطت على جبينها، تشعر أنه في الشهور الأخيرة تغير، أصبح متوترا يقضي ساعات طويلة في المعمل ويعود في الليل، قال:

"لا أفصل بين العلم والفن، العلم يغذي الفن بالمعرفة والفن وقود العلم يحفزه، وينير طريقه، والبحث الذي أقـوم به مهم".

"لم تقل لي شيئا عنه، لم تعد تشاركني فيما تفعله".

اجتازته رعشة خفيفة، مسح على جبينه وصـمت، هل هو قادر على إسعاد هذه المرأة المتأججة التي لا تكـف عن التساؤل، منذ أن تزوجا جاءته لحظات أصبح يشعر فيه

بالكبر، بأنها على الخط البياني الصاعد للحياة بينما يقف هو عند بداية منحدرها وأن شخصيتها أقوى منه.

"إننا نحاول أن نكتشف ما الذي أدى بذرات معينة إلى الالتحام ببعضها وتكوين جزيئات من مادة كيماوية جديدة، ولماذا لا يحدث هذا بين ذرات جميع العناصر، فإذا وصلنا إلى معرفة ما نسعى إليه نستطيع أن نكتشف كيف تكونت جميع المواد الموجودة في الطبيعة، وإلي أولي حلقات الحياة فيها".

يستغرق فيما يقوله، تلمع مقلتاها لكن سرعان ما تسبح في صفائهما شظايا الحزن، يسمعها تقول: "ربما عن طريق البحث تستطيع أن تكتشف لماذا لم تعد ذراتي وذراتك تنجذب إلى بعضها". تفحصه بنظرة فيها تحد، تمد يدها إلى علبة السجائر الموضوعة إلى جوارها، تستخرج منها لفافة طويلة داكنة تشعلها بعود من الثقاب، تنفث في أنفها الدخان ثم تستطرد. "فللحب كيمياء أليس كذلك، وأنت عليم بأسراره".

أخذت أنفاسا متلاحقة من سيجارتها فحلقت فوقهما سحابة زرقاء، في الفترة الأخيرة لجأت إلى التدخين، يكره

رائحة السجائر خصوصا في غرفة النوم، أحس بثقل يضغط على صدره قال: "سأذهب إلى الحمام لحظة وأعود".

وقف أمام المرحاض يبول، تأمـ ل عضـ وه أصـ بح منكمشا كأنه قرر الانسحاب من مسئولياته في الحياة، ابتسم بمرارة لهذا الخاطر، لم يكن يظن أن مـ ـا حـ ـدث يمكـ ـن أن يحدث له هو بالذات، أين دماء "حام" التي ورثها من جدته؟ أهو السن، أم الزواج، لم تعد في جسدها العاري أسـ ـرار أو في حياتهما اندهاش، في كل يوم يتكـ ـرر الكـ ـلام، أم هـ ـو الإحساس بأنها تتقدم بسـ ـرعة بينمـ ـا أصـ ـبحت العراقيـ ـل تحاصره، ولكن عواطفه نحوها تتعمق مع الأيام، ينظر إليها وهي نائمة إلى جواره، قدمها تبرز من تحت الغطاء في يتم يشعر بغصة في القلب برغبة في حمايتهـ ـا، فـ ـي أن يقبـ ـل أصابعها ويضمها إلى صدره، مع ذلك لماذا عندما يسير في الشوارع قد يشتهي امرأة مجهولة تتسلل بسـ ـرعة وسـ ـط الزحام.

أغلق أزرار المنامة، وعاد يرقد إلى جوارها، تلقي إليه بنظرة فاحصة وتقول:

"إنك كعادتك تتهرب من السؤال، لا تريد أن تفصح عما في أعماقك، تغلق المحارة حول نفسك كلما اقترب منك، ماتت أمك وأنت صغير فلم تجد أحدا يمكن أن تكلمه، الأمور بيننا لا يمكن أن تسير على هذا المنوال، أعطيتك قلبي وجسدي، لم أخف عنك شيئا، قل لي بصراحة هل هناك امرأة أخرى في حياتك؟

دخل الفراش من الباب، قال " صباح الخير يا دكتور"، ووضع قدحا من القهوة، وكوبا من الماء فوق المكتب فانتبته إليه أسمر عجوز شعره الأكرت غزير، وعيناه لوزيتان، قال له إنه من قرية في النوبة كان اسمها "ادندان" غرقت تحت المياه بعد أن بني عبد الناصر السد، سترته الكحلية اللون مكوية بعناية، وقميصه ناصع البياض، توقف لحظة دون حركة ثم أضاف: "القهوة يابك، لا تناسها، المرة السابقة تركتها كما هي. خير إن شاء الله ؟".

"خير يا عم "سليمان" وأنت كيف أحوالك؟".

"الحمد لله كبرنا يا بك، الأولاد تزوجوا وكل واحد راح لحاله، من سافر ومن عاد إلى "كومومبو"، أصبحنا أنا والعجوز وحدنا في البيت، عندها القلب بعيد عنك وراقدة

في الفراش، لكن الحمد لله، نشكر فضله، عن إذنك يا بك، يريدونني في المخازن لأنقل معهم بعض الأوراق".

أخذ رشفة من القهوة، خلال زجاج النافذة العريضة لمح الجموع المتزاحمة قرب السفارة، تسلل أحد الشبان من فجوة ضيقة في الباب أفسحها له أحد الحراس، دخل فيما يشبه القفص الزجاجي الكبير، وجلس على دكة من الخشب أمام كتلة سوداء لها بروز يشبه عدسة التصوير.

دق جرس التليفون، تردد في أذنه صوت رفيع ينطق الكلمات بلدغة فرنسية: "صباح الخير يا دكتور "يوسف" هل أعددت التقرير. عندي اجتماع معهم سيبدأ في الحادية عشرة، أنا منتظرك في مكتبي".

سار في الطرقة الطويلة نوافذها تطل على أشجار تفتحت فيها الزهور الحمراء، توقف ليتأملها، ثم استأنف السير، صعد إلى جناح رئيس المركز واجتاز المسافة القصيرة إلى حجرة السكرتارية، خلف مكتب أنيق جلس شاب حليق الذقن، ابيض البشرة يرتدي قميصا، ورديا، ورباط عنق داكن اللون، على شفتيه ابتسامة ثابتة كأنه يستعد للتصوير، في أحد أركان الحجرة جهاز "كمبيوتر"

جلست أمامه فتاة ترتدي حجابا، وتصبغ شفتيها الممتلئتين باللون القرمزي، كانت تحرك أصابعها ببطء فوق المفاتيح وتقرب حاجبيها المقوستين في تركيز، أحست بوقفته عند الباب فالتفتت إليه، عند فتحتي أنفسها الواسعتين رعشة حيوانية مكبوتة، ترك خياله يعربد لحظة، أحس بالضيق من نفسه، ما الذي جرى له هذه الأيام؟ رفعت سماعة التليفون وأخرجت أصواتا تشبه الفحيح من بين شفتيها ثم استدارت بمقعدها في حركة سريعة كأنها تعرض جسمها عليه وقال "الدكتور ليس معه أحد تفضل".

دفع الباب الهزاز المبطن بالجلد، الحجرة الواسعة التي دخل إليها رغم المكتب، ومنضدة الاجتماعات، وبعض الأدوات الإلكترونية تشبه صالون للسيدات في بيت إحدى الأسر الثرية.

الجدران والأثاث والستائر، والمصابيح فاتحة اللون فيها شيء أنثوي، كأنها اختيرت خصيصا كخلفية للرجل الذي يدير شئون المركز قابعا فيها طوال ساعات النهار وجزء من الليل، أصلع الرأس، دقيق الملامح، ضئيل

الجسم، بشرته وملابسه وعيناه والشعيرات القليلة في رأسه باهتة تجعله يشبه القط الصغير أو الفأر الذي هرب إليها.

كلما دخل إليها يدور بعينيه باحثا عنه، فقد تعود التنقل المستمر بين أرجائها كأنه مصاب بحالة من القلق لا تفارقه.

اهتدى إليه جالسا خلف مكتبه، غارقا بجسمه الضئيل في المقعد الضخم يكاد لا يظهر منه إلا رأسه وعيناه وتحملها فيه وهو يتقدم بخطوة صامتة فوق الموكيت، عندما اقترب منه قام، ودار حول المكتب مشيرا بيده إلى ملحق للحجرة بيضاوي الشكل، شبه مغلق على ثلاث مقاعد، ومنضدة صغيرة أرجلها مقوسة، جلسا على جانبي المنضدة علت فوقها زهرية طويلة شفافة فيها ورود بيضاء والي جوارها وضعت منفضة فضية، وعلبة للسجائر مطعمة بالصدف.

ظل صامتا كأن الموضوع الذي كان يفكر فيه ما زال مستوليا عليه، فمد يده بالتقرير، قائلا: "يا دكتور "فاروق" هذا هو التقرير الذي طلبته مني سجلت فيه آخر تطورات البحث".

رفع رأسه وألقى إليه بنظرة فاحصة من عينيه لونها يشبه مياه البحر عندما تغيب الشمس خلف السحب.

"فيه كل التفاصيل؟".

"نعم".

"هل هناك نسخ أخرى من التقرير غير هذه؟".

"نعم توجد نسختان، إحداهما في الخزانة عندي في البيت، والأخرى في خزانة خاصة بالبنك مسجلة باسمك واسمي وفقا للإجراء الذي طلبته مني".

"والشفرة في البنك؟".

"كما هي يمكن أن نغيرها إن أردت، في بيتي غيرتها".

"لماذا غيرت شفرة البيت".

رفع كتفيه وقال: "زيادة في الاحتياط البيت ليس مضمونا مثل البنك على أية حال أصبحت وحدي الآن".

"وحدك أين الدكتورة "نجوى"؟

"سافرت".

نظر إليه وقال: "تشرف قهوة؟.

هز رأسه فضغط على الجرس ثم فتح المظروف وقرأ الملخص ببطء، أعاده إلى المظروف وقال: "سأقرأ التقرير التفصيلي بعد الظهر، ميعاد الاجتماع أزف". سكت لحظة ثم أضاف: "انتهت مرحلة في البحث وبقيت مرحلة".

نعم علينا أن ندرس كيف تؤثر العوامل الخارجية في علميات الالتحام بين الذرات، فهناك عوامل يمكن أن تسهل عملية الالتحام، وإذا تبدلت يمكن أن تعرقلها، وهي عوامل خارجية عن تركيب الذرة نفسها، عن التفاعلات الإلكترومغناطيسية الداخلية، عوامل مثل درجات الحرارة، أو الضغط الجوى، أو الإشعاعات الكونية، وغيرها، ما توصلنا إليه حتى الآن يشكل اكتشافا علميا مهما وما يأتي بعد ذلك مكمل له، حققناه دون أن نحتاج إلى إمكانيات مالية أو تكنولوجية تستعصي علينا في طرق التخيل، والرياضة البحتة، وبعض التجارب المحدودة".

أضاءت ابتسامته فتحول الوجه المشدود إلى وجه طفل قدمت له الهدية التي أرادها، لحظة نادرة عادت ملامحه بعدها إلى جمودها تنبه إليه يسأله: "هل تعتقد أننا في المرحلة القادمة سنحتاج إلى معونة من الخارج؟".

تأمل السؤال لحظة، لماذا هذا السؤال؟ أجاب بـ بطء كأنه يفكر في الرد.

"لا أستطيع أن أحسم هذه المسألة الآن إنها تحتـ ـاج إلى دراسة متأنية ربما أمكننا أن نكمل ما بدأناه بإمكانياتنا".

قال: "هل تعرف أعضاء الوفـ ـد الـ ـذين سـ يجيئون اليوم؟".

لا

تعرف الملحق العملي للسفارة بالطبع؟

"التقيت به مرة في مكتبك".

أكمل قدح القهوة الموضوع أمامه، ثم وقف علـ ـى قدميه.

"لا تنس ربما احتجت إليك أثناء اجتماع اليوم، فـ ـلا تغب عن مكتبك، وأجل أي شغل ينتظرك في المعمل".

خطا خطوتين في اتجاه المكتب، توقف كأنه تـ ـذكر شيئا وقال: "معني كلامك أننا قـ ـد نحتـ ـاج إلـ ـى المعونـ ـة لاستكمال ما بدأناه".

ظل ساكنا ينتظر الرد، نقل "الدكتور يوسف" الملـ ـف من يد إلى يد ونظر في عينيه قبل أن يرد.

"معونة؟ لا أعرف، كما قلت نحن في حاجة إلى دراسة على ضوء ما قمنا به حتى الآن".

عادت الحركة العصبية إلى فمه، وقال: "إذن ادرس ورد عليّ، خذ معك التقرير الآن سآخذه منك في المساء".

مر أمام السكرتارية، الشاب الوسيم ما زال يحملق في الدوسيه، والفتاة ما زالت تدق.

هبط الدرجات كان قد وصل إلى منتصف الممر عندما سمع صوتيا يناديه، "دكتور يوسف... دكتور يوسف"، فاستدار رأى الشاب يسرع وراءه وفي يده مظروف، اقترب منه وقال: "صباح الخير يا دكتور هذه الدعوة خاصة بك".

أخذه منه وشكره ثم استأنف السير إلى غرفته، دخل في بابها المفتوح وجلس خلفا المكتب، وضع التقرير في الحقيبة وأغلقها بالشفرة رفع سماعة التليفون وطلب رقما في المعمل.

"الدكتور عبد الفتاح"، موجود... لا.. طيب "الدكتورة عفاف"، أنا "الدكتور صفوان"، بعد عشر سنوات لا زلت لا تعرفي صوتي يا "دكتورة عفاف" صباح الخير، لن أحضر

اجتماع اليوم، يمكنكم الاتصال بي هنا في الإدارة إن احتجتم إلى شيء لا شكرا".

أمسك بالمظروف وأخرج منه البطاقـة المطبوعـة بخط فارسي أسود على ورق مثل ورق البردي الفاتح، قرأ "يتشرف العميد نبيل القرنفلـي، والسـيدة حرمـه بـدعوة الدكتور يوسف صفوان والسيدة حرمه على العشـاء فـي منزلهما يوم الأحد القادم الساعة الثامنة والنصف مسـاء" عند أسفل البطاقة بخط رقعة دقيق عنوان المنزل ٩ شـارع السراى الأكبر الجزيرة، السيدة حرمه كانت سـتمزق هـذه الدعوة وتقول له اذهب وحدك إن أردت، ستكون ليلة ثقيلة على قلبه، الأفضل أن يعتذر أو ربما.. لمحها تنظر إليه من دخل البرواز الفضي، كانت لديها حاسة سادسة للناس، من هو "نبيل القرنفلي؟" هذا؟ عميد؟ أصبحت الإدارة حكرا على الضباط، لمحه في الصباح وهو يسرع في الطرقـة يشـبه القط الرومي الأصفر اللون.

توقفت يمامة على عتبة النافذة فالتفت إليها، لم يبق أمام السفارة سوى ثلاثة من الشـباب اسـتندوا ظهـورهم للجدار، و وقفوا يحملقون أمامهم، وامرأة شعرها القصـير

زحف عليه الشيب أخذت تبتعد بخطوات بطيئة ممسكة بطفليها، لمح ظهرها المحني، والفيونكة ضمت بها شعرها.

فتح الحقيبة وأخرج منها المفكرة لها غلاف أزرق جلدي. بحث عن آخر ما كتبه فيها وسجل تحته التاريخ مايو ٢٠٠٠ ثم كتب:

"اليوم دارت بيني وبين "فاروق الدجوي" مناقشة قصيرة، هذا الرجل شخصية غريبة، أشياء تبعدني عنه، وأشياء تقربني إليه، وفي لحظات كالطفل البريء أستطيع أن أتحاول معه فهو يقرأ كثيرا لكنه أغلب الوقت يعطيني الإحساس بأنه يدبر أشياء في صمت، إنه في أية لحظة قد يضحي بي، لكنه من القليلين الذين يقدرون العمل الذي أقوم به، ولا يضع في طريقي العراقيل ربما ذكاء منه، والذكاء يمكن أن يفيدنا نحن الاثنين، الوحدة تجعلني متشككا في كل شيء حتى في قيمة العمل الذي استغرقت فيه، عندما كنت أكتب الرواية لم تكن تتملكني هذه الأحاسيس كنت أصنع عالمي وأعيش فيه".

****

(٣)

ارتفع به المصعد الزجاجي، أصبح كالطائر المحلق يرى النيل، والجزيرة بأشجارها الخضراء، ومبانيها، زوارق البوليس النهري تروح وتجيء تنطلق في لحظة، ثم تتوقف كأنها تبحث عن شيء، خرج منه وعبر الصالة الواسعة تلمع فيها الأجهزة تحت الضوء المنبعث من أماكن خفية، شاشات "الكومبيوتر" تتفرس فيه مثل العيون السوداء الكبيرة، رفع عينيه إلى الساعة المعلقة على الجدار كانت تشير إلى السابعة والنصف.

أدخل مفتاحه في الباب ودفعه، امتدت الغرفة الكبيرة أمامه، تأمل أثاثها البسيط كأنه لم يدخل إليها من قبل: مكتب من الخشب على لونه، مقعد "بلانس" تعود أن يجلس عليه بعد أن زادت آلام الظهر، رفوف معدنية صفت الكتب والملفات عليها، منضدة اجتماعات حولها مقاعد، جهاز "كومبيوتر" وتليفون وفاكس، وآلة تصوير صغيرة، وعلى أحد الجدران صورة بالألوان لامرأة فلاحة جالسة أمام الفرن.

أدار جهاز التكييف وجلس خلف مكتبه، عـ دل مـ ن وضع الصورة الموضوعة عليه، يحب هذه الجلسة المبكرة في غرفته، أخرى بعض الأوراق المسـ طرة مـ ن الـ درج وأمسك بالقلم، نسمع نقرأ على الباب، انتظر لحظة فتكـ رر النقر، قال "ادخل" فانفتح الباب كاشفا عـ ن رجـ ل وجهـ ه أسمر، وشعره المدهون يلمع في الضوء. دخل يحمل بطنـ ه الكبيرة أمامه فوق حزام البنطال الهابط تحت خصره، تقـ دم بخطوة حريصة كأنه يختبر الأرض قبل أن يضـ غط عليهـ ا بحذائه الأسود المدبب، ابتسم فلمعت أسنانه طويلة بيضـ اء فقال: "صباح الخير يا دكتور يوسف، أرجو ألا أكـ ون قـ د جئت في وقت غير مناسب"؟

ألقى بالقلم فوق المكتب بصوت مسموع وأجابه:

"لا أبدا، تفضل اجلس، كيف الأحوال؟".

مرة أخرى لمعت أسنانه:

الحمد لله على ما يرام.

سأله: "هل عقدتم الاجتماع بالأمس"؟

نعم وناقشنا المرحلة القادمة في البحث، الـ دكتورة "عفـ اف" سـ تقوم بكتابـ ة مشـ روع برنـ امج مسترشـ دة

بالاقتراحات التي قدمتها سيادتك، لكن كان الاتجـ ـاه العـ ـام الذي ساد يرى أن المتطلبات المالية والتكنولوجية في هـ ـذه المرحلة تتعدى إمكانياتنا".

كان هذا هو رأيكم أيضا في المرحلة التـ ـي انتهينـ ـا منها".

تراجع في جلسته وصمت شيء كالشحوب زحـ ـف على الوجه الأسمر كأنه يكتم شيئا في نفسه، حملـ ـق فـ ـي وجهه ثم استطرد: " يا دكتور عبد الفتـ ـاح، عنـ ـدما بـ ـدأنا البحث لم يكن أحد في المركز يصـ ـدق أننـ ـا سـ ـننجح دون مساعدة من الخارج، مع ذلك حققنا نتائج يمكن أن نعتبرها غير متوقعة، أم أن لك رأيا آخر؟".

"أنا ؟ إطلاقا، مد يده أمامه بحركة فيها استسلام، ما تقوله هو الموقف السليم، يجب أن ندافع عن كياننا، عـ ـن هويتنا عن مواجهة الغرب".

كاد أن يسأله "إذن لماذا تزوجت امـ ـرأة إنجليزيـ ـة وأرسلت أولادك للدراسة في ميتشـ ـجان آن اربـ ـور؟" ثـ ـم صمت. لا يريد أن يدخل معه في عـ ـراك يمكـ ـن أن يعقـ ـد الأمور بينهما.

قال: "مع ذلك ربما في المرحلة الجديدة يتضـ ح أن رأيكم سليم، لكن قبل أن نصل إلى هذه النتيجـ ـة لا بـ د أن ندرس المسألة في تأن، وفي ضوء خبرتنا السابقة، يجـ ـب أن تكون لدينا ثقة في قدراتنا".

مال إلى الأمام في حماس "وأن نعمل مسويا كفريق متجانس أسهل حاجة هذه الأيام هو اللجوء إلى الخارج، لم نعد نستفيد من المواهب والقدرات الموجودة عندنا".

"بالطبع، بالطبع، كلامك هذا له صدى عميـ ـق فـ ـي نفسي، أنا معك على طول الخط، لكن طالما أننا نتحدث عن عملنا كفريق هناك مسألة أثيرت في اجتماع الأمس طلبـ ـوا مني أن أعرضها عليك".

خفض عينيه إلى السبحة التي ظلـ ـت تـ ـدور بـ ـين أصابعه القصيرة بحركة منتظمة ثم رفعهما إليه، سـ ـطحهما أسود زجاجي لا يستطيع أن يستشف من نظراتهما شيئا.

"هناك جزء من البحث لم نشارك فيه نحن أعضـ ـاء الفريق، قمت أنت به وحدك، وحتى الآن لم تفصـ ـح لنـ ـا إلا عن المعلومات التي سمحت لنا بإجراء بعـ ـض الاختبـ ـارات

التكميلية دون أن نعرف شيئا عن جوهر الاكتشاف الذي وصلت إليه".

"من الذي آثار هذا الموضوع".

"الدكتورة "عفاف" لكن باقي أعضاء اللجنة لم يعترضوا على إثارته، يبدو لي أن عندهم التساؤل نفسه".

"والله يا دكتور يوسف، وربنا يشاهد على أنني لا أبغي إلا صالح العمل، أنا يبدو لي أن معها بعض الحق، فنحن كما قلت فريق، يجب أن نكون شركاء في كل شيء.

حتى فيما لم تبذلوا فيه جهدا، الفريق يتكون من أراد ولكل فرد جزاؤه على ما يبذله، أنا لم أطلب لنفسي مالا، ولا امتيازات، كل ما أريده هو أن يعترف بي كصاحب اكتشاف علمي مهم، أليس هذا حقي؟ وانتم أيضا سيكون لكل منكم الفضل فيما ساهم به وهو فضل يجب أن يعترف به وأن تكافأوا عليه لكن أن يتساوى الناس بصرف النظر عن جهد، وفكر كل منهم، فليس هذا من العدل في شيء".

"بالطبع، بالطبع يا دكتور يوسف، هذا ليس قصدي أبدا، أرجو أن تفهمني، كنت أريد فقط أن أصارحك بما يدور

في الأذهان بدلا من إخفائه، أنا أتصرف بما يرضي ضميري، والأمر متروك لك في النهاية".

صمت كأنه يبحث عن كلام يضيفه ثم قال: "سأقدم مشروع برنامج العمل للمرحلة القادمة من البحث واحتياجاته قبل الاجتماع القادم، أريد أن اعتذر عن ورشة التدريب، عندي اجتماع في الجمعية الشرعية هذا المساء ولا بد أن أحضره، صدفة غريبة، اكتشفت أن المدير الإداري الجديد الأستاذ "نبيل القرنفلي" انضم أخيرا للشعبة التي أرأسها، أرسل إلى دعوة على العشاء فلما تحدثت معه عرفت هذه الحقيقة منه، لا بد أنه دعاك أنت أيضا والدكتورة بالطبع، كيف أحوالها" لم أرها منذ مدة، لم تعد تحضر لاصطحابك إلى البيت في السيارة كما كانت تفعل أحيانا، أرجو أن تبلغها تحياتي".

عيناه تبحثان عن ثغرة لينفذ منها، هذا الرجل لا يفوته شيء، تجاهل سؤاله.

"شكرا"

ظل جالسا كأنه يريد أن يسأل عن شيء.

"سمعت أنه دعا الوفد الدولي على العشاء فـ ـي ذات الليلة، هل التقيت بهم عندما جاءوا إلى المركز بالأمس".

"لا".

غريبة.

ليس هذا غريبا في شيء، أغلب الظن إنها زيـ ـارة تعارف مع رئيس المركز".

"معك حق، عدم حضورك كان أمرا طبيعيا لا شك".

القي ناحيته بابتسامة كاشفة عن أسـ ـنانه الطويلـ ـة البيضاء، لم يرد ابتسامته فتردد لحظة ثم قال: "عن إذنك يا دكتور، سأذهب لفحص الجهاز الفوتوني الجديـ ـد وأتركـ ـك لتكمل ما بدأته، هل تأمر بشيء".

لمح جسمه العريض المدكوك يخرج من الباب، أخذ نفسا عميقا، هذا اللقاء في بداية اليوم أصابه بالضيق، كانت "نجوى" تقول: "ألم ترى وجهه، بلا إحساس، بلا شيء فـ ـي العينين، يقتل القتيل ويمشي في جنازته" يقول: "أنت تبالغين إنه ليس سيئا إلى هذا الحد" الأحمال ثقيلـ ـة عليـ ـه، عنـ ـده خمسة من العيال " فتضيف وزوجتان، لكن ظروفه ليسـ ـت

سيئة كما تظن قضي عشر سنوات في السعودية عمل أثناءها كيميائي أول في شركة أرامكو.

والآن مستشار في بنك النور الإسلامي وفي اللجنة العلمية لشركة أماكو الزراعية الدولية، يسألها "من أين عرفت كل هذا؟ تقوم تقف أمام المرآة لتمشط شعرها، تأخذ وقتها قبل أن ترد عليه كأنها سرحت "من صديقك" أمين الصيرفي ". ذهبت إلى المعهد لأسأل إن كان عندهم قسم للخيال العلمي في المكتبة فمررت عليه ليسهل لي الأمور، سألني عنك، وعن المركز وجاءت سيرة الدكتور عبد الفتاح، وبسذاجتي المعهودة قلت إنني لا أرتاح إليه ألقى إلى بابتسامته الودودة وقال: "قد نختلف مع آرائه لكنه كفاءة علمية نادرة". وحكي لي هذه التفاصيل دون أن تختفي الابتسامة من وجهه.

منذ أسبوع سمع أنها نشرت بحثا عن الكتب المصادرة خلال السنتين الأربع الماضية لاقي نجاحا واضحا، وأن الأزهر طلب مصادرته فنفذ من السوق بعد أيام قليلة، إن جامعة "بيل" عرضت عليها أن تعمل أستاذة

زائرة فوق العادة، إنها تشق طريقها بسرعة بينما ما زال هو باحثا مغمورا، كان يضايقه الإحساس بأنها أصلب منه.

كانت ساعة الجامعة تدق العاشرة في راديو السيارة عندما وصل أسفل العمارة، بعد أن دخل إلى المصعد سمع صوت حارس الأمن ينادى عليه" انتظر يا بك" وبعد لحظة دخلت مالكة العمارة، امرأة قصيرة القامة، شعرها مصبوغ بلون أصفر.

استنشق رائحة عطر قوي، وعرق، وسجائر، أخرجت مرآة من حقيبتها وفحصت شفتيها المصبوغتين تضمهما فيما يشبه القبلة ثم تفرج عنهما لتكشف عن أسنانها.

دس مفتاحه في الباب، دخل في الشقة وأضاء النور.

تذكر أن الغد يوم الجمعة، سيمارس رياضته الصباحية على شاطئ النيل، ويقرأ المجلات العلمية التي أحضرها معه، توجه إلى حجرة المعيشة، أخرجها من الحقيبة ووضعها على المكتب.

لمح من بينها العدد الأخير من مجلة "تكنوسد بايس كيميكالزكوربوراشون".

قال له الدكتور عبد الفتاح في الصد باح إن الوفد د الدولي مكون من ثلاثة: رئيس وكالة المساعدات الدولية ـة، والملحق العلمي فـ ـي سـ فارة أمريكـ ـا، ومنـ دوب شـ ـركة تكنوسبايس الصناعية واللدائن في العالم.

توجه إلى المطبخ، أخرج علبة زبادي مـ ـن المبـ ـرد وصب لنفسه كوبا من البرتقال أعده له الشغال، جلس على المنضدة وتناولهما بسرعة، سيقضي الغد كله محاصرا فـ ـي البيت وحده.

أيام العمل أفضل، ربما يكون "إسماعيل أبو سـ ـمرة" في القاهرة، لم يره منذ أكثر من شهرن، سيتصل به قبل أن يأوي إلى الفراش.

تعود أن يذهب يوم الخميس إلى المقهـ ـى، يتخيلـ ـه جالسا على الرصيف يسحب نفسـ ـا طـ ـويلا مـ ـن الشيشـ ـة ويضحك مع النادل.

الواقف أمامه وهو يقلب له السكر في الشاي الداكن الذي يحبه.

ألقي علبة الزبادي الفارغة في صد ندوق القمام ـة، غسل الكوب الذي شرب فيه العصير والملعق ـة وجففهم ـا بالمنشفة ثم أعاد كلا منهما إلى مكانه، أطفأ ن ـور المط ـبخ وعاد إلى حجرة المعيشة، أخرج المفك ـرة والزرق ـاء م ـن الحقيبة، وأغلقها بالشفرة بعد أن تأكد من وجود المظروف الذي وضع فيه التقرير، ترى لم ـاذا ل ـم يطلب ـه ال ـدكتور "فاروق"؟ ضغط بقدمه على مفتاح الكشاف الطويل الأس ـود، وجلس على الأريكة، فتح المفكرة وأخذ يبحث في صفحاتها إلى أن اهتدى إلى ما كان يبحث عنه.

١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٢ سجن القلعة، حصلنا على دفاتر من ورق البفرة، وأصبح في إمكاني أن أستأنف كتابة هذه المذكرات، السجن صامت لا ص ـوت في ـه إلا ص ـوت المفاتيح يتردد بين الحين والحين عندما ينتقل احد الحراس من عنبر إلى عنبر، اليم الخامس عشر من إض ـرابنا ع ـن الطعام، غريب هذا الشعور بالشفافية، بأن جسمي لم يعد له وزن، أصبحت مثل السحابة تنساب في الفضاء بعيدا ع ـن جاذبية الأرض، عندما أمش ـي إل ـى دورة المي ـاه أت ـرنح بإحساس لذيذ كالسكرة، كأنني أحلق عاليا فوق الجوع، على

كل احتياجات الجسم، كالروح أصبحت بلا جسم، أستطيع أن أحلق بعيدا عن القفص الكبير.

أمشي أمام أبواب الزنازين المفتوحة ع ن آخره ا تفوح منها رائحة الأنفاس، انظر إلى هذه الس ماء أراه ا خلاص القضبان زرقاء صافية. اشتاق إلى الس ير تحته ا دون أن تصطدم عيناي بالأصابع السوداء تحاص رني لأدور وأدور كالحيوان في هذا العالم الغريب وسط رجال أصبحوا كالأشباح.

فجأة فتح باب العنبر، سمعت صوت حديد يص طك بالحديد، وأحذية تعدو فوق البلاط، وتهز الجدران، ج اءوا بالعشرات في أ يديهم الأحزمة الجلدية الغليظة يتدلى عن د آخرها قفل من النحاس، وفي أقدامهم الأحذية الميري ت دب فوق الأرض، وترتطم بأجسامنا بعد أن أخرجونا من غرفنا.

انهالوا علينا بالضرب على كل جزء من أجسامنا، كانوا كالعميان جاءوا للفتك، لم أشعر بشيء كنت أقاوم دون أن أعرف ما الذي أ قاومه وكنت أصرخ دون أن أشعر أنني صرخت، في منتصف العنبر ضابط له وجه أحم ر مذ تفخ

الأوداج يقف على بعد، وقد وضـ ـع يديـ ـه خلـ ـف ظهـ ـره، والأخرى على بطنه تحت الحزام.

سمعت صوتا إلـ ـى جـ ـواري يصـ ـرخ "حتخنقنـ ـي، حتخنقني" كنت راقدا علـ ـى الأرض، فالتفتـ ـت، كـ ـأن احـ ـد المضربين باركا على ركبتيه وقد وقف وراءه حارس مـ ـن حراس السجن، لمحت وجه زميلي أزرق اللون وهو يشهق من فمه المفتوح عن آخره محـ ـاولا جـ ـذب الهـ ـواء إلـ ـى صدره، جاءتني قوة غريبة من أيـ ـن لا أدري، دون تفكيـ ـر قمت من رقدتي وألقيت بكل ثقل جسـ ـمي كالصـ ـاروخ فـ ـي اتجاه الحارس، اصطدمت رأسي ببطنه أعلى ساقيه، صـ ـدر عنه صوت كالحيوان يزعق من الألم، وترنح إلـ ـى الخلـ ـف فانفلت الحزام الذي كان مشدودا حـ ـول رقبـ ـة المسـ ـجون البارك أمامه، وفي تلك اللحظة صرخت الصفافير في العنبر، وتوقف الضرب.

لمحت وجه الحارس كتلـ ـة مـ ـن اللحـ ـم، وعينـ ـين صغيرتين تنظران إلى في حقد قبـ ـل أن ينسـ ـحب بحركـ ـة مترددة من جسمه الضخم متلفتا إلى وكأنه يريد أن يعـ ـود ليفترسني.

جلسنا على الأرض، عادت بشرته إلى لونها الطبيعي، وانتظمت أنفاسه، مسح بأصابعه حول عنقه، وتحسست أنا رأسي أطمئن عليه، نظرت إليه، كانت عيناه بنيتي اللون فيهما دفء أشرق وجهه بابتسامة فغمرتني، سألني:

"اسمك إيه يا زميل؟".

قلت: "يوسف صفوان".

وضع ذراعه حول كتفي وقال: "أشكرك، أنا أسمي "إسماعيل أبو سمرة".

ترك المفكرة دون أن يغلقها، أطفأ المصباح المنتصب في الركن، عينا "إسماعيل" تشبهان عينيها، عيون تقول "روحي أقدمها إليك"، مد ساقيه فوق الكنبة، وأخذ يستمع إلى أصوات الشارع تتلاشي بالتدريج إلى أن سقط في النوم.

(٤)

دق جرس الباب في الدور الأول للعمارة، عند الباب المقابل لافتة من النحاس كتب عليها الدكتور عبد الغفار أبو

زهرة أستاذ الأمراض التناسلية والعقم في كلية طب جامعة ٦ أكتوبر.

أدخله الشغال في غرفة الاستقبال واختفى، أحـ س بالجو مكتوما فقام وفتح زجـ ـاج النافـ ـذة المغطـ ـاة بحديـ ـد "الكريتال" الأسود.

علي الناحية الأخرى من الشارع الضيق لمح جامع الحي، يقول "إسماعيل أبو سمرة" ضـ ـاحكا "شـ ـيخ الجـ ـامع يعتبرني مصدر الفساد في الحي، عن طريـ ـق الميكروفـ ـون يصب جام غضبه في شقتي المتواضعة، كنت أستريح أحيانا عندما ينقطع التيار الكهربائي لن تبرع أحد تجار "البـ ـانجو" بمبلغ لشراء ماكينة كهرباء، فأصبح من حقي أن اسـ ـتمتع بالآذان ينفجر في أذني خمس مرات في اليوم، بالصـ ـلوات، والتراويح، ودرس ليلة الأربعاء، وخطاب صـ ـلاة الجمعـ ـة، وجلسات الذكر، وتلاوة القرآن المسـ ـجل، وحتـ ـى ضـ ـراط المصلين يبدو لي أن "تفيسة" تركتني لأنها لم تحتمل هـ ـذه الضجة المستمرة. "فيرد عليها" يا إسماعيل كف عن النصب تركتك عندما اكتشفت انك تزوجت عليها سرا".

غرفة الاستقبال الضيقة فيها العادية الخالية من لمسات الفن، نور النهار يكاد لا ينفذ إليها، يحل محله ضوء النجفة تتدلي من السقف بشمسياتها القرمزية ولمباتها المستطيلة احترقت أغلبها، فلا تضيء إلا اثنتان أو ثلاثة منها، الأريكة، والمقاعد الثلاثة مغطاة بحرير لامع لونه نبيذي تتوسطها منضدة مستطيلة لها رف ترقد عليه بعض المجلات القديمة تذكره بعيادات جيل من الأطباء المشهورين استقروا في عمارات وسط البلد، فوق الأريكة عتبة تبرز من الجدار انتصبت عليها صورة في برواز معدني لابنه مرتديا ثوب الدكتوراه، وفي عينيه نظرة مثبتة على الأفق البعيد، وزهرية مذهبة مرت السنين دون أن يرى فيها زهرة، في ركن الغرفة جهاز تليفون على سماعته بصمات أصابع داكنة اللون.

سمع صوتا كأزيز العجلات الصدئة فالتفت، كان "إسماعيل" يتقدم نحوه جالسا على مقعده المتحرك يدفعه أمامه الشغال ليدخل به إلى الغرفة، أوقفه أمامه على مسافة قصيرة منه فمده يده إليه، وجذبه منها ليحتضنه، أحس

بذارعيه القويتين تضمانه إلى صدره ثم أطلقه لكي يعود إلى حيث كان يجلس، ظل الشغال واقفا كأنه ينتظر شيئا، فسأله:

ماذا تريد أن تشرب "يا يوسف" ثم أضاف ضاحكا.

"عندنا شاء ثقيل، وشاي متوسط، وشاي خفيف".

"أشرب شاي متوسط بدون سكر".

قال: وأنا شاي تقيل، وأكثر من السكر.

حملق في وجهه بفضول فسأله: "هه قل لـ ـي " يـ ـا يوسف" ماذا رأيت؟

لا شيء فيك تغير... ربما قليل من الشحوب؟

قال في صوت فاقد الحيوية: "أما أنا فأشـ ـعر أنـ ـي انتهيت".

هذا كلام لم أتعود أن أسـ ـمعه منـ ـك، إصـ ـابتك يـ ـا "إسماعيل" في الساقين، وليست في الـ ـرأس، كنـ ـت تقـ ـول دائما، مشكلتي أنني أجري طول الوقت، ولا أخلو إلى نفسي أبدا، ستدخل في مرحلة جديدة ربما صعبة، وعليك أن تغير في أسلوب الحياة، لكن كما رأى الأطباء في حالتك الآن".

قالوا إنهم استأصلوا الورم تمامـ ـا، ومـ ـع العـ ـلاج بالأشعة وبعض العقاقير لن يبقى منه شيء، لكـ ـن التلـ ـف

الذي أصاب الأعصاب لا علاج له ولن أستعيد الحركة في الجزء الأسفل من جسمي".

عيناه تتفاديان النظر إلى ساقيه تتدليان في البنطال مثل ساقي الدمية. كأن الجسم الجالس أمامه أصبح مبتورا، ولم يبق منه إلا الجذع، كأن الرجل فيه شيء ميت إذا مد إليه يده سيكون ملمسه باردا، أحس بالنفور، بقشعريرة تخترقه، في المستشفى كانت ترقد أمه مربوطة في شيء كالكفن الأبيض تبرز قدماها من تحته، مد يده وربت عليهما كأنه يواسيها في مرضها لا ينسي الملمس القريب للموت في ثنايا البرودة والإحساس بالعجز أمام حكم لا رجعة فيه، بللا معني، واللا قيمة فيما يسعى إليه.

عاد إلى عيني "إسماعيل" تنظران إليه في تساؤل نظرتهما ثانية على جانبي الأنف المستقيم المنحوت بدقة، أحس بالخجل من نفسه، قال بسرعة:

"شيء صعب أن يفقد الإنسان قدرته على السير فوق قدميه لكني تذكرت الآن ما تقوله "نجوى" عنك "إسماعيل" هو الوحيد من أصدقائك الذي آنس إليه، عندما يحكي عن طفولته، عن القرية، أو السجن، أو يصف الناس

الذين تعرف عليهم يعبر بفن، وبإحساس إنساني، لمـ ـاذا لا يكتب شيئا عن حياته؟ الطموح السياسي أبعدكم عن الحيـ ـاة الحقيقة".

زاغت نظراته في جنبات الحجرة قبل أن تعود إليه.

"أنا ملول، وكسول، لم أتعود البقاء في مكان واحد، ولا الجلوس على مكتب ساعات طويلة، في بلـ ـدتي "كفـ ـر سعد" كنا جميعا وفديين، ما عدا العمدة، في شبابي تـ ـأثرت بمدرسة الوفد، تعـ ـودت علـ ـى الخطابـ ـة، والاجتماعـ ـات، والمظاهرات، على السياسية بمعناها اليومي، ثم انضـ ـممت إلى اليسار، وسارت حياتي على ذات المنوال، وأن أصبحت أكثر وعيا".

"لكن ماذا ستفعل بوقتك "يا إسماعيل".

"أنا أعشق القراءة في التاريخ".

مال إلى الأمام كأنه سيقول شيئا مهما، قرأت أخيرا مذكرات "سعد زغلول"، إنها ممتعـ ـة، فـ ـلاح وزعـ ـيم أمـ ـة يخوض المعارك بحكمة ومقامر يخسر كل ما يملكـ ـه فـ ـي حمى الميسر".

"ليست صدفة أنك معجب به، كان سياسيا مراوغ ـا إلى جانب الأشياء التي ذكرتها، في شبابي كنت أفضل ط ـه حسين لكن هل ستقضي كل وقتك في قراءة التاريخ؟

"أقضي ثلاثة أو أربعة أيام من ك ـل أسـ ـبوع فـ ـي المرزعة بعد أن أضفت إليه ـا عشـ ـرة فـ ـدادين، شـ ـغلتني مشاكلها في الفترة الأخيرة، فالأراضي الجديدة التي باعتها الحكومة لم تنشئ فيها نظاما للصـ ـرف، لـ ـذلك لا يتوقـ ـف منسوب المياه الجوفية عن الارتفاع مما يؤدي إلى إصـ ـابة مساحات كبيرة منها بالتملح.

تجمعنا نحن الملاك وذهبنا إلـ ـى وزارة استصـ ـلاح الأراضي كنت على رأس المظاهرة وكان عددنا أكثـ ـر مـ ـن مائتين أغلبهم من الشباب".

لكن كيف ذهبت أنت يا "إسماعيل".

ضرب بكفه على مسند المقعد المتحرك، لمعت عيناه وهو يرد:

"علي الجحشة هذه، زودتها بموتور فأصبحت تجري بسرعة".

ضحكاته تتردد مثل كركرة المياه في القلة.

"لا أحد من رجال البوليس تجرأ على إيقافنا عندما لمحوني سائرا في مقدمة الركب وأنا أهتف وبعد هذه التجربة أصبحت أفكر في خطوة أخرى أبعد منها، لكن قبل أن أحكي ما رأيك تأكل "آيس كريم؟".

"كل أنت يا "إسماعيل" إني اتفادى الكوليسترول".

يا سيدي بعد الذي حدث لم يعد يهمني شيء، تحررت أصبح عندي شعور بالحرية لم يسبق أن شعرت بمثله، لكن دعني أحكي لك عن المشروع الذي فكرت فيه قرأت في الصحف أنهم سينشئون مجلسا أعلى للمعاقين برئاسة حرم الرئيس البلد أصبحت كلها مجالس عليا، ومجالس قومية، ربما عن قريب سيضطرون إلى إنشاء مجلس أعلى للمجالس العليا، لا بأس إن المجالس هذه تتيح الفرصة أمام أصحاب السلطة وكبار المفكرين لكي يحرروا الناس في بلادنا مما يعانون منه في حياتهم، لكي يناضلوا نيابة عنهم للحصول على حقوقهم، ومن الطبيعي أن يحصلوا على مناصب، وامتيازات ومكاسب تعوضهم عن هذا الجهد".

"يا إسماعيل ادخل في الموضوع".

تجاهل اعتراضه رشق ملعقته في الصـ حن الـ ذي أفرغ فيه علبة من "الآيس كريم" وحملها إلى فمـ ـه، قـ ـائلا: "أحسن حاجة عندي في الحياة "الآيس كريم" لا ستجعلني يا "يوسف" أنا أريد أن ألجا إلى الناس الذين لم يعد أحـ ـد فـ ـي هذا البلد يرى نفعا في اللجوء إليهم كأنهم أصبحوا عاجزين عن الفعل، فهل يمكن أن نبقي هكذا مكتـ ـوفي الأيـ ـدي إزاء المهازل التي تحدث أمامنا؟ أعرف أن المسألة تزداد تعقيدا في كل يوم، جرونا داخل تروس النظام العالمي، وهي يمكن أن تسحقنا، أصبحنا نطحن بين رحى الأصـ ـولية السـ ـلفية، والتنوير الليبرالي، وجهي النظـ ـام الرأسـ ـمالي، يجـ ـب أن نقاوم، أن نشق طريقا جديدا، ونقطة البداية أن يعمل كل منا مع الناس في موقعه، وأنا أصبحت معاقـ ـا، ومكـ ـاني مـ ـع المعاقين مثلي".

"والملاك؟".

"لا لست منهم، احتاج لبعض المال فقـ ـط لأمـ ـارس حياتي"

حملق "يوسف" في وجهه متسائلا: "سأسعى لتكوين اتحاد عام للمعاقين".

خطر في باله، هل هو التعـ ـب أصـ ـابه، أم مـ ـا زال يؤرقه طموحه السياسي، ولكن إنه الآن في القاع يحاول أن يصعد أحس بغصة في حلقه وهو يقول: "فكـ ـرة مجنونـ ـة، وجميلة يا "إسماعيل" أعطني قليلا من "الآيس كريم" لندشنها سويا".

أشرق وجهه – هتف كالطفل المنبهر بنفسه:

صحيح يعني أمشي فيها؟

طبعا أمشي فيها.

قال في حماس: "إنها ناس في القاع، والمجتمـ ـع لا يقدم لهم شيئا سوى مظاهر الدعاية، يبرزون بهـ ـا بعـ ـض الشخصيات، إنهم ملايين محبوسين في البيوت كالمنبوذين، إنهم مثل الظمأى ينتظرون قطرة غيث تهبط عليهم".

نظر "يوسف" إلى ساعته فانتبه: "لم أسـ ـألك عـ ـن أخبارك أنت ونجوى".

سنتحدث عن هذا المرة القادمـ ـة، لكـ ـن "نجـ ـوى" ستسألني عنك، عن المذكرات التي قلت إنك ستكتبها".

تجهم وجهه لحظة:

"يا عم يوسف اتركني مع المعاقين، واكتب أنت، أم أن البحث العلمي أخذك بعيدا عما تحبه"

"ربما، هناك أشياء أخرى تؤرقني سأحكي لك عنها فيما بعد، لكن قبل أن أنصرف أريد أن آخذ رأيك في مسألة شغلتني، المهم أن تبقى هذه المسألة بيني وبيذ ـك إلـ ـى أن تتغير الظروف، وأستطيع أن أعلنها، أنت تعرف أنني فـ ـي سبيلي إلى تحقيق اكتشاف علمي مهم، بـ ـل الواقـ ـع أنذ ـي وصلت إليه بالفعل".

"نعم، قلت لي هذا من قبل وإن كنت لم تشرح لـ ـي التفاصيل".

"ليسـ ـت مهمـ ـة الآن... المسـ ـألة التـ ـي أريـ ـد أن أستشيرك فيها تتعلق ببعض مخاوفي، أنا صـ ـاحب الجـ ـزء الأساسي من الاكتشاف الذي وصلنا إليه، هذ ـاك آخـ ـرون شاركوا في جوانب مكملة له.

لكن عندي إحساس بأنه ستبذل محاولات للاستيلاء على سر ما وصلت إليه ليستفيد غيري منه، وأحرم أنا من حقي بوصفي صاحب الكشف العلمي".

تجمدت ملامحه كأن قناعا أسدل عليها، لمعت مثل نصل التقط شعاعا من الضوء في الليل سأله:

"هل سجلت البحث؟".

"سجلته، ماذا تقصد؟".

"أحيانا يا "يوسف" أشعر أنك في سذاجة الطفل وأتساءل ما الذي أدخلك يوما ما في السياسة، لكن الحياة بدون أمثالك ليست حياة، ما علينا اقترح عليك أن تسجل البحث باسمك في الشهر العقاري فورا، إنه أبسط شيء، وألا تعطي سره لأحد قبل أن يعترف رسميا بملكيتك له بوصفك صاحب الاكتشاف، ومن حقك التصرف فيه بما تراه، أفهمتني؟ صمت لحظة كأنه يفكر ثم سأله من هم الذين تخشى منهم؟.

"زملائي في المركز".

ربما لكنهم سيكونون مجرد أدوات لشيء أكبر".

ماذا تقصد.

لا أعرف بالضبط لكن اكتشافك هذا كما فهمت ليس شيئا عاديا، ويمكن أن يثير شهوات الكثيرين، غامت عيناه "يجب أن تكون حريصا، أين تضع أوراق البحث؟.

"على دسك في خزانة سرية عندي في البيت، وفي خزانة أخرى في البنك".

"هل لكل منهما شفرة".

نعم بالطبع.

من يعرف الشفرة؟

في البيت لا أحد غيري، في البنك أنا ورئيس المركز "فاروق الدجوي".

"غير شفرة البنك فورا".

لكن..

لا يوجد شيء اسمه لكن.. لا تكن ساذجا، المثقفون الشرفاء في بلادنا تعودوا السرقة حتى فيما يكتبونه، هل توقفت عن القراءة أم ماذا؟... وبالمناسبة هل "نجوى" عندها فكرة عن هذا الموضوع".

تردد لحظة ثم قال: "لا أظن".

"لا تظن! أسمع يا "يوسف" أهناك شيء حدث بينكما لم تحدثني عنه؟ أم ليس هذا وقته؟ على أي حال لنبقى في موضوعنا: ما هي التقارير التي ترفعها لرئيس المركز؟".

تقارير متابعة خالية من التفاصيل الفنية للبحث، هذا هو ما اتفقنا عليه، إنه صاحب مصلحة مثلي في هذا البحث الذي يمكن أن يعود على المركز بالمكاسب، وبسمعة علمية دويلة".

"جميل لكن قد تتغير مصالحه، مجتمعنا يمشي فوق رمال متحركة، ولا شيء يمكن أن تضمنه، ثم "فاروق الدجوي" هذا سمعت أنه لوطي".

"يا إسماعيل !! الناس لن يكفوا عن ترديد الإشاعات سمعت هذا في المقهى بالطبع، الرجل ربما فيه خصال غريبة لكني متأكد أنه ليس كما تقول، وعلي أية حال هذه مسألة تخصه".

"أنت رجل متحضر، أما أنا ففلاح، هذا الكلام يصلح في أمريكا حيث هذا الصنف من الرجال أو النساء جزء لا يتجزأ من مجتمعهم، لهم نظرياتهم وأفكارهم المعترف بها، والتي تدرس حتى في جامعاتهم، أما هنا فاللوطي منبوذ مثل الكلب في القرية يضربه كل الناس فيصبح جبانا لا يؤمن جانبه".

ابتلع ملعقتين من "الآيس كريم" قبل أن يقول: "سؤال أخير، هل معك سلاح؟".

سلاح أجننت يا إسماعيل؟

ألقى إليه بنظرة ساخرة فيها حب.

"لذلك يا صديقي معك أعود إلى الجزء النقي الذي فقدته، نحن نعيش في عصر "المافيات" أم أنك لم تسمع عنها، تغلغلت إلى كل المجالات، وتتاجر في كل شيء، سجل في الشهر العقاري، وغير شفرة البنك، واشترِ مسدس ورخصه، يمكنني أن أساعدك في الحصول على ترخيص وفي شراء المسدس أيضا إن أردت، زرني في المزرعة، سأدربك على استعماله بحيث تصبح من أمهر الناس في الضرب بالطبنجة وفوق البيعة ستأكل أحسن عنب بناتي، وخوخ في القطر ستكون مرحلة جديدة في الحياة بالنسبة إليك أنت أيضا، على كبر صحيح، مشكلتنا أننا شعب أعزل نخاف من أسيادنا".

دق جرس التليفون فوقف على قدميه وقال بسرعة: "تأخرت يا "إسماعيل" لا بد أن انصرف كلمني نعم معي

سيارة، سر في مشروعك، وشكرا على كل شيء بما فيـه "الآيس كريم".

أضاء الشال نور المدخل حتى يرى طريقـه، عنـد الباب المقابل لمح امرأة عريضة الجسم تدخل منه، لمحهـا من ظهرها قبل أن يغلق وراءها، تشبه الدكتورة عفاف من الخلف، حول رأسها ترتدي حجابا بنفسجيا، وتحت قـدميها لاحظ النعل السميك الأسود يطل من الأسفل.

(٥)

استيقظ فجأة كانت الغرفة غارقة في الظلام، نظ ـر إلى المنبه أضاءت علاماته الفوسفورية إلى جـ ـواره، كـ ـان يشير إلى الساعة الرابعة، أحس بقلبه يدق، وبالعرق البارد على صدره، عادت إليه صور الحلم، رأى نفسه واقفا فـ ـي بئر عميق، من حوله ناس يرتدون أسمالا باهتة تكشف عن أجزاء من أجسامهم لا يرى وجوهم فهي محطة بظلال، لكن بالتدريج أخذت تبرز بعض الملامح كأنها طفت تفوق بحـ ـر يغط في الظلام أو هائمة في الفراغ الأسـ ـود تحـ ـت ضـ ـوء كشاف سلط عليها، لاحظ أنهم ينظرون إليه من بين جفونهم الميتة نصف المغلقة، أو يلقون إليه بنظرات خاطفة دون أن يرى عيونهم، اقترب منه رجل نحيل الجسم، يرتدي بنطـ ـالا قصيرا يصل أسفل الركبة، إنه رئيس الحزب الذي انضم إليه في شبابه، ثم تغيرت مرة أخرى، ولم تعد تشبه أحد ممن له بهم صلة، فاندهش لأنه ما زال يتحدث إليه كأنه يعرفه منذ زمن، إلى جواره توقفت امرأة تحمل ملفا تحـ ـت ذراعهـ ـا، جسمها أبيض مربع وترتدي حول رأسـ ـها حجابـ ـا لونـ ـه

بنفسجي، لكنها تصبغ شفتيها الرفيعتين بدهان أحمر فـ ـاقع، تكشف له عن صدرها بحركة سريعة من يدها، وتبتسم.

وفي لحظة من اللحظات رفع رأسه، فلمح "تجـ ـوى" تقف على صخرة بارزة، وتشير بيدها إلى المياه ترتفع في البئر لتغطي أقدامه فيحـ ـاول المحاصـ ـرون فـ ـي البئـ ـر أن يتسلقوا الجدار، يضعون أصابع اليد، والقدم في الفجـ ـوات بين أحجاره، يتكئون عليها ليرفعوا أجسامهم لكن الأحجـ ـار مغطاة بطبقة ملساء داكنة تشبه طحالب البحـ ـر فينزلقـ ـون عليها المرة بعد المرة، ويسقون إلى قاع البئـ ـر لتغطـ ـيهم المياه الصاعدة، يسـ ـتولي علـ ـيهم الرعـ ـب، يصـ ـرخون، ويتخبطون يتعاركون بالأيدي، والأرجل، بالأسنان والأظافر، وتسيل دماؤهم يصعد أحدهم فوق ظهره فينوء تحت حمله، ويشعر بجسمه ورأسه غارقين تحت الماء، يصـ ـارع كأنـ ـه يحاول أن يخترق سائلا، ثقيلا لزجا أحاط به، لكنه يصل إلى السطح فجأة، وفي هذه اللحظة استيقظ.

فرك عينيه وجلس في السرير، تسلل ضوء الفجـ ـر من الشيش، وأخذ يلقي بظلال رمادية على أثاث الحجـ ـرة، لمح البلاكار الكبير كتلة غامضة يمتد جنـ ـاح منه ـا قـ ـرب

السقف كالوحش الأسطوري، سينقض عليه، بدا له كأن الكابوس الذي استيقظ منه مستمر، انه عاد إليه في مكان آخر من الدنيا، رقد على ظهره من جديد وأغلق عينيه كأنه يريد أن يهرب منه أحس أنه مصاب بالشلل غير قادر على الحركة على القيام من رقدته ليعود إلى الحياة العادية، إنه سيبقي هكذا إلى الأبد عاجزا عن فعل شيء، كأنه دخل في حالة من الغيبوبة، من فقدان الوعي لن يخرج منها.

بذل جهدا لينقلب على جانبه، حملق في القرص الأسود للمنبه، كان يشير إلى الخامسة والربع، ألقى بالغطاء جانبا كأنه ينفض عن نفسه الإحساس بالموت الذي زحف عليه، وقفز من السرير ليندفع خارجا من الغرفة، وقف يفحص وجهه في مرآة الحمام كأنه يطمئن على نفسه ثم خلع ملابسه بسرعة، ودس جسمه تحت المياه الباردة المنهمرة من الدش.

كانت الساعة تشير إلى السابعة عندما صعد إلى الدور السادس في مبنى المعمل، كل شيء صامت لا يتحرك في الجو نصف المعتم، دخل إلى غرفته وفتح النافذة فتدفقت الشمس إليها خلع سترته وارتدي المعطف الأبيض، شرب

قدحا من القهوة التي أحضرها معه في "الترموس" وهو يتصفح إحدى المجلات وضعها على المنضدة أمامه، تذكر أنه لم يراجع برنامج العمل للفترة الثالثة من السنة ليناقشها مع أعضاء الفقرة فقام ليخرج بعض الأوراق من الشنن المنتصب في الركن، وضعها على المكتب وجلس يدون بعض الملاحظات في "بلوكنوت" من الورق المسطر.

نسي نفسه تماما، ولم ينتبه إلا عندما سمع نقرا على ا لباب، وانفتح ليجد الدكتورة "عفاف المنزلاوي"، واقفة تطل عليه.

أشار إليها بالدخول، فحصها في فضول وهي تجتاز الغرفة بخطواتها القصيرة لتتقدم نحوه بلا صوت كأنها محمولة على مخدة من الهواء، كانت ترتدي بلوزة شفافة برتقالية اللون وحذاء ذو نعل سميك يرتفع بجسمها مسافة فوق الأرض، توقفت أمامه وألقت إليه بابتسامة مترددة، لمح عينيها الصغيرتين المدفونتين على جانبي الأنف تتحركان حول الغرفة قبل أن تلبي دعوته للجلوس على المقعد أمامه.

قالت: "صباح الخير يا دكتور.. معي نسـ خة مـ ن محضر الاجتماع الأخير ربما تريد أن تسألني عـ ن شـ يء" مدت إليه يدها ببعض الأوراق ثم أضـ ـافت "أمـ ـا بالنسـ ـبة لبرنامج العمل الخاص بالمرحلة القادمة من البحث" الكترون ١٠٧" فسيكون معدا بعد يومين".

قال: "شكرا، إذا كانت لـ ـي أسـ ـئلة سـ ـأثيرها فـ ـي الاجتماع حتى يشاركنا فيها أعضاء الفريق".

مسحت على جبينها بأطراف أصابعها كأنها تحـ ـاول أن تتذكر ثم قالت: الدكتور " أمين الصيرفي" طلب مـ ـي أن أبلغك بتحياته، وأنه يأمل أن تشاركنا في الاجتمـ ـاع القـ ـادم للمكتب العلمي في الحزب فنائبنـ ـا عـ ـن الجيـ ـزة الأسـ ـتاذ "فرغلي الزمر" سيقدم استجوابا عن سياسة البحث العلمي، ويريد أن يسمع آراء أعضاء المكتب، هـ ـز رأسـ ـه دون أن يعلق فظلت جالسة كأنها تنتظر ردا ثم قالت: "قبل أن تحضر في هذا الصباح سأل عنك الأستاذ "نبيل القرنفلي".

كان يتصفح الأوراق التي أحضرتها فسألها دون أن يتنبه".

"ومن هو "نبيل القرنفلي"؟.

رفعت حاجبيها في اندهاش: ألا تعرفه؟ إنه المدير الإداري الجديد، سأل عنك مرتين".

هه...لماذا؟

لا أعرف يقولون إنه عديل رئيس مجلس الدولة وابن عم " على لكع" صاحب أكبر صندوق استثمار في الشرق الأوسط.

"يعني رجل مهم، هل له علاقة بالحزب أيضا"؟

ألقت إليه بنظرة متشككة دون أن تعلق.

فما الذي دفعه إذن إلى قبول العمل كمدير إداري هنا في المركز؟

يبدو أننا أصبحنا مهمين. ضحكت ضحكة صغيرة جافة كتمتها بسرعة وأضافت: "يقولون إنه ثري، وأن زوجته "بزنس ومان" من الطراز الأول، تدير بوتيكا في المهندسين تبيع فيه ملابس داخلية للسيدات المقربات لكبار القوم، كلها مستوردة من الخارج، ومن النوع الذي يظهر ما يجب أن يختفي".

"يا دكتورة "عفاف" أنا معجب بك، من أين لك بكل هذه المعلومات وأنت مشغولة في البحث، والحزب، واللجان

ا لعلمية؟ كنت أود أن يستمر حديثنا لاستفيد منك لكن هناك دراسة مطلوب مني تقديمها اليوم، أرجو منك إعطاء نسخة من برنامج العمل الخاص بالبحث للمدير المالي".

أخرج ملفا من الدرج واستدار بالمقعد ليكتب عل ى الكومبيوتر فقامت على الفور وانصرفت كانت الساعة قـ د قاربت على الثالثة والنصف عنـ دما انته ى مـ ن طباعـ ة الأوراق على الليزر، وضعها في ملف وقام، أحس بالحجرة تتماوج من حوله فقام مسندا يديه إلى المكتب، سـ ار إلـ ى الكنبة الجلدية، ورقد فوقهـ ا أغلـ ق عينيـ ه وفـ تح أزرار المعطف الأبيض، والقميص أحس بجفونه ثقيلة، ثم سـ قط في حالة ما بين الإغماء و النوم، ولم يشعر فيها بشـ يء، استيقظ على صوت يناديه "يا دكتور يوسـ ف" يـ ا دكتـ ور يوسف، أحس كأنه يصعد من بئر، فتح عينيه، كـ ان أحـ د سائقي المركز يطل عليه بنظرة قلقة، قام جالسـ ا فتراجـ ع الرجل إلى الوراء وقال: "عدت بالسيارة من وكالة فورد يـ ا بك، قاموا بتغيير فلتر البنزين وبضبط الموتور، يقولون إنك تستطيع الآن أن تسافر لأي مسافة".

رنت كلمة تسافر في أذنيه مثل الجرس، لـ م أخـ ذ أجازة منذ مدة، لماذا لا يذهب لقضا بضعة أيام في "سـ يدي عبد الرحمن". الشاليه ليس فيه أحد، "نجوى" توقفت عـ ن الذهاب إليه، لكن من يعلم؟ دق قلبه للخاطر، نحاه جانبا ألم يقل له الطبيب: "ارتفاع بسيط في ضغط الدم نتيجة التـ وتر، لا تحتاج سوى إلى قليل من الراحة بعيـ دا عـ ن القـ اهرة، ومنغصاتها، وسحب الدخان الأسود التي تتراكم فيها".

خطر في باله أن يعتذر عن الدعوة على العشاء في بيت "تبيل القرنفلي" إنه يكره مثل هـ ذه الـ دعوات تصـ يبه بالملل والإحباط، لكن في هذه الفترة من الأفضل ألا يضـ ع بينه وبين الناس مسافة، هناك سيتعرف على أعضاء الوفد الدولي الذي جاء ليزور المركز.

طلب رقم "تبيل القرنفلي" الداخلي، جاءه صوته على التليفون يشبه صوت القط عندما يربت صاحبه عليه.

"أهلا وسهلا يا دكتور، والله الشرف كله لنا، السيدة حرمك مسافرة؟! يا للخسارة، كنا نود أن نستمتع بوجودها. الفرصة ضاعت منا هذه المرة، ولكن سنعوضها إن شاء الله في مرة قادمة، عزاؤنا انك ستكون معنا، منتظرينـ ك يـ وم

الأحد الساعة الثامنة: "تينا" تنبهني أن الميعاد في الثامنة والنصف، أظن العنوان واضح".

نظر إلى ساعته إذا أسرع يستطيع أن يذهب إلى البيت ليأخذ بقية الأوراق اللازمة ثم يتوجه إلى مكتب الشهر العقاري النموذجي في الجيزة، تعرف على أحد الموظفين هناك يستطيع أن يساعده كي ينجز مهمته بسرعة، شاب ظريف سهل له إجراءات التنازل عن الشقة.

كانت الشوارع قد خلت من ازدحام الذروة فوصل إلى البيت بعد أقل من ثلث ساعة، دخل إلى المطبخ وشرب علبة شويبس ليمون مثلجة بسرعة ثم وقف فوق المقعد وأفرغ إحدى الوحدات الخشبية المعلقة على الجدار من علب الطعام المحفوظ، والمسلى، واللبن، أنزلها ووضعها على المنضدة فانكشف مستطيل في الجدار يعلوه مسماران شد عليهما فتحركت شبكة معدنية معبأة بخليط من الأسمنت والجبس الأبيض، خلعها في حرص فظهرت من ورائها خزانة صغيرة من الصلب، أمسك بمقبضها أداره ثلاث دورات ونصف إلى اليمين ودورتين وثلث الدورة إلى اليسار فظهرت بعض الأرقام في الفجوة الرفيعة الموجودة

تحته إلى جوار الأرقام بروز دقيق أخذ يلفه بين أصابعه إلى أن سجل الرقم الذي يريده، ضغط عل ى المق بض ث لاث ضغطات فانفتحت الخزانة، أخرج منه ا مظروف ا، أغل ق الخزانة، وأعاد الشبكة المعبأة بالأس منت والج بس إل ى مكانها، فتح علبة كتب عليها "فاصوليا بيضاء – كاليفورنيا جاردنز"، واستخرج منها معجونا بمرود من الخشب، مسح بالمعجون على الفواصل الرفيعة التي ظهرت في الجدار إلى أن اختفت، أشعل ولاعة أخرجها م ن جيب ه وم ر عل ى الفواصل باللهب محتفظا بمسافة ثابتة بينه وبينها، انتظ ر ثلاث دقائق ثم فحص الفواصل بمنظار مكبر أخرج ه م ن مكتبه، بعد أن انتهى أعاد الوحدة إلى مكانها، وصف فيه ا علب الطعام.

كانت الساعة تقترب من الخامسة والثل ث عن دما توقف أمام مبنى الشهر العقاري في ش ارع م راد، ص عد السلالم فأحس بقلبه يدق، شق طريق ه بص عوبة متس للا بجسمه بين الملفات المكدسة والأرداف المتورمة لعش رات النساء المحجبات المنتظرات في الدهليز الضيق انحنى ب ه

عدة مرات قبل أن يصل إلى الحجرة الصغيرة القابعة عند آخره.

وقف في فتحة الباب يفحص الحجرة الخالية من موظفيها ازدحمت بثلاثة مكاتب قديمة، وشنن مال على جانبه وانقلب أحد أدراجه بملفاته على الأرض، ومقعدين من القش، وثالث من الجلد مكسور ألقي به في ركن الحجرة، أحس بأزيز فوق رأسه فرفع عينيه إلى أعلى، لمح سلك المصباح تزاحم عليه الذباب فأصبح أسود اللون، خطر في باله لماذا يعشق الذباب الوقوف على أسلاك المصابيح في مكاتب الحكومة.

كاد أن يعود من حيث جاء لكنه لمح حركة في الشقوق فاتجه نحوها ليفاجأ بشاب وقف فيها ليدخن، عندما رآه مقدما عليه بدا عليه الضيق فبادره قائلا: "أستاذ عصام" أنا الدكتور "يوسف صفوان" إلا تذكرني؟ فانفرجت أساريره عن ابتسامة مشرقة أعادت إليه الأمل، قال الشاب: "أهلا وسهلا دكتور "يوسف" تفضل سأكون معك حالا" أخذ أنفاسا سريعة من سيجارته، ثم ألقى بها من فوق الحاجز ودخل، أجلسه على المقعد، وسأله عما يريد استمع إليه في إنصات

وهو يشرح له ثم أخرج الدكتور "يوسف" المستندات من حقيبته، وأخذ يجيب عن أسئلته، أثناء الكلام كان يلقي إليه الشاب بنظرة فاحصة، لما انتهى سأله: "قل لي ما الذي تخشى منه يا دكتور "يوسف"؟.

تأمل عيني الشاب زرقاوين كالبحر وفي نظرتهما قوة.

تملكه إحساس بالدهشة، ما الذي جاء بهذين العينين وهذه النظرة إلى هنا؟ لاحظ أن قميصه الناصع البياض ممزق عند الياقة، وأن بنطاله بهت لونه، تردد لحظة ثم أجاب: "أخشي أن يسرقوا مني البحث الذي قضيت فيه سنتين من عمري".

قال: "سأعمل لك الإجراءات على وجه السرعة، واطمئن ستكون سليمة مائة في المائة".

"سيحسبونها لك في الحجرة المجاورة ثم تدفعها في الخزينة مثل المرة السابقة".

"وأنت؟".

"أنا...لا يا دكتور "يوسف" علمتني أمي أن الأمانة ليس لها ثمن".

أمك أجنبية؟

ضحك وقال: "لا أمي صعيدية، وعيناها زرقاوان، ورثت عينيها وقلبها".

"وما الذي جاء بك إلى هنا؟".

"المرتب.... لكني أبحث لنفسي عن عمل في مكان آخر".

مثل؟

لا اعرف بالضبط اكتب الشعر، وأضعه في الدرج، لا مكان في هذا البلد للشعر الذي أكتبه، في المرة السابقة كانت معك زوجتك، تحدثت معي عندما ذهبت إلى الخزينة لتدفع مصاريف التنازل عن الشقة، وعدتني أن تبحث لي عن مخرج من هذا القبر".

العينان الزرقاوان تسألانه قال: "سافرت في بعثة وستعود آخر السنة، خذ بطاقتي واتصل بي... ربما..".

قاطعه قائلا: "أشكرك".،

هبط على السلالم وفي أعماقه خجل،،، وقف على الرصيف، هبت نسمة رطبة طازجة، فيها رائحة مثل البحر،

في ذهنه ما زال يرى العينين الزرقاوين، والملامح الشاحبة عندما تضحك ترى من أين جاءهما هذا اللون المبهر؟

(٦)

قاد سيارته مسافة قصيرة في شارع "السراي الأكبر" ثم أوقفها أمام "فيلا" توارت بين الأشجار، أخرج الرسم الكروكي من جيب السترة وفحصه في ضوء مصباح الشارع، هبط منها وتسلل بين سيارة "جيب شيروكي" وأخرى "مرسيدس" كانتا تقفان أمامها، استنشق رائحة تمر هندي وهو يمر من الباب الحديدي الموارب، السور تتسلقه شجيرات الجهنمية تلمع زهورها تحت المصابيح، السور تتسلقه شجيرات الجهنمية تلمع زهور تحت المصابيح بلون قرمزي غامض، سار فوق الطريق المبلط فجاءته أصوات، وضحكات تصعد من الحديثة في الليل الصامت.

انحنى ناحية اليمين سائرا في اتجاهها، وجد نفسه يتقدم على مساحة واسعة من الحشيش محاطة بالأشجار، لمح مجموعة من الرجال والنساء يجلسون على مقاعد من القش الأبيض، ومنضدة كبيرة وضعت عليها زجاجات، وأكواب، وأطباق وأوعية فضية تلمع في الضوء الخافت.

لمحته إحدى الجالسات وهو يتقدم فوق الحشيش فقامت واتجهت إليه، قالت: "دكتور يوسف صفوان". أهلا

وسهلا، نطقت الكلمات بلغة عربية تشوبها لكنة واضحة فيها تضخيم للمقاطع، مدت يديها الاثنتين إليه وأمسكت بيديه كأنه صديق قديم. "هل وصلت إلى البيت بسهولة؟" عيناها الواسعتان لوزيتان في الوجه البيضاوي تقف أمامه ممشوقة القوام رافعة شعرها الأصفر عن عنقها الأبيض، حاول أن يتبين لون عينيها لكن ظلال الأشجار حالت دون ذلك، ألقت إليه بابتسامة من فمها الواسع، وأضافت: "تفضل حتى أعرفك على الموجودين، لكن لنتعرف نحن أولا أنا مدام "نبيل القرنفلي" لكن من الأسهل أن تخاطبني باسمي "تينا".

جذبته من يده لينضم إلى الجالسين وأخذت تقدمه لهم الواحد بعد الآخر باللغة الإنجليزية... هذا زوجي "نبيل القرنفلي" ألقى إلى الرجل القصير الذي وقف ليرحب به نظرة خاطفة، هذا الوجه يشبه القط الرومي، رآه من قبل لكن أين" قطع تفكيره حتى يلتقط باقي الأسماء مستر "دانيال شوستر" نائب رئيس وكالة المساعدات الدولية للشرق الأوسط مستر "دونالد بوجمان" أظنك تعرفه فهو الملحق العلمي في السفارة الأمريكية مدام "دونالد بوجمان" الدكتور

"فاروق الدجوي" ضحكت "لست في حاجة إلـ ـى أن تتعـ ـرف عليه بالطبع ومدام "فاروق الدجوي" الدكتور "أسعد خلدون" رئيس مركز التاريخ العربي المعاصر، لا تخف من لحيتـ ـه السوداء فقد أعلن أنه سيزيلها عندما تتحرر فلسطين، وهي كما يبدو ستتحرر قريبا، هذه السيدة الجميلة مدام "باتريشـ ـا خلدون" زوجة الدكتور "أسعد" قال الدكتور أسعد وهو يظهر أسنانه البيض "الدكتور صفوان" صديق قديم كانت لنا فـ ـي وقت من الأوقات اهتمامات مشتركة.

قالت "تينا" بسرعة: "سنسمع عنها فيما بعد، بقيـ ـت ضيفة لم تحضر، ممثلة "تكنوسبايس كيميكالز كوربوراشون" أصيبت بوعكة في المعدة من أكلة كباب وكفتـ ـة فاعتـ ـذرت عن الحضور في هذه الليلة، أستطيع الآن أن أصمت لبعض الوقت".

مالت عليه وهمست: "ماذا تشرب؟".

قال: "ويسكي بالثلج وقليل من الماء".

قال "نبيل القرنفلي": "قبل أن تحضر كنا نتحدث عن جريمة أصبحت تتكرر فـ ـي مصـ ـر، هـ ـي قتـ ـل الزوجـ ـات لأزواجهن، فما رأيك يا دكتور "يوسف"؟

هذا الوجه المنتفخ باللحم يتوسطه أنف صغير، وفم بلا شفتين يشغله، سيفسد على نفسه الليلة إذا ظل يبحـ ـث، قال مبتسـ ـما: "الواقـ ـع أن هـ ـذا الموضـ ـوع بعيـ ـد عـ ـن اختصاصي".

ألقت إليه "تينا" بنظره فيها سخرية: "لا تتهرب يـ ـا دكتور "يوسف" فأنت متزوج ويجب أن تتابع ما يحدث وإلا ربما كانت عواقب الغفلة وخيمة، ألا تتملكنا جميعا في لحظة من اللحظات الرغبة في قتل شريك الحياة؟.

سألتها "باترشيا خلدون" وهي تضحك.

"هل تملكتك أنت يا "تينا" هذه الرغبة؟

التفت إليها ضئيلة الجسم باهتة الملامـ ـح والشـ ـعر تلمع عيناها الصغيرتان بنظـ ـرة مـ ـاكرة، تزوجهـ ـا "أسـ ـعد خلدون" في إحدى رحلاته إلى أمريكا، عادا سويا منذ سنتين ومعهما طفل ذكره، وسيارة "لكسوس".

قالت "تينا" "بالطبع تبادلت نظرة سريعة مع زوجهـ ـا من تحت أهدابها المكحلة، لكن هذا لا يعني أنني لا أحبه، أنا أحب المجرمين أمثاله، لهم شخصية، الطيبون لا طعم لهم، كل شيء عندهم متوقع.

راحت في ضحكة طويلة ارتفع رنينها في الفراغ ثم توقفت فجأة، لمح زوجة "فاروق الدجوي" سمراء، ممتلئ ـة وقد بدا على وجهها الطفولي ما يشبه الرعب بينما جل ـس الرجال يرتشفون من كئوسهم في صمت، التفتت إلى نائ ـب رئيس وكالة المساعدات الدولية وهمست: لماذا هذا الحديث المزعج عن ا لقتل؟ هل هذه هي أول زيارة لك إلى مصر؟

ألقي إليها زوجها بنظرة سريعة، تردد صوته باردا مع صوت الثلج أسقطه النادل من الملقاط في ك ـاس م ـن الويسكي ثم رفعه في الضوء، قال:

القتل جزء لا يتجزأ من حياتنا، بالأمس كانت اق ـرأ العدد الأخير من "ليموند دبوماتيك" ما يحدث ف ـي أفريقي ـا يفوق الوصف، القارة كلها منهمكة في المذابح، "الكونغ ـو" و"تيجيريا"، و"سيراليون" نطق الراء بالفرنسية ودار بعينيه الجاحظتين قليلا حول الجالسين كأنه يبحث عن رد فعل.

هز الملحق العلمي للسفارة رأسه عدة مرات مؤيدا كلامه، لمح نظارته المعدنية تلمع أعل ـى الأن ـف الب ـارز، ارتشف جرعة كبيرة من كأسه الثانية، ألق ـت إلي ـه "تين ـا" بنظرة سريعة في عينيها اللوزتين كأنها تستنجد ب ـه لينق ـذ

الليلة من الورطة التي اقتربت منها قال: "أنا مع "تينا" في الموضوع الذي أثارته، حفلات العشاء لا يخرجها من الملل سوى الحديث عن الحب أو القتل وبينهما علاقة لا يمكن إنكارها، وأنا شخصيا أقدر النساء اللاتي تقتلن أزواجهن، المرأة عادة تقتل دفاعا عن نفسها وعن كرامتها بعد أن فاض بها الكيل، القتل هنا جريمة شريفة، ليست مثل النصب، أو تجارة المخدرات أو السرقة".

علت أصوات الرجال بالاحتجاج، قال نائب رئيس الوكالة الدولية بصوت مسموع "تونسينس" فتجاهله، نظرت إليه "تينا" ضاحكة بسرور فرفع كأسه إليها وأخذ منها رشفة طويلة أحس الدفء يجري في شرايينه، تداخلت المناقشات المتفرقة بين الجالسين فانتهزت الفرصة ومالت عليه لتسأله:

هل قرأت رواية اسمها "أجمل جريمة".

لا من هو المؤلف؟

مؤلفة أسمها "الينا بوجدانوفا".

روسية؟

نعم.

روسية أنت.

نعم.

وماذا جاء بك إلى مصر؟

كنت أعمل مضيفة في شركة "ايروفلوت" وكان نبيل مديرا في شركة مصر للطيران، فتعرفت عليه".

متى تزوجتما.

منذ ما يقرب من عشر سنين.

نظر في وجهها تجمدت ملامحه فصمت قال:

اخترت نوعا من البغاء أكثر استقرارا، ثم التفت إلى الجالسين.

لماذا لم يتحدث أحد عن الرجال الذين يقتلون زوجاتهم؟ ألم تقرأوا عن التاجر الذي شوى رأس زوجته الشابة على موقد الغاز لأنه شك في سلوكها؟

ساد الوجود على وجوه الجالسين، لم يعلق أحد فأضافت بلهجة فيها تحدى:

أو عن ضابط البوليس الذي خزأ عيني عروسته وقطع أنفسها بسكين بعد شهرين من حفل الزفاف؟

"كفى... يا "تينا"... يبدو أن الويسكي زاد عن حده.

حملقت فيه لحظة ثم قالت:

"نبيل" معه حق، لا أريد أن أفسد عليكم السهرة بهذه الحكايات التي لا تهم أحدا التفت إلى نائب رئيس المساعدات الدولية مستر شوستر، نريد أن نسمع رأيك في الحرب بين "أثيوبيا" و"أريتريا".

استدارت الرؤوس في اتجاهه، جلس في مقعده مادا ساقيه أمامه حليق الوجه يشبه فتى الشاشة بعد أن تقدم به العمر زحفت على سوالفه الطويلة، وحول أذنيه خيوط الشيب، نطق الكلمات ببطء أهل الجنوب في أمريكا.

"أفريقيا كلها في أزمة، خرج منها الاستعمار فوقعت فريسة للمنازعات العرقية، وتصرفات القادة الذي تنقصهم الدراية بأساليب الحكم.

تردد الصوت الرفيع: "لفاروق الدجوي" انتهز لحظة الصمت التي تلت كلامه: أنا معك، أنا ضد الذين يبحثون عن أسباب خارجية لتفسير الأوضاع التي نعاني منها، يجب ألا نلوم إلا أنفسنا، هنا في مصر.. حالة الركود التي وصلنا إليها ما هي إلا نتيجة أخطاء في سياستنا، لو كنا تفاديناها لأصبحنا مثل اليابان، أو كوريا الجنوبية على الأقل".

لوح "تبيل القرنفلي" بحركة من يده فيها احتقار:

ما الذي تنتظره في قارة الأغلبية الساحقة فيها من السود... الكثيرون في بلادنا ما زالوا غاضبين بسـ ـبب مـ ـا يحدث في فلسطين، لكنني أقول ربما ضارة نافعـ ـة، الشـ ـرق الأوسط سينهض بفضل وجود إسرائيل، دولة تدرك أهميـ ـة التكنولوجيا والعلم.

مالت "مسز بوجمان" إلى الأمام في مقعدها، وتـ ـردد صوتها المعدني الشاكي كأنه يخرج من الأنف: لكن ليس كل السود على هذا النحو، في بلادنا هناك سود تقدموا وأصبح بعضهم يحتلون مراكز في بلادنا.

هز المستر "بوجمان" رأسه مؤيدا زوجته:

العلوم الوراثية حتى الآن لم تحسم هذه القضية، هل التخلف مسألة بيولوجيـ ـة أم نتيجـ ـة ظـ ـروف اجتماعيـ ـة فحسب"؟

لمح النادل يقف على مقربة منه حاملا صحنا فضيا من المشهيات، وجهه الأسمر الجامد منحوت في الصمت لا يظهر عليه شيء، أشارت إليه "تينا" لكي يضع الصحن على

المنضدة ثم همست إليه ببعض التعليمات فابتعد عنهم نظر إليه "تبيل القرنفلي" وخاطبه قائلا:

"يا دكتور يوسف" لم نسمع منك منذ أن انتقلنا من موضوع الزواج والقتل، نريد أن نسمع رأيك ورأى الدكتور "أسعد خلدون" رجل التاريخ يعرف في مثل هذه المسائل أكثر بكثير مما نعرفه.

فحص الدكتور "أسعد خلدون" أطراف أصابعه، وابتسم. قال بنبرة فيها سخرية خفيفة:

"صديقي الدكتور "يوسف " قطعا له رأى يستحق أن نسمعه"، ونظر إليه خطر في ذهنه... لم ينس أن نجوى اختارتني تعلقت نظراتهم به فقال: أنا في الواقع عندي سؤال هل سمع أحد منكم عن شيء اسمه الاستعمار الجديد، عن شركات السلاح، والبترول، والذهب، والماس، والكوبلت، عن "ميكروسوفت" و "تايم وورنر" و السي إن إن، ودوتشي بنك أو سيتي بنك، أو عن مافيات المخدرات، والجنس: هل لكل هذا تأثيرا فيما يدو في مجتمعاتنا.

ساد صمت طويل ثم جاء صوت نائب رئيس الوكالة الدولية ينطق الكلمات في بطء، وهو يحملق ناحيته:

بلادنا تقدم المساعدات للمساهمة في حل المشاكل الصعبة التي تعانون منها، والشعب الأمريكي يدفع الضرائب التي تأتي منها لكن للأسف هناك سوء استخدام يؤدي إلى تبديدها".

قال الدكتور "أسعد خلدون":

"الدكتور يوسف ممن يؤمنون بنظرية المؤامرة، ناقشته كثيرا في ذلك، المشكلة هي أننا لا ندرس التاريخ، عندنا في المركز نحاول أن ندرس المسائل بموضوعية وعمق، نؤمن بالتسامح والسلام، والتعامل مع الآخر بفهم".

أحس بشيء كالغثيان في معدته، مال على "تينا" وقال "هل ستغضبين إن انصرفت الآن"؟

قالت:

"بالطبع والعشاء"؟

ليس هذا هو المهم، يكفني الترحاب الذي لقيته منك. لكن قبل أن انصرف أريد أن أسألك أين الدكتور "عبد الفتاح عبود؟".

دعيناه لكن أرسله الدكتور "فاروق" مندوبا عنه إلى "فندق ماريوت" ليسأل عن ممثلة شركة "تكنوسبايس" ويقدم

لها أية مساعدات قد تحتاج إليها وطلب منه أن يبقـ ى فـ ي الفندق إلى أن تعافى تماما من الوعكة التي أصابتها، ويبدو أنه ما زال هناك.

"من أين عرفت.."؟

"من نبيل" اقتربت منه، وضعت يدها علـ ى ذارعـ ـه الممدود فوق المسند، نظرت في عينيه كأنهـ ـا تحـ ـاول أن تستشف ما يدور في ذهنه.

"ما الذي يهمك في كل هذا؟ هذه أول مرة تزورنـ ـا فيها، ألا تريد أن أفرجك على البيت".

مرة ثانية، سأسافر غدا صباحا ولا بد أن أسـ ـتيقظ مبكرا، لن أستطيع أن أبقى للعشاء أنا آسف.

تجهم وجهها لحظة ثم ألقت إليه بابتسامة خاطفة.

ضغطت على ذراعه ثم همست:

لا داعي للاعتذار، البيت بيتك في أي وقت" خفضت جفونها وأضافت وإن كانت تريـ ـد أحضـ ـر معـ ـك زوجتـ ـك لنتعرف عليها".

شـ ـكرا سـ ـأعتذر لزوجـ ـك وللضـ ـيوف بسـ ـرعة، وأنصرف"

أوصلته حتى باب الحديقة وانتظرت حتى ركب في السيارة، رآها وهي ترفع يدها وتضعها على فمها ملقية بقبلة في الهواء، ثم استدارت وسارت فوق الممشى بقوامها الممشوق، يترنح قليلا.

قاد سيارته ببطء في الشوارع الخالية، لمح القمر أصفر اللون معلقا في السماء، تطلع إليه خلال غيوم الويسكي، عاد إليه وجه "تبيل القرنفلي" وهو يقف عند بداية المنضدة الطويلة المحملة بأطباق الطعام لحظة أن ذهب إليه تداخلت غيوم الويسكي مع غيوم الماضي، قفز بذاكرتهم إلى الوراء، رأى صفا من الزنازين عند أولها وقف ضابط يضع يدا خلف ظهره والأخرى على بطنه تحت الحزام، أسفل "الكاب" وجه مستدير منتفخ الأوداج مثل القط الرومي، وفجأة أضاء ذهنه، أصبح صافيا كالبللور.

الملازم الثاني أصبح العميد "تبيل القرنفلي" مضيفه الذي ودعه منذ قليل.

صعد إلى الشقة أخرج زجاجة من المبرد وشرب كوبين من الماء، ذهب إلى حجرة النوم وأخرج حقيبته من أعلى البلاكار وضع فيها بعض الملابس، والكتب وأدوات

الحمام، والحلاقة، وحذاءا من المطاط، ومناشف وخف، تردد لحظة ثم أخرج مسدسا من أحد الأدراج، وحشره في أحد الجيوب ثم أغلق الحقيبة، أخذ مفتاح الشاليه من درج المكتب وهبط من الشقة.

وضع الحقيبة على المقعد الخلفي للسيارة ثم قادها حتى بداية الطريق الصحراوي، توقف عند مطعم للسمك اسمه "كافيار"، تناول فيه وجبة من الوقار المشوي وبعض السلطات وشرب بعدها قدحا كبيرا من القهوة المصنوعة بالبخار.

قرب الخامسة والنصف صباحا صعد الهضبة الصغيرة صعد الهضبة الصغيرة حتى باب الشاليه، أنزل الحقيبة على الأرض واستدار يتأمل البحر، مرت اللحظات وهو واقف ينهل بعينيه من زرقته، كانت أمه تصطحبه إليه وهو طفل، علمته الغطس فيه، والقفز فوق أمواجه، بينه وبين البحر عشق، أحس بالسعادة وهو ينظر إليه رافع ذارعيه في الهواء كأنه يحتضنه، ثم استدار وأدخل المفتاح في القفل، فتح الباب على مصراعيه، ودار حول الشاليه يفتح نوافذه.

(٧)

مرت أربعة أيام على وصوله إلى القرية، يسبح في البحر أو يمشي على رمال الشاطئ في الفجـ ـر، يقـ ـرأ فـ ـي رواية أحضرها معه، أو يشاهد فيلما من أفلام "الدش" يذهب إلى المدينة الصغيرة بالسيارة ليشتري احتياجاتـ ـه يقضـ ـي بعض الوقت في سـ ـوقها يتحـ ـدث مـ ـع صـ ـاحب الفـ ـرن، والصيدلي، وصاحب البقالة فقد ذراعا في الحـ ـرب، جلـ ـس على المقهى ينتظر الجزار حتى يشـ ـفي ذبيحـ ـة الضـ ـأن، فالأشياء هنا تتم ببطء، والناس جالسون على الحصيرة في الهواء المطلق، يعرفون أنه غريب، يقولون له "أهلا وسهلا كل سنة وأنت طيب" ويعودون إلى أحاديثهم، إذا طلب منهم شيئا يقومون على مهل، أصبح جزء ا من وتيرة حيـ ـاتهم، وزال عنه توتر المدينة، بدا وكأنها سقطت عند الأفق خلف مساحات الرمل.

في القرية لا يكلم أحدا، ولا أحد يكلمـ ـه، مـ ـا عـ ـدا حارس الأمن، أو صبي البستاني، أو المشرف، على إدارتها إذا تصادف مرور أحدهم وهو جالس على الشرفة، لا شيء يزعجه، فلا شيء يحدث في هذا المكان، حتى التليفون يرن

بعيدا عنه في مبنى الإدارة لأن توصيل الخط ما زال مشروعا لا أحد يعلم متى سيتم.

أحس بجسمه استعاد قوته، بنومه أصبح عميقا لا شيء يقلقه، بذهنه يصفو، فأخرج المفكرة الزرقاء من حقيبة اليد ليسجل فيها ما يخطر على باله.

الاثنين ١٥ مايو ٢٠٠٠

هل حضوري إلى هنا مجرد رغبة في الاستجمام أم أمل ما زال يراودني؟ هذا الشاليه اشتريناه بعد خمسة عشرة سنة من زواجنا، كنت أريد أن أدفع ثمنه، لكنها أصرت أن تسدد نصف قيمته، وأن تسجل عقد الملكية باسمي واسمها، كانت شديدة التمسك باستقلالها، حتى الآن لم نفسخ هذا العقد، وما زال مفتاح الشاليه معها تستطيع أن تحضر إليه في أي وقت، ما الذي دفعني إلى الهبوط في ساعة متأخرة من الليل لأقود سيارتي ثلاثمائة وخمسة وعشرين كيلو مترا فوق الطريق الصحراوي، وطريق العلمين ومرسى مطروح لأصل في الفجر والحارس لا يزال نائما في الكشك ؟ لماذا أعيش حياتي مدفوعا بأمل مجنون في أن تحدث أشياء لا يقبلها العقل؟.

الصمت يغريني على الإمساك بالقلم لأكتب عن هذا المكان لا توجد فيه سوى الصحراء تمتد رمالها ذهبية اللون في الصباح، وردية عند غروب الشمس، سوى البحر تمتد مياهه فسدقية اللون قرب الشاطئ، زرقاء بنفسجية كلما بعدت عنه لتلتقي بالسماء في خط أسود رفيع صنعه الوهم.

هنا لا يقطع المسافات سوى بيوت القرية الصغيرة تفصل ما بينها مربعات الحشيش خضراء مثل مشاتل الأرز، أو أحواض الزهور، أو صفوف النخيل والأشجار تلمع أوراقها في الشمس، أو الصبار يزحف على الأرض وفوق الجدران وتتفتح فيه زهور حمراء دقيقة قال صبي البستاني إن اسمه "رجلة أفرنجي" وقال لي الموظف المختص "صبار إسرائيلي" وهو يخفض صوته إلى همس.

عندما تغرب الشمس يختفي البحر ويصبح جزءا من الليل لا أراه لكني التقط همساته، إذا اقتربت منه ألمح أمواجه تزحف مثل أشباح الماضي، ففي هذا المكان البعيد يتداخل الماضي والحاضر كما تتداخل مساحات الكون،

الفواصل كلها تذوب، فتطير الأفكار حرة مذ ل الذ ورس أو السمان قبل أن يقع في شبك الغدر.

أعود إلى يوم جئنا فيه أنا وهي، كان ف ي بداي ة الشهر العربي ففي خيالي أري الهلال يطل علين ا رقيق ا، قريبا نكاد نلمسه، ويتحول بالتدريج ليص بح ب درا يص بغ الخليج بألوان السحر، يجعل منه بحي رة فض ية ت رتعش أمواجه فنغوص فيه ونذوب في جمالها.

في إحدى الليالي وقفت هي على الشاطئ وسبحت أنا بعيدا عنه ثم عدت، خرجت من البحر لألحق بها فج رت فوق الرمال بعيدا عني، واختفت خلف كشك عدوت وراءها فاصطدمنا في الظلام، وفوجئت بها بين ذراع ي، تملكتن ي رغبة مندفعة مرتبكة فاحتضنتها بذراعي، لكنه ا دفعتن ي بعيدا عنها، وقالت: "يا يوسف" أنا ما زلت أحبك لكن هن اك شيء يؤرقني فأرجو أن تتركني".

كانت هذه آخر مرة جئنا فيه ا، من ذ ذل ك الي وم أحسست بالمسافة تنمو بيننا، س ألتها لكنه ا رفض ت أن تصارحني، أو بالأحرى لاذت بالصمت، وبالت دريج أص بح الصمت يحيط بحياتنا.

هذا المكان مليء بالذكريات لكني لا أريد أن أستغرق فيها، لا بد أن أنتزع نفسي منها حتى وإن كان كل شيء في هذا البيت يحدثني عنها: شدرائط الموسيقى وكتبها، رائحة الوسادة عندما أضع رأسي عليها، الخف الذي تركته "بنسات" كانت ترفع بها جدائل شعرها الكستنائي يشع بوهجه الهادئ في الشمس.

أخشي أن يتجدد الوهم، أن أسرع إلى أقرب تليفون لأدير رقمها أتخيل صوتها الضاحك يرد علي: "يوسف" منذ أشهر وأنا أنتظر سماع صوتك في أذني" جئت إلى هذا لأرتاح، وأستعد لأحداث تنتظرني، صوت في أعماقي يقول إن هناك قوى خفية عادت تطاردني، هذا الوفد الأمريكي لماذا جاء في هذا الوقت؟ المسألة ليست زيارة المركز فحسب.

الكتابة تساعدني على توضيح أفكاري، على الفهم فهي تستلزم التنقيب في العمق، والتأمل على مهل، يجب أن أواظب عليها أن أكتب ما يخطر على بالي، عدلت عن هذه العادة لمدة طويلة والآن أشعر أنني أخطأت، حالة من اللامبالاة أصابتني.

فقدت روح التحدي ويجب أن استعديها، وجه ذلك الرجل خرج من ظلمات الماضي هو الذي نبهني.

رغم ذلك أشعر بالسعادة في هذا المكان، أريد ألا أفسد على نفسي الأيام التي سأقضيها بعيدا عن القاهرة، ومشاكلها أن أستمتع بهذه اللحظات، بالسماء الزرقاء لا يعترضها جدار.

بالنجوم وأضواء زوارق الصيد تبرق في الليل مثل الجواهر المنثورة على القطيفة السوداء، برائحة الملح واليود، بالهواء النقي لا أغلق دونه نوافذ وأبواب البيت فيطير ملابسي وأوراقي أجري وراءها كالطفل، هذا الطفولة تعود إلي:

الخميس ١٨ مايو سنة ٢٠٠٠

استيقظت مع شروق الشمس وسبحت في البحر، تركت نفسي لملمس المياه الدافئة على الجسم، سرت مسافات على قدمي فوق الرمال، عدت أفكر في الرواية التي تركتها سنتين دون أن أكملها، أراحني هذا التفكير إلى أبعد حد أعادني إلى نفسي كأني فقدتها ثم عثرت عليها، أبعدني عن كل المشاكل التي تقلقني بدت صغيرة، تافهة لا قيمة لها

أمام عالم الخيال الواسع أرحل إليه، حتى قصتي مع "تجوى" لم تعد مصدرا للأسى أو الضيق، تحولت إلى تجربة يمكن أن توحي إلي، أصبحت جزءا من عملية التخيل التي استولت علي.

بعد الإفطار جلست على الشرفة أمام أوراقي، لأول مرة منذ مدة طويلة تدفقت أفكاري بسهولة كلمة وراء كلمة، وسطر بعد سطر، تركتها تأخذني أينما تريد، تركتها تسبح عارية عند الشاطئ تتجمع الأعشاب، والطحالب، والأسماك الميتة، ولطع القطران ويتزاحم الناس مثل القطيع خوفا من مخاطر تهددهم.

لكن في عمق البحر نقاء، وثراء، وتجربة واكتشاف، احتكاك بالموت، ثم العودة منه، في العمق نشوة الحياة على حافة الخطر كم هي ممتعة هذه السباحة مع القلم وكم هي موحية هذه الأصوات تأتيني من بعيد أو من أعماق النفس كأنني في زورق ألقيت بمجدافيه وتركته يتوغل في مسافات البحر، في لحظة يتملكني الذعر فربما غرقت، لكني أظل أضرب بقلمي ليشق طريقه في مياه لا أعرفها.

الجمعة ١٩ مايو ٢٠٠٠

وأنا أدخل في الفراش تذكرت "أمين الصيرفي" أشيب الشعر، منكمش الجسم يرتدي نظارته الكبيرة الأنيقة تتذبذب من ورائها عيناه مثل كرتين صغيرتين من الصلب، يقبع في غرفته المنزوية في الركن على يمين القاعة الكبيرة، أصعد السلالم في الميعاد المحدد لاجتماعنا، أدخل في غرفة مستطيلة جدرانها كالحة وفي آخرها باب دورة للمياه لا أحد ينظفها، الجو متشبع بالرائحة الآتية منها، في الحجرة منضدة تدور قرب جدرانها مثل حدوة الحصان، المقاعد ظهرها عال، وبروازها من الصلب فإذا جلست عليها تنقلب إلى الخلف ملقية بك على الأرض.

أصل مبكرا ويتسلل الآخرون كأنهم يجرون أقدامه يتبادلون الأحضان والقبلات وضربات الكف تعبيرا عن الحب.

يلقون إلي بسلام فاتر من على بعد، أو بنظرة فيها تساؤل.

يشربون القهوة والشاي أو زجاجات من البيبسي يضحكون ويثرثرون بينما أجلس أنا إلى جوار النافذة في

صمت إلى أن يحضر "أمين الصيرفي" أو مسئول آخر يحل محله إن كان سيظهر في التليفزيون أو يذهب إلى حفل.

يبدأ الاجتماع ويدور الكلام عال كالبطل، كالمطارق، تدقنا فوق رؤوسنا العيون مطفأة، والكلام مكرر مثل الاسطوانة المشروخة تواصل دورانها، لا أحد يفكر في تغييره، هل هي العادة، أم اليأس، مصالح يصعب التخلي عنها، لماذا أشاركهم؟

أركن إلى الصمت، لكن الصمت قاتل، الصمت هو الموت.

عندما أتكلم ينظرون إلى، يحملقون في الفراغ، أو في الجدران أو السقف أو يطاطئون رؤوسهم، يضعون بيني وبينهم مسافة، ينكرون وجودي، يهربون من القلق باحثين عن الراحة، قد يطل بريق خاطف من عيني أحدهم لكن سرعان ما ينطفئ وفي اليوم التالي تظهر صورة رئيسهم أو نائب رئيسهم في الصحف ينتقد الحكومة في حدود المسموح به، والذي يرفع ثمنه، ويجعله لازما لبقاء الحاكم الديمقراطي المستبد.

السبت ٢٠ مايو ٢٠٠٠

اجلس بالساعات على الشاطئ أتتبع البحر، أحياذ ـا يكون كالبحيرة، تختفي أمواجه أو تصبح مجـ ـرد ارتعاشـ ـه على السطح ثم يزداد اضطرابه كلما صعدت الشمس ويثبت سخونتها في الأرض، ترتفع كأن شيئا يتقلب في أعماقـ ـه، تتداخل وتتصادم، وتنهال على الصخرة من تحـ ـت الميـ ـاه خارجة برأسها، وقوامها كأنها امرأة متحدية، شامخة تلمع ضفائرها في الشمس.

أجري معها حوارا أسجله في كراسة لأنقلـ ـه فيمـ ـا بعد.

أسألها تجيب أحيانا، وأحيانا تظل صامتة، تقول لي لا أعرفك فلماذا تتحدث إلي، أقول في هذا اليوم منذ عشرين سنة التقيت بك كان عندي موعد مع الدكتور "أسعد خلدون" هبطت من شقتي إلى الشارع قررت أن أذهب إلى الجامعـ ـة سيرا على قدمي، كان اليوم جميلا، على غير عادة في هذا الوقت من السنة.

السحب بيضاء شفافة في زرقة اختطفتني، والنبض في ساقي يدق.

كان الميعاد في الساعة الحادية عشرة صباحا، دخلت في مكتبه وساعة الجامعة تدق، لم يكن موجودا، بدلا منه وجدت امرأة شابة جالسة على إحدى المقاعد، كانت تضع ساقا فوق ساق، وتقلب في إحدى المجلات، عندما دخلت رفعت رأسها استغرقت في عينيها العسليتين، خفضت رأسها وعادت إلى التي كانت تقرأ فيها، جلست على مسافة منها ألمح ساقيها كالموجة الطويلة تهبط من خصرها حتى حذائها، وأصابع يديها تشبه أصابع عازفة بيانو أو "هارب".

طال الوقت ولم يحضر "أسعد خلدون" قاربت الساعة على الحادية عشرة والثلث، قامت من جلستها إلى محلق داخلي تكدست فيه الملفات والكتب وأخذت ترتبها فقمت واقفا بحركة تنم عن الضيق وقلت:

"يا آنسة سأنصرف، لا أستطيع أن انتظر أكثر من هذا موعدي مع الدكتور "خلدون" كان في الحادية عشرة والآن قاربت على الحادية عشرة والنصف.

نظرت إلي في هدوء وقالت:

"الساعة الآن الحادية عشرة والثلث. لابد أن هناك طارئا عطله، أنا اسمي "نجوى أبو العلا" طالبة ماجستير في قسم الأدب المقارن وحضرتك؟".

قلت:

"أنا الدكتور "يوسف صفوان" مساعد أستاذ قسم الكيمياء بكلية العلوم".

قالت:

"اجلس قليلا، لا أظن أنه سيتأخر، يمكن أن نتحدث سويا حتى يصل، أنا أقوم بدراسة عن تأثير الثقافة التركية على الكتابة الروائية المصرية، والدكتور "أسعد" هو أحد الأساتذة الذين لجأت إليهم فهو متخصص في تاريخ "تركيا".

في ذلك الوقت لم يحضر الدكتور "أسعد" تعطلت سيارته وهو عائد من بلدته، لكني كنت سعيدا بالعطل الذي حال دون مجيئه، ظللنا نتحدث كأننا نعرف بعضنا منذ زمن، كانت تنتقل بيننا شحنات لذيذة كأن جدارا ضرب حولنا فلم يبق سوى الإحساس الممتع بوجودنا.

تركتها قرب الساعة الثانية عشرة، حملت معي نظرة عينيها وأنا أحدثها عن قصة قصيرة كتبتها، واليوم

بعد أن مر على لقائنا هذا عشرين سنة أقول لنفسي إنه رغم كل شيء عشنا لحظات ما زالت تنتفض كلما عدت إليها.

(٨)

عاد قبل نهاية الشهر بأربعة أيام، كان يوم الجمعة، وطريق العودة سهل، عندما دخل إلى الشقة لمـ ـح المـ ـرآة فتوقف أمامها ليري نفسه، بشرته أصبحت سمراء، محروقة بالشمس، عيناه واسعتان من تأمل البحر، عضلاته صـ ـلبة من ركوب الدراجة على الأسفلت.

في مسجل التليفون كانت رسائل صـ ـوتية تنتظـ ـره، استمع إليها جالسا على مكتبه، الأولى من "تينا القرنفلـ ـي" تقول فيها:

"أشكرك على مساندتك لي في تلك الأمسية السخيفة التي قضيتها معنا، الرجال لا يفهمون لماذا أكرههم، أملـ ـي ألا يكون اللقاء الذي تم بيننا هو آخر لقاءاتنا". استمع إليها مرتين، وتركها دون أن يمسحها، كانت الثانية من سكرتيرة "فاروق الدجوي" تبلغ فيها بأن رئيس المركز بحـ ـث عنـ ـه طوال الفترة الماضية دون أن يهتدي إليـ ـه، وأنـ ـه سـ يعقد اجتماعا في مكتبة يوم الثلاثاء ٣٠ مـ ـايو يريـ ـد منـ ـه أن يحضره تكررت هذه الرسالة ثلاث مرات.

بعدها كانت هناك خمس مكالمات أغلق فيها أصحابها الخط دون أن يسجلوا أصواتهم، أما الرسالة الأخيرة فكانت من "إسماعيل أبوسمرة" تردد صوته الدافئ، وهو يقول:

"أريد أن أسمع أخبارك، أين اختفيت؟ اتصل بي مبكرا في الصباح، أو قرب الساعة الحادية عشرة بالليل".

وجد الخطابات التي جاءته أثناء غيابه في الدرج المفتوح الموضوع على الرف، من بينها إعلان عن مزاد في صالة "أوزوريس" وآخر من مطعم "تيك أواى" اسمه "اكستاتسي ٢٠٠٠" افتتح في الحي، ودعوة من الملحق الثقافي في السفارة الفرنسية لحضور حفل استقبال على شرف رئيس قسم الكيمياء التخليقية في جامعة "السوربون"مضى عليها يومان، مزق الكروت الثلاث بسرعة وألقي بها في سلة المهملات، ثم التفت إلى الخطابين الباقيين، أحدهما من "حزب الوفاق الديمقراطي" موقع من الدكتور "أمين الصيرفي" يفيد أن اللجنة العلمية ستصدر نشرة غير دورية وتطلب منه أن يساهم في تحريرها، والثاني مرسل بالبريد الداخلي السريع، في ركن

الورقة التي أخرجها من المظروف قرأ الكلام المطبوع بحروف فارسية زرقاء اللون "اتحاد المعاقين المصريين (تحت التأسيس)" أعلى الصفحة شارة: "عصفور جناحه مكسور يرقد على الأرض، ويتأهب للطيران قرأ تحتها "الأستاذ الدكتور "يوسف صفوان" تحية أخوية وبعد. ندعو سيادتكم لحضور الحفل الذي سيعقد بمناسبة افتتاح المقر الخاص باتحاد المعاقين المصريين (تحت التأسيس)، الكائن ١٧ شارع الترساوي، بالسبتية، وذلك يوم الجمعة الموافق ٢٦ مايو ٢٠٠٠ في الساعة السابعة مساء، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير، وأعمق المودة، المنسق العام المؤقت إسماعيل أبو سمرة.

عندما وصل الشغال طلب منه أن يعد إفطاره دخل الحمام ليزيل تراب الطريق من على جسمه، وارتدى جلبابا من القطن، أكل وجبة الفول بزيت الزيتون والجبن وشرب ثلاثة أقداح من الشاي ثم جلس في حجرة المعيشة يتصفح الجرائد والمجلات المتراكمة، في صفحة الشئون العلمية بجريدة الأمة قرأ خبرا بتاريخ الأربعاء ١٧ مايو يشير إلى زيارة الوفد العلمي الأمريكي للمركز، ويقول إن رئيس الوفد

المستر "دانيال شوستر" بحث فرص التعـ ـاون فـ ـي مجـ ـال الأبحاث الكيمائية مع المسئولين عنه، مع الخبـ ـر صـ ـورة للدكتور "فاروق الدجوي" يحتضن مستر "شوسـ ـتر" ويكـ ـاد يختفي بين ذراعيه، إلى جانبه وقف رجـ ـل أسـ ـمر الوجـ ـل طويل ونحيل، أنفه كالمنقار، وفمه بلا شفتين يشبه طيـ ـور البنجوين تعيش وسط الثلوج في القطب الشمالي والجنوبي، اسمه "نواز الشيخ" الممثل المقيم لوكالة المساعدات الدولية جاء من "لاهور" ليتسلم عمله.

في ملحق الجريدة الصادر يوم الجمعة قرأ عن سفر رئـ . .يس الوفـ . .د تارك . .ا مندوبـ . .ة "تكنوسـ . .بايس كيميكالزكوربوراشيون" الدكتورة "سما باتشينو" في القاهرة لاستكمال بعض الدراسات الهامة، وعن رحلتها الخاطفة إلى الوحدات البحرية حيث شاهدت الكشف الأثري الخطير الذي توصل إليه خبراء الآثار المصريون.

قرب الساعة الثالثة تناول وجبة غداء من البطـ ـيخ والجبن، ثم راجع الحسابات مع الشـ ـغال و طلـ ـب منـ ـه أن يحضر بعض المشتروات في الغد، أحس بشيء من التعـ ـب فانسحب إلى غرفة النوم لينام قبل أن يذهب إلى الحفل.

هبط من الشقة قبل الموعد بساعة، خشي ألا يهتدي إلى مقر الاتحاد بسهولة، لم يذهب إلى السبتية منذ سنين، تاه عدة مرات إلى أن أسعفه رجل كان يجلس أمام ورشته، ويدخن الشيشة، لما سأله أشار بيد تنقصها إصبعان وقال: "شمال في يمين في شمال، وعلي طول بعد الميدان الصغير تدخل يمين" ثم شد نفسا طويلا من مبسمه.

ركن سيارته على مسافة قصيرة من البيت رقم ٢٧ الذي قصد إليه، قديم له أربعة أدوار وشبابيك عالية مزودة بقضبان من الحديد، ألقى بنظرة قلقة على عدد من الصبية كانوا يلعبون الكرة في الشارع الذي توقف فيه، يجرون هنا وهناك في حماس.

يصرخون بأعلى صوت، ناعتين أمهاتهم بمختلف الأوصاف اقترب من أكبرهم سنا وخاطبه قائلا... "اسمع يا بني تحرس السيارة، وأعطيك جنيها عندما أهبط من هذا البيت"؟ ألقى إليه الولد بنظرة جامدة من عينه الوحيدة وقال: "عيني لك يا حاج.. لا تخف عليها... سأحرسها لك من أولاد الكلب هؤلاء. سأله: "ما أسمك؟" قال: محسوبك "عزوز" لكن شهرتي "الوولف".

كان السلم يغط في العتمة صد عد وه و يتحس س طريقه.

تسللت إليه رائحة طبيخ حامض وصابون غس يل، وفسيخ قال له إسماعيل في التليفون أن المقر ف ي ال دور الأول أسند يده على الدرابزين فمال به وكاد أن يسقط على الدرج، سحب يده من عليه بسرعة، وحرك ذراعي ه ف ي مختلف الاتجاهات إلى أن اس تعاد توازن ه توق ف ع ن الصعود، أخذ يلعن " إسماعيل " في س ره، لم اذا انج ر وراءه في هذا المشروع السخيف؟ طول عمره ساذج يتورط فيما لا يجب أن يتورط فيه، ماله ومال المعاقين؟ كان يجب أن يكون فقيرا حتى يتخلص من تأنيب الضمير، من الرغبة التي تصيبه أحيانا للتظاهر بالعطف على المساكين، لك ن " إسماعيل " سيسعد لمجيئه.

سمع أصواتا تأتي من أعلى، فاس تأنف الص عود، توقف عند العتبة أم ام الب اب الواس ع المفت وح عل ى مصراعيه، جعله الضوء القوي بعد العتمة يغم ض عيني ه ولمدة لحظات لم ير شيئا .

عندما فتحهما فوجئ بصالة كبيرة تمتد على مساحة الدور المكون من شقتين عند الجدار الخلفي للصالة تبرق من فرط النظافة تضيئها مصابيح النيون، أرضيتها بيضاء مبلطة وجدرانها مرشوشة بالجير، وضعت فيها منضدة، ومقعدان لهما مساند وصفوف من المقاعد الخشبية، جلس عليها المدعوون.

لمح " إسماعيل أبو سمرة " جالسا في مقعده المتحرك وحوله عدد من المدعوين احتلوا مقاعد شبيهة بالمقعد الذي جلس عليه انتبه إليه واقفا في فتحة الباب، أشار له بيده ليدخل فسار بين الجالسين ثم توقف كأن شيئا اعترض طريقه بدا عليه الارتباك وهو يدور بعينيه على الوجوه المشوهة التفتت إليه، على الأفواه تكشف عن أنيابها في ضحكة غريبة، لمح شابا يرتدي بنطالا قصيرا يكشف عن ساقيه مثل عودين من الحطب الجاف.

أصابع يديه كالمخالف تتلوى في مختلف الاتجاهات نظر إليه، وفتح فمه في ضحكة صامتة بلا أسنان إلى جواره فتاة وجهها الأبيض المستدير مثل عجين الرغيف، وعيناها الضيقتان يطل منهما سواد كأنهما مشقوقتان

بسكين، على مقربة منها رجل عجوز وجهه فيه ملامح من الحمار، وعيناه رماديتان جاحظتان بلا رموش، عند آخ ـر الصف قزم رأسه كبير، وذراعاه صغيرتان، في أذنيه تتردد أصوات تشبه النهيق، أو الصـ فير، أو أصـ وات الـ دواب، منفرة، قبيحة.

تملكته رغبة في القيء استنشق رائحة نتنة، أخرج منديله، ونظر حوله حائرا كأنه يبحث عن مغيث، نظر إليـ ه " إسماعيل " من بعيد، تقدم نحوه بسرعة دافعـ ـا عجـ ـلات المقعد المتحرك بيديه، أمسك بذارعه وجذبه إلـ ـى الطرقـ ـة الممتدة ناحية اليمين، فتح أحد الأبواب وأدخله في غرفـ ـة صغيرة، أجلسه إلى كنبه من الجلد، ثم أدار المروحة وأخـ ـذ يتحدث إليه كأنه يريد أن يبعد تفكيره عما رآه.

استرح قليلا يا " يوسف " أنا مثلـ ـك حـ ـدثت لـ ـي الصدمة نفسها عندما رأيت هؤلاء النـ ـاس متجمعـ ـين، لـ ـم أتعود على منظرهم إلا بعد مرور أكثر من شـ ـهر، لكـ ـنهم كالأطفال التخلف حماهم من اللؤم، ثم العين تقع دائما علـ ـى الأقبح، ضع قبيحة وسط الجميلات ستتجه الأنظار إليها، ثم يوجد الكثيرون منهم إعاقتهم بسيطة، مجرد صـ ـعوبة فـ ـي

الكلام، أو السمع، أو ارتعاشات فـ ـي الجسـ ـم، أو أصـ ـابع ناقصة في اليد، أو ذراع صغيرة مثل ذراع القزم، إنـهم يا " يوسف " غلابة ينفر منه الناس، ويتخلون عـ ـنهم، وهـ ـذا الحفل بمناسبة افتتاح المقر مهم، احتاج فيه لمعاونتـ ـك، لا داعي لأن تشاركنا المرطبات والحلوى التي سنوزعها، أريد فقط أن تجلس معي لتلقي كلمة على الحاضرين، أنت رجـ ـل صاحب خيال تستطيع أن تخاطبهم بما سأعجز أنا عنه، إنـهم يحتاجون إلى التشجيع.

" ألقى كلمة.. لا مستحيل، هل جننت أنا غير قـ ـادر على مجرد النظر إليهم طول عمري عندي مشكلة مع الجسم المشوه، ومع المرض، والجروح، والدم، نقلت أوراقي مـ ـن إعدادي طب إلى كلية العلوم دون أن أخبر أبي، ولا أستطيع أن أغير نفسي في آخر العمر، حتى لأجل خاطرك " .

وضع " إسماعيل " يده على كتفه وابتسم قائلا:

" ها أنت بدأت تعود إلـ ـى حالتـ ـك الطبيعيـ ـة، راح الشحوب وعادت اللمعة إلى عينيك، سأطلب لك كوبـ ـا مـ ـن الشاي وأتركك لبعض الوقت لأشرف على آخـ ـر ترتيبـ ـات الحفل " .

" الأفضل أن أعود إلى البيت " .

جمد وجهه قليلا، لمح شظايا داكنة تسبح في عينيه، مسح بيده على رأسه في حركة عصبية سريعة وقال:

" كما تريد... لكني كنت أتوقع ألا تخذلني " ثم أدار مقعده وخرج من الغرفة بدفعة قوية من ذراعيه.

ظل في مكانه لا يتحرك.. بعد قليل دخل شاب حاملا صينية عليها كوب من الشاي، وسكرية وزجاجة صغيرة من المياه المعدنية، لم يقل شيئا هز رأسه وابتسم ثم ترك الصينية على المنضدة، وانسحب، لاحظ أنه يسير بخطوة تعثير قليلا، وأنه عندما دخل كان يحمل الصينية بيديه الاثنتين كأنه يخشى أن تنقلب منه.

عاد " إسماعيل " وهو يبتلع آخر رشفة من كوب الشاي سأله:

" هه جاهز؟ فقال: نعم جاهز " ، قال: " اعطني يدك حتى نذهب إليهم سويا " .

عندما دخلا إلى الصالة قوبلا بعاصفة من الأصوات والصفافير، والضحكات ودقات الأقدام على الأرض،

والمحاولات المتناثرة ل لتصفيق، كانت الصالة مزدحمة عن آخرها بالحاضرين شغلوا جميع المقاعد فوق ف عش رات منهم مسندين ظهورهم للجدران، أو في الطرقات الجانبي ة، على العتبة الخارجية أمام الباب المفتوح وعل ي الس لالم تجمع عدد من الجيران وسكان الحي. لمح الصبي الش هير " بالوولف " يرنو إليه بعينه الوحيدة.

قرب إحدى النواف ذ جم ع ص غير م ن الش باب والشابات أخرجوا الأقلام والأوراق من حقائبهم عندما أخذا مكانهما خلف المنضدة.

كان من بينهم اثنتان من الشابات شقراوان ترتديان نظارات سوداء، وفي أيديهما زجاجتان من المياه المعدني ة ترتشفان منهما رشفات متتالية وتمسحان العرق الذي ظ ل ينهمر منهما بمناديل من الورق، مع أح د ال واقفين عن د النافذة آلة تصوير كان يرفعها فوق رأسه أو يرف ع نفس ه على عتبة الشباك ليلتقط الصور، وإلي جواره شابة انتصبت فوق أحد المقاعد وأخذت تدور في مختلف الاتجاهات بجهاز تصوير الفيديو التي كانت تحمله.

رفع " إسماعيل " يده في الهواء فهدأت الصالة، واتجهت إليه العيون، انتظر حتى ساد الصمت تماما ثم بدأ يتكلم، كانت كلماته ترن واضحة في الصالة فيها شيء يفرض الإنصات.

بسيطة ليس فيها افتعال كأنه جالس في بيته يتحدث إلى بعض الأصدقاء، يتوقف أحيانا، أو يبتسم كأن خاطرا أوحى إليه بالابتسام، أشار إلى أن افتتاح المقر هو أول خطوة نحو تكوين الاتحاد العام للمعاقين المصريين، إنه يقع على عاتق كل فئة في المجتمع أن تدافع عن مصالحها، العمال عن العمال، والفلاحون عن الفلاحين، والنساء عن النساء، والرأسماليون عن الرأسماليين، وهذا أمر طبيعي، فلا أحد يحس بفئة أخرى أو طبقة أخرى قدر إحساسه بفئته أو طبقته، النجدة لا تأتي من قوة خارجها حتى إن تعاونت معها وأعطتها من فكرها، لكن في النهاية لا بد أن تتبع الحلول، والجهود من صفوفها، فالمثل القديم يقول " ما حك جلدك مثل ظفرك " . الحقوق لا تؤخذ إلا إذا طالب بها أهلها، وسعوا إليها، وأقاموا قوة منظمة تناضل بصبر للحصول عليها.

والمعاقون بشر مثل غيرهم يمكنهم أن يساهموا في صنع الحاضر، والمستقبل، في صنع التاريخ، المسألة هـ ي أن نتعامل مع ظروفهم، أن نبحث عن وسائل للعمل تتناسب معهم، أن نتعرف على هذه الوسائل منهم، أن يصنعوا هـ م قدرتهم على تجاوز الصعوبات الخاصـ ـة التـ ـي تـ ـواجههم، واختتم كلامه قائلا: " لذلك سنبني نحن المعـ ـاقون اتحـ ـادا يدفع عنا حتى نوجد لأنفسنا مكانا وموقعا في بلاد أهملتنـ ـا، وفرصا للحياة، والعمل والتعلم والصحة حرمنا منها، وهـ ـذا المقر تبرع من أحد منكم ولدت له بنت معاقة فعرف معنـ ـى ما يعانيه أب أحب ابنته، وتجاوز بهذا الحب جدران الأسرة إلى الجماعة الأكبر، فارتبطت ذاته بقضية تخرج عن نطاقها إلى ما هو أوسع، دفع لهذا المقر ما قيمته سبعين ألفا مـ ـن الجنيهات " ، رفع يديه بورقة ولوح بها أمامهم. " وهـ ـذا الشيك كتبه باسمي وطلب مني ألا أكشف عـ ـن شخصـ ـيته، سأضعه في البنك باسم الاتحاد العام للمعـ ـاقين المصـ ـري، ومعه مبالغ أخرى أصغر تبرع بها غيره، وأطلب مـ ـنكم أن تحيوه التحية التي يستحقها هو والآخرون الذين قدموا مـ ـا كان بوسعهم " .

اهتزت القاعة كأن بركانا حوصر بـ ين جـ درانها، امتزجت الأصوات، بالهتافات بالأقدام تدق، وبالأيدي تصفق، لمح الدموع في بعض العيون، أحس بغصة في حلقه فنسي أي قبح كان يراه منهم، تصالح معهم، أحس أنـ ـه محمـ ـول على موجة من الشعور لم تتملكه منذ مدة، إن وحدته ذابت في هذا الطوفان من المشاعر حرمت من قدرة التعبير عـ ـن نفسها فتفجرت بتوحشها البدائي في هذه اللحظة، مال عليه " إسماعيل " وهمس في أذنه " قل لهم شيئا يا أخـ ـي قـ ـل لهم صديقي الدكتور " يوسف صفوان " إنه رجل أنقـ ـذني من الموت عندما كنا سويا في الجـ ـنس، فأنـ ـا مـ ـدين لـ ـه بحياتي، والحياة هي الحياة حتى لو كانت قد فقدت القـ ـدرة على الوقوف فوق ساقي، إنه عالم موهوب " ابتسم إليـ ـه وهو يضيف " وروائي له رواية مشهورة اسمها " الحياة في لحظة الموت " وهو يكتب الآن رواية أخرى لا أعـ ـرف متى ينتهي منها، جاء ليشاركنا احتفالنا البسيط، وطلبت منه أن يتحدث إلينا " .

أحس أنه تائه في فضاء عريض لا يعـ ـرف لنفسـ ـه فيه موقعا، أن هناك دوامة امتصت عقله فتناثرت أجـ ـزاؤه

ولم يعد قادرا على أن يلم شملها، أنه لا توجد كلمة واحدة
يستطيع أن ينطق بها ، أن كل شيء أمامه تحول إلى
صفحة بيضاء تمتد وتمتد دون أن يظهر عليها حتى حرف،
ما الذي يستطيع أن يقوله لهؤلاء الناس تفصل بينه وبينهم
مسافات لا تحصى، كالجدران.... طفولته، وهذا مسلم، وهذا
مسيحي، وهذا بشرته لا تلائم ذوق الحكام، وتؤذي عيونهم،
نحن جميعا معاقون، والتفرقة بيننا جزء من التقسيمات التي
تقضي على التضامن والتعاون بين الناس، تجعل كلا منا
ينظر إلى الآخر على أنه أدنى أو أقل، أو مشوه، أو معاق
ينقصه شيء، لكن ربما رجل أو امرأة في قمة المجتمع ينعم
بالسلطة والمال، وحياة تتيح له كل الفرص، ولكن عقليته
مشوهة، وأخلاقه مشوهة، ونظرته للآخرين مشوهة ليس
فيها إنسانية، ولا إنصاف، ولا عدل، ولا فكر مستنير، أليس
هذا إنسانا مشوها، وأخلاقه مشوهة، ونظرته للآخرين
مشوهة ليس فيها إنسانية، ولا إنصاف، ولا عدل، ولا فكر
مستنير، أليس هذا إنسانا مشوها، ومعاقا، أما المعاق
بالمعني الذي نستخدمه عادة فهو لفظ ينقصه الفهم لما يجب
أن نسعى إليه.

لا سبيل إلى تغيير أوضاعنا جميعـا إلا بالتضـامن بعضكم مع بعض، إلا بالتضامن بـين كـل الـذين يعـيقهم المجتمع بشكل أو آخر ويحول دون وصـولهم إلـى نظـام يعطي فرصا للجميع مهما كانت الفئة التي ينتمون إليهـا إلا ببناء اتحادكم خطوة في الطريق نحو تحقيق حياة أفضل لكم ولأطفالكم.

أشكركم وإلى اللقاء القادم أيها الزملاء والزميلات "

في تلك الليلة أثناء النوم رأى نفسه جالسـا علـى مقعد متحرك ومن حوله عشرات الرجال والنساء جالسـين على مقاعد متحركة مثله، كانت وجوههم غريبة، أصـابها تشويه، بدت ملامحهم قريبة من الأرانـب، أو الـدواب، أو حيوان من الحيوانات، وفجأة اكتشف أنه أصـبح للمقاعـد أجنحة، فارتفعت بهم في السماء مثل الطائرات، يطلون منها على الوادي، سار السرب مسافة ثم اقترب منه " إسماعيل " وأخذ يطير إلى جواره ويهتف " عـاش الاتحـاد العـام للمعاقين " فردوا وراءه، وعند آخر الرحلة هبطـوا علـى أرض فضاء تضيئها مصابيح زرقاء اللون.

فوقفوا على أقدامهم وصاروا يرقصون حتى صعدت الشمس.

استيقظ ليجد أنه في الليلة السابقة لم يغلق سـ ـواتر الغرفة وفي الصباح زحفت أشـ ـعة رفيعـ ـة ذهبيـ ـة اللـ ـون وأيقظته فقام من السرير وأخذ يرقص.

(٩)

كان يطل على المدينة من الواجهة الزجاجية للمعمل عندما هبت العاصفة فوجئ بشد يء مث ل الكتل ـة الناري ـة الضخمة تزحف نحوه، كأن بركانا خفيا انفجر، وأطلق سحبا كثيفة مشتعلة في السماء، كانت تـ دور حـ ول نفسـ ها، أو تنقلب ببطء في تموجات صفراء، وبني ـة الل ـون غامق ـة، وملتهبة مثل جهنم الحمراء.

تأملها وهي تقترب مرعبة، ومبهرة كأنـ ـه مشـ دود إلى الهلاك، مستمتع بلحظاته الأخيرة في الحياة عاجز ع ـن أن ينتزع عينيه ويهرب في مكان ما، فوقف في مكانه حتى تصل إليه وفجأة أدرك أن ما يراه هو إعصـ ـار قـ ـادم مـ ـن الصحراء فبعد لحظة انهالت الرياح المحملة بالرمال عل ـى زجاج النوافذ، أخذت تهتز بعنف كأنها ستنفجر إلى شـ ظايا ليدخل الإعصار ويجرف محتويات المبنى كلها أمام دفعـ ـات الرياح الهوجاء.

أظلمت الدنيا فقفز خارج المصعد واجتاز المسـ ـافة عائدا من حيث جاء متفاديـ ـا كتـ ـل المناضـ ـد والمقاعـ ـد، والأجهزة توارت في الظلام خطر في باله أن يسأل إن كان

الاجتماع قد تأجل، ثم عدل عن هذه الفكـ ـرة، بقـ ـي علـ ـى الاجتماع نصف ساعة والأفضل أن يذهب إلى هناك بدلا من أن يبقى وحده.

هبط الأدوار الستة على السـ ـلالم، واجتـ ـاز صـ ـالة الاجتماعات ثم الطرقة التي تصل بينها وبين مبنـ ـى الإدارة، مرق أمام السكرتارية ودفع الباب المبطن بالجلد، كان الجو في الغرفة معتما رغم المصابيح المضاءة في كل أركانهـ ـا، ظن أنه لن يجد فيها سوى الـ ـرئيس، دار بعينـ ـه حولهـ ـا، فوجئ بوجود عدد من الأشخاص جالسين حـ ـول المنضـ ـدة الموضوعة عند الطرف البعيد.

بدوا كالأشباح في الجو الأصفر اللون، توقف لحظة ثم سار بخطوات صامتة فوق " الموكيت " عندما اقتـ ـرب لمح كتلة متلاصقة من الرؤوس أخذ يميز ما بينها، رأس " فاروق الدجوي " الأصلع، إلى جواره رأس " الدكتور عبد الفتاح " يحيطه الشعر الأكرت، ثم رأس " الدكتورة عفاف " مغطى بحجاب كحلي اللون، وعلى الناحية الأخرى رأس " نبيل القرنفلي " مستدير وكبيـ ـر، وعلـ ـى مسـ ـافة منـ ـه

السكرتير الخاص بشعره الطويل مال بـ ـه علـ ـى الكراسـ ـة الموضوعة أمامه.

بدا له كأن المجتمعين يتداولون في أمر هـ ـام فلـ ـم ينتبهوا إليه إلا عندما أصبح على بعد خطوات، أحس كأنـ ـه دخل في عالم كابوسي لا ينتمي إليه فاستولت عليه رغبـ ـة قوية في أن يعود من حيث جاء، في أن يفلت بسرعة مـ ـن هذا المكان، في تلك اللحظة التفتوا إليه، ابتسم " فـ ـاروق الدجوي " عندما لمحه واقفا على بعـ ـد خطـ ـوتين مجـ ـرد انفراجة بين الشفتين فأحس فيها بالزيف قال:

" أهلا يا دكتور " يوسف " تفضل انضـ ـم إلينـ ـا، بحثت عنك طوال الأسبوعين الماضيين أين اختفيت؟ كنـ ـت أريد أن أتباحث معك في أمـ ـر هـ ـام " أضـ ـاف ضـ ـاحكا " الشطحات الروائية التي تصيبك تتفق مع مسئولياتك كعالم جليل " .

" ربما... وربما تفيد، أرسلت إليك خطابا بالبريـ ـد السريع مرفق به تقرير الطبيب ينصحني فيه بأن آخذ أجازة لمدة أسبوعين بعيدا عن المدينة " .

نظر إلى الشاب ذي الشعر الطويـ ـل تحـ ـيط عينيـ ـه الرماديتين نظارة إطارها من الصلب الرفيع:

" يا هشام لم يعرض على هذا الخطاب "

" لم يصل إلينا شيء من هذا القبيل " .

حملق في وجهه وقال:

" أبحث جيدا، واسأل عبير " ثم التفت إلى الدكتور يوسف قائلا: " للأسف ليس عندنا سـ ـوى زجاجـ ـات مـ ـن المياه المعدنية لنقدمها إليك فهذه العاصفة عطلت كل شيء، كنت على وشك تأجيل الاجتماع لكن الأمور التي نريد بحثها لا تتحمل التأجيل الوفد الأمريكي ينتظر الرد على الاقتراحات التي تقدم بها وكنت أنت غائبـ ـا أثنـ ـاء المحادثـ ـات التـ ـي أجريناها، لكن أظن أن أنك التقيت بهم " .

ابتسم:

" نعم أثناء حفل العشاء، التقيت مع اثنين مـ ـنهم، لكن ليس في المفاوضات " .

ألقى إليه بنظرة سريعة، واستطرد دون أن يعلق:

" المهم كنت أتشاور مع " الدكتور عبد الفتاح " و " الدكتورة عفاف " و " الأستاذ نبيل القرنفلي " حول عروضهم قبل أن تنضم إلينا " .

صفر الريح بقوة، فارتعشت ألواح الزجاج في الشبابيك بعنف، تحول جو الحجرة إلى لون ترابي فبدت الوجوه الملتفة حول المنضدة كوجوه المومياوات قامت من رقدتها، عاد إليه الإحساس بأنه يعيش في كابوس، اعتدل في جلسته، قاوم الغضب الصاعد إلى رأسه وقال في هدوء:

" عندي ملاحظتان أحب أن أبديهما، أولا ميعاد هذا الاجتماع كان في الحادية عشر، جئت في العاشرة والنصف تقريبا و وجدتكم مجتمعين، ثانيا: يا دكتور " فاروق " لم تتشاور معي طول الفترة الماضية رغم أنني رئيس الفريق " .

تردد صوته رفيعا كأن أوتاره أصبحت مشدودة.

" أنت رئيس المجموعة البحثية، لكن أنت تعلم أنني مؤمن بروح الفريق " ، ألقى بنظرة جانبية إلى " الدكتور عبد الفتاح " كان يوجه نظراته بعيدا عنهم فهز رأسه ببطء

مرتين دون أن يلتفت إليه " وليس فينا مـ ن يعلـ و فـ وق الآخرين " .

أنا قدت هذه المجموعة منذ سنين بهذه الروح لكن الكلام الذي سمعته اليوم جديد علي، هل أفهم منه أنني لـ م أعد رئيسا للفريق؟ " .

" لا... لا... أنت أسأت فهم معنى كلامي، ليس هذا هو المقصود إطلاقا لكن على أية حالة فلنترك هذه الشكليات جانبا للناقش الموضوع الذي عقدت هذا الاجتماع من أجله، وهو العرض الذي تقدم به الوفد الأمريكي لمسـ ـاعدتنا فـ ـي تنفيذ المرحلة الثانية من البحث الذي تقومون به " .

" لا مانع لكن لدي سـ ـؤال مـ ـا علاقـ ـة العميـ ـد " القرنفلي " بالبحوث الكيميائية حسب معلوماتي هو ضـ ـابط سابق في القسم المخصوص، وكان لقاؤنا الأول علـ ـى مـ ـا أتذكر في السجون؟ " .

ساد صمت رهيب كأن جميع الأصوات ماتـ ـت فـ ـي الحجرة، حتى صوت الريح لم يعد يصل إليهم، حملق فيه " فاروق الدجوي " بعينيه الجاحظتين، قرأ فيهمـ ـا الخـ ـوف

والإعجاب متصارعين كأنه يتأرجح بينهما، ولا يعرف أين يضع قدميه.

تحول وجه القط الرومي الجالس إلى جواره إلى قناع أبيض مخيف، ثم عادت الدماء إلى الملامح بالتدريج، بذل جهدا حتى يتمالك نفسه، تردد صوته ناعما باردا خالٍ من الانفعال ما عدا ارتعاشه صغيرة تخللت الكلمات الأولى التي نطق بها.

" أنا تحت أمركم فيما تحتاجون إليه، حضرت بناء على اقتراح " الدكتورة عفاف " ، و وافق " الدكتور فاروق " مشكورا على انضمامي إليكم لكن إذا كان هناك اعتراض على وجودي في الاجتماع فيمكنني أن أستأذن منذ الآن " . نظر حوله كأنه ينتظر قرارهم.

كيف أصبح جزءا من هذه التمثيلية؟ ما علاقة البحث العلمي بكل هذا؟ لم يخلق له، لماذا يسعون لسلبه ثمار جهوده؟ هذه السوسة المربعة التي تسلل إلى كل مكان، وهذا الجلاد الأسمر لا يفترق عن " نبيل القرنفلي " الجالس أمامه، وهذا الشاب ذو الشعر الناعم الطويل يجلس غير مبال بكل ما يدور، يهمسون أنه السكرتير الخاص "

لفاروق الدجوي " لأسباب لا علاقة لها بالخطابات التي يعرضها عليه، أنه أصبح قبيحا وحقودا ولا يفترق عنهم في شيء، قال:

" طالما أن الدكتور " فاروق الدجوي " يرى أهمية في حضور الأستاذ " نبيل القرنفلي " ليس عندي اعتراض كنت أريد فقط أن أفهم لماذا انضم إلى هذا الاجتماع الذي ظننت أنه خاص بفريق البحث " .

تدخل " الدكتور عبد الفتاح " قائلا:

" كلنا سواسية في خدمة العمل " .

لمح عيني " فاروق الدجوي " وهو يلقي بنظرة متسائلة إلى الشاب " هشام " كأنه يريد أن يستشف منه شيئا ثم خفض رأسه إلى الأوراق الموضوعة أمامه وقال:

" فعلا.. لندخل في الموضوع، فهمت من " الدكتور عبد الفتاح " أنه يوجد بينك وبين بعض أعضاء الفريق خلافا فيما يتعلق بتنفيذ المرحلة الثانية من البحث " .

" خلاف؟ ربما لكني لم أجتمع بهم بعد أن أعدت " الدكتورة عفاف " مشروع برنامج العمل، والميزانية الخاصة به.

لذلك لم يحدث أي تبادل يعتد به للآراء ربما لو تناقشنا لأمكننا التوصل إلى رأي موحد، لكن صحيح أنه يوجد الآن ما يبدو أنه خلاف " .

" لكنك تغيب في وقت حاسم يا " دكتور يوسف " .

ربما لكني لم آخذ أجازة منذ أكثر من سنتين، وكنت متعبا، ثم يا " دكتور فاروق " عندما جاء الوفد لم تدعني إلى حضور أي اجتماع معهم فبدا وكأنك ستقوم أنت بكل المناقشات ثم نجتمع نحن فيما بعد للتداول حول اقتراحاتهم، ومع ذلك علمت أن " الدكتور عبد الفتاح " حضر الاجتماع الأول الذي جرى في مكتبك، ورافق مندوبة " تكنو سبايس كوربوراشن " في تنقلاتها " .

قال " فاروق الدجوي " .

" إنها مجرد صدفة، دخل ليعرض على بعض الأوراق، فطلبت منه أن يبقى " ثم أضاف ضاحكا:

" يبدو أنك تعاني من الغيرة " .

ابتسم:

" يحدث أحيانا إنما ليس من " الدكتور عبد الفتاح " لكن حتى لا نسترسل في هذه المسائل لماذا لا تعرض

علينا ما وصلتم إليه مع الوفد حتى الآن، وما كنتم تتداولون فيه قبل أن أحضر أنا الاجتماع " .

لمح عيني " الدكتورة عفـاف " تتذبـذبان خلـف نظارتها.

شدت على الحجاب بحركة عصبية فانكشف جانـب من شعرها أسرعت بتغطيتها خطر في باله أن شعرها يشبه فروة الفأر.

مسكينة لكن كل فولة ولها كيال ويبدو أن " الدكتور عبد الفتاح " هو كيالهـا، لا يكرههـا، يكـره ادعاءاتهـا السياسية لا تكف عن استعراضها في كل مكان.

اخترق الدكتور " فاروق الدجوي " لحظة الصمت المتوتر قائلا:

" عرض علينا الوفد تمويل المرحلة الثانيـة مـن البحث " " بدون مقابل " .

لا بالطبع لا بد أن يكون هناك مقابل في كل اتفـاق من هذا النوع " .

مقابل مالي...؟

نظر إليه كأنه يشك في أنه يسخر منه ثم قال:

" لا " ... صمت لحظة طويلة كأنه يفكر في صياغة دقيقة لكلامه " المقابل هو أن يعرفوا مدى جدية المرحلة التي تمت حتى يتأكدوا من جدوى ما وصلنا إليه... وهذه مسألة طبيعية، أليس كذلك؟.

هز " الدكتور عبد الفتاح " رأسه مؤيدا، ومن ورائه " الدكتورة عفاف " ، وسجل الشاب شيئا في كراسته بقلمه الرفيع.

هذا التمثال الأسود لا يتحرك إلى ليهز رأسه بالموافقة، متوسطو الكفاءة كوشوا على كل شيء، " أمين الصيرفي " قال لنجوى إنه عالم كفء، يريد أن يكسب صوته، اقتربنا من موسم جوائز الدولة، انتزع نفسه من تأملاته وقال:

" هذا يعني أن نوافق على تسليمهم نتائج الجهد الذي بذلناه، وأسرار الاكتشاف الذي وصلنا إليه مقابل مبلغ من المال.

هذا إن دفعوه بالطبع، فربما قالوا إن الاكتشاف لا يعينهم في شيء بعد أن يطلعوا على كل أسراره، فما هي الضمانات التي سنحصل عليها؟ " .

خرج " نبيل القرنفلي " من حالة تشبه الغيبوبة وقال:

" الأوساط العلمية في أمريكا تتعامل بشرف "

لم يلتفت أحد إليه، تساءل " فاروق الدجوي " :

" كيف يمكن أن يتأكدوا من جدية ما وصلنا إليه طالما أنك يا " دكتور يوسف " تصر على الاحتفاظ بأهم المعلومات الخاصة به؟ وما الذي يمكن أن تتقدم به مقابل اقتراحاتهم؟ " .

" المسألة بسيطة، أن نسجل الاكتشاف الذي توصلنا إليه وفقا لنظام براءات الاختراع باسمي وباسم المركز كشاهد على الكشف، وأن تنفذ المرحلة الثانية من البحث في المركز، على أن يساعدونا في التمويل، وعلى الأخص في الحصول على الأجهزة التي نحتاج إليها، وذلك باتفاقات تحدد حقوق كل طرف من الطرفين بما فيها حقوقي أنا، وحقوق باقي الباحثين، والمشاريع التي يمكن التعاون في تنفيذها، ومسئوليات ومواصفات ومكافآت الخبراء الذين قد يختارون للعمل في فريق البحث " .

تدخل " نبيل القرنفلي " مرة أخرى قائلا:

" الأمريكان لن يقبلوا مثل هذه الشروط، هذا كلام غير واقعي " .

قال:

" أولا يا " أستاذ نبيل " أنا لست أمريكيا حتى يحكمني نظامهم، من يريد أن يقبله فهو حر، أما أنا فلي حق الرفض ثانيا براءات الاختراع والحقوق الفكرية والعلمية جزء من نظامهم لكن عندما يأتون إلينا يطالبوننا بالتنازل عنها، أو على الأقل أن نبيعها بشروطهم، وأن شخصيا أريد أن أعامل كند، ما ينطبق على الأمريكي ينطبق علي، عقلي أنا لا يشتري بثمن بخس، بذلنا سبع سنوات من الفكر، والجهد في هذا الكشف وأظن يا " دكتور فاروق " أنك ستؤيدني في هذا الرأي، وأنك لست مستعدا لتسليم أمور المركز إليهم، والتنازل عن استقلاله، وعن السلطات التي تمارسها، أم أنني مخطئ في هذا الرأي؟ أظن أن موقفي واضح لكن يمكن أن نتشاور فيه فيما بعد، وإذا أذنتم لي أنا متعب للغاية، واليوم كان صعبا بسبب الجو، أنا لست شابا مثلكم، لذلك اقترح أن ننهي الاجتماع، أو أن أنسحب

أنا على الأقل وإن كنت تريد مني شيئا يا " دكتور فاروق " فسأكون في المعمل باكر صباحا ابتداء من الثامنة والنصف.

في تلك الليلة لم يعد إلى البيت، سار المسافة القصيرة حتى فندق " شبرد " على قدميه، يفضله عن الفنادق الأخرى، ليست فيه تلك البهرجة القبيحة التي يكرهها، والتي تذكره برائحة النفط ثم أن خرج منه طلب خدمة الغرفة ليحضروا إليه ساندويتش خبز محمص بالفراخ والخص وعلبة زبادي، وصنع لنفسه قدحا من الشاي مستعينا بالغلاية الكهربائية، وكيس من الشاي " أيرل جراي " .

أكل وشرب وهو في السرير، كان الجو لا يزال مغبرا أصفر اللون، استولى عليه إحساس عميق بالحزن لو كان يستطيع أن يتصل بها، أن يحكي لها أحداث اليوم، أن يسمع منها كلمات التشجيع ليتبدد الشعور بالوحشة التي أصبحت ترافقه كلما عاد إلى البيت، حتى أثناء العمل أصبح ينقض عليه فجأة دون سابق إنذار فيشعر بعدم جدوى الأشياء التي لا تشاركه فيها، تذكر أبيات قصيدة قرأها بالإنجليزية منذ سنين " عندما نفسك المتلهفة تتخطى

زمانك تمكث حزينا على شاطئ بارد بـ ين أهلـ ك وأنـ ت لا تعرفهم ولكن مهما يكن العام باردا، وبلا غناء في وقت فمن حقل أبيض يندفع ورق أخضر وغالبا ما يغني طـ ائر فـ ي وحشة " . ظل يحملق لحظة في الظلام ثم انقلب على جانبه ونام.

(١٠)

كان مبنى الإدارة خاليا من العاملين عندما وصل في الصباح، جلس خلف مكتبه يتصفح العدد الأخير من المجلة الهندية " الكيمياء والكون " . بعد قليل دخل علي ـه " ع م سليمان " حاملا قهوة الصباح وكأنه كان يترقب حض ـوره، وضع الصينية على المكتب، وظل واقفا يراقبه وه ـو يق ـرأ فرفع رأسه وسأله:

" هه .. يا عم " سليمان " ، أتريد شيئا " ؟

قال:

" لا أبدا... حضرتك غبت مدة هل جرى شيء " .

" لا يا عم " سليمان " ... كنت ف ـي حاج ـة إل ـى إجازة، فذهبت إلى البحر " .

تلقى الإجابة في صمت، اقترب في مكتب ـه خط ـوة، وخفض صوته:

" هناك ناس سألوا عنك " .

" ناس سألوا عني؟ سن يا عم " سليمان " ؟.

" سيدة أجنبية اس ـمها " نيذ ـا " أظ ـن، ج ـاءت للأستاذ " نبيل " ، ثم وهي خارجة من عن ـده س ـألتني إن

كنت موجودا في مكتبك قلت لها أنك تقضي أغلب وقتك في المعمل، وأنك لم تأت إلى الإدارة منذ أكثر من أسبوعين " .

ألقى إليه بنظرة فاحصة قبل أن يستطرد:

" في هذه الأيام يجب أن يحتاط الإنسان حتى من أقرب الناس إليه، يريدون أن يخطفوا من الآخرين دون أن يبذلوا أي جهد، يطلبون مني أشياء لا أستطيع أن أوافق عليها فأنا طول عمري أتقي الله فيما أفعله " .

" هل ضايقك أحد في شيء يا عم " سليمان " ؟

" يا دكتور يوسف أنا أعرفك منذ سنتين أنت رجل شريف، لذلك أنا مستعد لخدمتك بعيني، أما الآخرون فهم لا يحترمون رجلا فقيرا مثل، يظنون أنني أقبل أن أفعل أي شيء.

" يا عم سليمان.. أنا لا أرتاح إلى هذا الغموض أفصح عما في صدرك " .

" إنها مجرد مخاوف رجل عجوز يعزك ويخشى عليك من أيام لم نر مثلها في السوء " .

" أنا أشكرك على هذه المشاعر، أخبرني على الأقل بما قالته لك السيدة " نينا " .

سألت عنك فقط ثم انصرفت " صمت لحظة ثم أضاف عندما خرجت من مكتب الأستاذ " نبيل " كان يبدو عليها التوتر " .

هل تعرف أنها زوجة الأستاذ " نبيل " ؟

" لا.. كنت أظن أنها زائرة، فهو... " صمت " أنا نوبتجي اليوم، ولا بد أن أقوم بتسلم مفاتيح المخزن، هل تأذن لي بالذهاب " ؟

تأمل ظهره النحيل وهو يخرج من الباب، ترى ما الذي كان يريد أن يوصله إليه؟ جمع أوراقه ووضعها في الحقيبة، ثم غادر الغرفة سائرا بخطوة بطيئة.

كانت الساعة قد قاربت على الخامسة عندما انتهى من عمل اليم، خلع معطفه الأبيض اتسخ ببقعة بنية اللون، وضعه في كيس من البلاستيك، ثم فتح الدولاب، وأخرج منه معطفا نظيفا علقه على الشماعة، دار بعينيه حول الحجرة ليتأكد أنه لم ينس شيئا ثم أمسك بالحقيبة، وكيس البلاستيك وفتح الباب، سمع رنين التليفون، فأسرع إليه جاءه صوت الدكتور " فاروق الدجوي " :

" يا يوسف .. كيف أحوالك؟ أريد منك أن تمر على مكتبي غدا في المساء لنتداول في الموضوع الذي تناقشـ نا فيه بالأمس.

اتصل بي قبل أن تترك المعمل حتى أعرف أ نك في الطريق.

معي الآن الدكتورة " سلما باتشينو " مندوبـ ـة " تكنو سبايس كيميكالز كوربوراشون " . إنـها تريد أن تلتقي بك، يمكنـها أن تحضر إلى مكتبك غدا في الساعة التاسـ ـعة صباحا، هل هذا يناسبك أم تريد أن تتفق معها على موعـ ـد آخر " .

قال:

" لا.. غدا في التاسعة صباحا يناسبني ، لكن هـ ـل يمكن أن أعرف ما الذي تريد أن تناقشه معي " .

" ستعرض عليك اقتراحاتها فيما يتعلق بالتعـ ـاون بين شركتها والمركز في تنفيذ المرحلة الثانية من البحـ ـث " .

" لا مانع لدي بالطبع من المناقشة معها في ه ذا الموضوع لكن ألا ترى أنه من الأفض ل أن نلتق ي نح ن الثلاثة، فأري قرار لا بد أن توافق أنت عليه؟ " .

" لا.. هذه المناقشة التمهيدية مهمة، فأن ت مل م بالتفاصيل التكنيكية التي تريد أن تسألك عنها " .

" كما تريد... سأكون في انتظارها باكر صباحا " .

كان واقفا عند النافذة يتأمل أفواج الناس المنتظرين أمام السفارة من خلف الزجاج عندما س مع نق رات عل ى الباب، ترددت النقرات واضحة، هادئة ت وحي بثق ة ف ي النفس، علمته السنين التي قض اها ف ي الس جن تأم ل الأصوات التي يسمعها.

عندما انفتح الباب فوجئ بالمرأة التي وجدها أمامه، طويلة ممشوقة القوام، عينانا تبرقان في بش رتها الدافئ ة الغامقة اللون، سألت في صوت رنينه عميق:

" هل يمكن أن أدخل؟ " .

جاءه إحساس كأن ريحا دافئة لا يستطيع أن يصدها اندفعت من بابه، قال ضاحكا:

أهلا وسهلا لقد دخلت بالفعل، والآن لا مجال للانسحاب.

لمعت أسنانها البيض قالت:

" أنا الدكتورة " سلما باتشينو " .

تأملها وهي تخطو داخل الغرفة، ترتدي قميصا وبنطالا، وحذاء بلا كعب، بنيتها قوية كأنها تعودت ممارسة الرياضة، و وجهها خال من المساحيق.

جلست على المقعد الذي أشار إليه، وضعت حقيبتها المصنوعة من القش الملون إلى جوارها على الأرض، ومدت ساقيها الطويلتين، أخذ مكانه على الجانب الآخر من المكتب العريض، وسألها:

" قبل أن نبدأ الحديث، هل تشربين شيئا " ؟

قالت:

ليس الآن تناولت إفطاري منذ مدة قصيرة، ربما بعد قليل " .

عندنا أعشاب مريحة للمعدة، بلغني أنك أصبت بوعكة عندما وصلت.

فحصته بنظرة ثابتة عيناها زرقاوان أو خضـ ـراوان فيهما بريق قوي، تلفتان النظر في الوجه الأسمر الذي يطل عليه تملكه الإحساس بأنها تشبه عرافة من أصل غجري.

قالت:

شكرا.. أنا مرتاحة الآن، ولا أريد شيئا أنا سـ ـعيدة بهذا اللقاء يا دكتور " يوسف " فقد عرفت من الدكتور " فاروق " إنك رئيس الفريق الذي وصل إلى كشف كيميائي في غاية الأهمية، بل أنك في الواقع الرجل الذي يعود إليـ ـه الفضل فيما وصلتم إليه " .

لم يعلق فاستطردت:

" أنا كما تعلم مندوبة " تكنو سـ بايس كيميك ـالز كوربوراشون " . جئت إليك اليوم لنتداول حول ما يمكن أن يقوم بيننا وبين المركز من تعاون في سبيل الانتقال بالبحث إلى مرحلة جديدة تسمح بالاستفادة منه صناعيا " .

اكتفي بهزة من رأسه:

لعبت الابتسامة حول شفتيها الممتلئتين، سألته:

" هل أنت مصري " .

نعم.. مصري.

مائة في المائة.

لأنك صامت.

والمصريون ليسوا صامتين في رأيك؟

ضحكت في استرسال:

لا بتاتا.. على الأقل أولئك الذين التقيت بهـ م قبـ ل اليوم "

خطر في باله أن يسألها ماذا تفضل ثم عـ دل عـ ن السؤال.

وأنت؟

" أمريكية.. لكن الأمريكيين كما تعلم كلهم خليط " .

" وما أصولك أنت؟ "

كثيرة يمكن اختصارها إلى اثنين فإن اسـ تطعت أن تهتدي إليهما سأعطيك هدية " .

رنت ضحكاتها في الحجرة، استولى عليه إحسـ اس بالبهجة، لو كانت كل الاجتماعات تتم مع أمثالها، أخرجـ ت منها لفة صغيرة من الورق الشفاف المربوط بشـ ريط مـ ن الحرير برتقالي اللون لمح فيها سيجارين طويلين من التبغ الأسمر، سألته:

" هل تسمح لي بالتدخين؟ إذا كان الدخان يسبب لك ضيقا يمكنني أن أؤجل رغبتي " .

قال: " لا أبدا.. خذي راحتك " .

" فتحت اللفة وأخذت منها سيجارا واحدا، قضـمت على طرفه بأسنانها، وأسقطت الطرف الـذي فصـلته فـي المنفضة الموضوعة أمامها، أشعلت السـيجار بعـود مـن الثقاب الكبير الحجم أخرجته من علبة كانت تحملهـا فـي الحقيبة، نفثت سحابة كثيفة من الدخان إلى أعلى ثم قالت:

" لن أحيرك طويلا، فمن الصعب أن تعـرف، أبـي أمريكي لكنه جاء من جنوب إيطاليا، وأمي صومالية من " الأوغادين " لكن رغم انك لم تصل إلى الإجابة لن أحرمـك من الهدية، هذا السيجار " كوبي " ومن أجـود الأنـواع " يصعب الحصول عليه بسبب الحصار، ستستمتع بتدخينه " .

شكرا

أخذه منها و وضعه إلى جواره على المكتب، فتحت نوتة صغيرة ووضعتها أمامها، مسكت بقلم فضـي اللـون وقالت:

" لنعد إلى موضوعنا، سمعنا عن الاكتشاف الهام الذي توصلت إليه، إنه يتعلق بالطريقة التي تتكون بها المواد الكيمائية المختلفة، بما يؤدي إلى تلاحم ذرات معينة مع بعضها لتشكل مادة جديدة، بينما لا يحدث هذا بالنسبة لغيرها من الذرات، وأنت بالطبع تدرك أن هذه الاكتشاف يفسر لنا، أو يمكن أن يفسر لنا سر تخليق المواد العضوية، وغير العضوية في الطبيعة، وبالتالي يفتح لنا بابا جديدا في عمليات التصنيع الكيماوي " .

سلطت عليه نظرة متسائلة كأنها كانت تنتظر تعليقا منه.. هز رأسه في صمت فاستطردت:

" من هنا اهتمام شركة عالمية مثل " تكنوسبايس كيميكالز كوربوراشون " بهذا الموضوع.

قال:

لدي سؤال كيف عرفتهم بهذا البحث؟

قالت:

أعتقد أنك لست غافلا عما يحدث في هذا العصر.

الشركات الصناعية الهامة تحاول أن تتبع البحوث والدراسات التي تجري في جميع أنحاء العالم حتى تستفيد

منها، ولها مصادرها التي تصل عن طريقها للمعلومات التي تريدها " .

قال:

هذا لا يمكن أن يتم إلا من خلال أشخاص لهم علاقة بالدراسة أو البحث أي عن طريق ما يسـ مونه بالتجسـ س العلمي، أو الصناعي، أليس كذلك؟ "

" إن أردت هزت كتفيها، إنه قانون المنافسة الذي يحكمنا تبرره ضرورة تحقيـ ق النجـ ـاح، والتقـ دم العلمـ ـي المستمر ، من يعجز عن مسايرة الركب يتخلـ ف، ويسـ قط خارج السباق، ليصبح لا شيء مع ذلك ما جئـ ـت لأناقشـ ـه معك لا علاقة له بعمليات من هذا النوع أنا لا أطلب منـ ـك أن تفشي سرا مقابل مبلغ من المال، نحن نريد أن نتفاوض للوصول إلى اتفاق يرضي المركز والشركة ويحقق مصالح الطرفين.

إن كان هذا هو الغرض من زيارتك لـ ـي فأنـ ـا لـ ـن أفيدك في شيء رئيس المركز هو الذي يملك البت فـ ـي أي اتفاق بين المركز والجهات الخارجية، أنا دوري هو البحث . "

أطفأت السيجار الذي كانت تدخنـ ـه، قالـ ـت ناطقـ ـة الكلمات ببطء:

أعرف هذا. لكن أنت صاحب البحث، ومالك أسراره وليس رئيس المركز أو غيره أنت صاحب حق فيه لـ ـذلك لا بد من المفاوضة معك "

" ومن أين حصلت على هذه المعلومات إن صحت " .

رنت ضحكاتها في الغرفة من جديد، بدا عليها أنها مستمتعة بالحوار قالت:

" هذا هو الجزء التجسسي في الموضـ ـوع، لكنـ ـي صدقني ليست لي علاقة بهذا الشق، ولا أعرف عنه شـ ـيئا، أنا مهتمة بالتعاون العلمي الذي يمكن أن يتم بيننا " .

" ما هو دورك في " تكنو سبايس؟ " .

" أنا أستاذة في قسـ ـم الكيميـ ـاء بجامعـ ـة نـ ـورث كارولينا وأعمل كمستشارة علمية للشركة.

حسب ما فهمته من رئيس المركز أنـ ـتم تعرضـ ـون تمويل المرحلة اللاحقة من البحث نظير معرفة ما توصـ ـلنا إليه، وهذا يعني إعطاؤكم كل ما تحتاجون إليه من معلومات

لاستغلالها بالطريقة التي تتفق مع أهدافكم، فكيف يتأتى أن تستفيدوا أنتم من اكتشاف أخذ مني سبع سنوات، من الفكر والتجربة، والجهد؟ كيف تريدون أن نسـ لمكم مـ ا يمكـ ن تسميته ببراءة الاختراع مقابل مساهمة مالية فـ ي الجـ زء الثاني من البحث، فأين حقوقي أنا في هذا العرض؟ وكيـ ف نضمن أنك ستوفون حقا بالتزاماتكم بعد أن تحصلوا على ما يسمح لكم بمواصلة العمل والاستفادة من البحث دون حاجة إلينا؟

لكن كيف يمكن أن نتأكد من جدية ما وصلت أنـ ت إليه؟

" التأكد يأتي إذا اقتنعتم بالمناقشات التي سـ تدور بيني وبينكم وقررتم الحصول على براءة الاختـ راع بنـ اء عليها، كيف تتأكدون من أن مئات الملايين التي تصرفونها على البحث العلمي ستأتي كلها بالنتائج التي تسعون إليها؟ هناك عنصر مغامرة في أي بحـ ث علمـ ي، وبـ دون هـ ذا الاستعداد للمغامرة لن يتم شيء؟

ما الذي تقترحه إذن؟

" نحتاج إلى مزيد من التفكير، والمشاورات هنا في المركز حتى نستطيع أن نرد عليك، يمكننا أن نلتقـ ـي مـ ـرة أخرى لأسمع منك أكثر مما سـ ـمعته، ربمـ ـا تفكـ ـرين فـ ـي اقتراحات أخرى تضمن الحفاظ على حقوقنا، ثـ ـم لا بـ ـد أن نتشاور مع رئيس المركز " .

مر شيء كالجمود الخـ ـاطف علـ ـى ملامحهـ ـا ثـ ـم ابتسمت:

" وهو كذلك، لكن قبل أن أذهب لي طلب؟

طلبك مجاب

لا تخاطر بهذه السرعة، قد يكون مستعصيا عليك.

ضحك: " لا .. أنا متأكد من حسن تقديرك للموقف.

أشكرك.. أنا في حاجة إلى قدح من القهوة التركي، وكب من الماء المثلج قبل أن أهب إلى موعد آخر ينتظرني "

تلاقت عيونهما في نظرة طويلة، سألها:

" والسكر " .

قالت:

على الريحة.. مثلك:

ضحك:

كيف عرفت؟

قالت:

ليس عن طريق التجسس، مجرد حاسـ ـة سادسـ ـة، فأنت تشبهني في بعض الأشياء، نحب طعم الأشياء نقيا " .

في تلك الليلة بعد أن عاد إلى البيت جلس إلى مكتبه يجلس بعض انطباعاته.

٥ يونيو ٢٠٠٠

اليوم التقيت في مكتبي بـ ـامرأة اسـ ـمها " سـ ـلما باتشينو " منذ اللحظة الأولى التي جلسـ ـت فيهـ ـا أمـ ـامي أحسست أنها كانت تحدثني بلغة صامتة لا علاقة لها بالكلام الرسمي الذي دار بيننا عن التعاون بـ ـين تكنـ ـو سـ ـبايس كيميكالز كوربوراشون ومركزنا، كان جسدها يقول لي أنظر كيف أتصرف بتلقائية، كيف أتحرك، وأتكلم وأضحك دون أن أضع على نفسي قيدا، كيف أتفجر حيوية وثقـ ـة بـ ـالنفس، كيف أن شكلي، وبشرتي، وعيني صنعت إنسـ ـانة مختلفـ ـة عمن رأيتهم من قبل فأنا امرأة و رجل في الوقت نفسه.

أنا مزيج من الأبيض، والأسود، ومن ألوان الطيف اختلطت في دمي، أنا أفريقية وأوروبية وأمريكية، في تكويني عشرات الأعراق، هويتي جديدة ممتزجة، متغيرة، متحركة سائرة نحو الغد، أنا امرأة تعيش حياتها وتقدم بجرأة على كل تجاربها، أحمل معي ألغاما يجب أن تحتاط منها، جئت من عالم آخر قرأت أنت عنه لكنك لا تعرفه.

قمت من جلستي، ووقفت أمام المرآة، تأملت أنفي البارز قليلا انحفر بينه وبين الخد خط، لكن عندما بحثت عن التجاعيد وجدتها اختفت، فالفرحة كالسحر أزالتها وأعادت اللمعة بعد أن اختفت من عيني.

مع ذلك عقلي يقول لي احذر من جديد قادم إليك، هذه المرأة جاءت لتمثل " شركة تكنو سبايس " ، وترعى مصالحها أنت لا تهمها في شيء فأمثالها تسايرهن آلية العصر، وقواعد المال تهبط على الرقاب كالسيف " .

(١١)

كان ينتظر دوره أمام خزانة " السد وبر مارك ت "
عندما تذكر موعده في الساعة السابعة مساء مع " فاروق
الدجوي " ، نظر إلى ساعته كانت تشد ير إلى ى السد ابعة
والنصف فدفع الحساب وهبط مهرولا على السد لالم حد املا
كيسين من " البلاستيك " أثقلتهما زجاجات المياه المعدنية،
وعلبة كبيرة من مسحوق الصابون، ألقى بهما على المقعد
الخلفي للسيارة وانطلق بها أمام مبنى مجلس الدولة يربض
بكتلته الجرانيتية الضخمة فوق الأرض كأنه أقيم ليسحق ما
تبقى من عدل.

قرر أن يستغني عن الاتصد ال التليفد وني قبد ل أن
يذهب إليه، عندما وصل قفز فوق الدرجات كان المبني يغط
في ظلام شبه كامل، انحنى ناحيد ة اليسد ار فد ي الطرقد ة
المضاءة بمصباح واحد يلقي بنوره الواهن على الجد دران
والأرض، ويتسرب إلى حجرة السكرتارية الموحشة الخالية
من أصحابها.

كاد أن يعود من حيث جاء عندما لمح شعاعا مد ن
الضوء يتسرب من تحت باب غرفة الرئيس، توقف أمامد ه

لحظة لعله يسمع شيئا، ثم نقر عليه عدة مرات، كتم الجلـ ـد الذي كان يبطنه صوت النقرات، فأعادها من جديـ ـد، هيـ ـئ إليه أنه سمع صوتا يدعوه للدخول فدفع ضلفة الباب بيـ ـده، ووقف في الفتحة مسندا جسمه إليها، كانت الغرفة الواسعة مضاءة بمصباح مغطى " بطربوش " من القماش الرفيـ ـع، بعد قليل بدا له أن هناك من يرقد فوق الأريكة الموضـ ـوعة قرب أحد جدرانها وأنه ربما ركن إلى النوم فـ ـي انتظـ ـاره فتقدم بخطوات حريصة حتى لا يوقظه لكنه عنـ ـدما اقتـ ـرب أحس بشيء غريب كأن جسم الراقد له رأسان يبرزان منه أحدهما أصلع، والآخر غزير الشعر، وظهره عار يهبط إلى إليتين تعلوان، وتنخفضان ببطء، صدمته المفاجأة فتوقـ ـف عن السير، وفي اللحظة نفسها كفت الإليتان عـ ـن الحركـ ـة كأن صاحبهما يستريح ولما أمعن النظر فيهما لاحظ أن على سطحهما العاري توجد شعيرات رفيعة داكنة اللون.

مرت لحظة بدت قصيرة كطرفة الجفن طويلة كالعمر كله، لحظة توقف فيها كل شيء حتى نفسه، ثم لمح الرأس المغطاة بالشعر تستدير ناحيته، وعينين لامعتين كعيني القط

تشعان بالضوء تنظران إليه، فاستدار بسرعة، وانطلق عائدا من حيث جاء.

وجد نفسه جالسا في السيارة دون أن يدرك كيف وصل إليها ، أخذ نفسا عميقا، وفرك عينيه كأنه يستيقظ من حلم، أحقا ما رآه منذ لحظات واقع يستطيع أن يجزم به، وليس شيئا صنعه خياله؟ أهي الظلال والضوء الضعيف جعلاه يرى أشياء غريبة كما كان يحدث وهو طفل يرى أشباحا وهو سائر في الليل أو راقدا في سريره ؟ أهي الإشعاعات التي ظل يسمعها طوال السنوات أثرت عليه؟

ربما الضغوط الواقعة عليه، جعلته عرضة للأوهام، لا بد أن ينتزع نفسه من هذه الحالة، أصبح يرى الفساد في كل شيء لماذا يهتم بما رآه، وما شأنه هو به؟ إنه لا يخصه في شيء، لم ينصبه أحد مفتشا في الحياة الشخصية للناس.

قضي ليلة مضطربة تقلب فيها بين اليقظة والنوم إلى أن تسلل ضوء الفجر كاللص الشاحب من فتحات الشيش تملكته رغبة في الخروج بسرعة من حصار الجدران، فاغتسل وارتدي ملابسه ثم هبط إلى الشارع دون

أن يتناول إفطاره، توجه إلى محل الدمياطي للفول والطعمية في ميدان الأزهار، اشتري ساندويتش طعمية، وكيسا، صغيرا من المخللات، وجلس على مقهى " الحرية " ، أكل الساندويتش ، واحتسى كوبا من الشاي وهو يشاهد حركة المدينة الزاخرة بملايين الناس.

ظل جالسا على المقهى كأنه ارتاح إلى هذه الجلسة، ولا شيء يدفعه إلى القيام، كانت ساعة الميدان تشير إلى العاشرة عندما نادى على النادل ليدفع الحساب، ترك سيارته في الشارع الجانبي الذي أوقفها فيه، عند بداية شارع البستان، وسار على قدميه مخترقا ميدان التحرير إلى جاردن سيتي ليصل إلى كورنيش النيل وقف يتأمل الأشجار لحظة طويلة كأنه يراها لأول مرة ثم سار تحتها، وصل إلى مبنى المركز، بدا كما هو في كل الأيام، تساءل لماذا يشعر أن الدنيا تغيرت منذ أن اندفع خارجا من الباب بالأمس، لم يجد إجابة على السؤال، إذا كانت الحياة تسير كما سارت دائما فلا بد أن التغيير حدث فيه هو وليس فيما يجري حوله.

لمح المصباح الصغير في جهاز التليفون يومض بضوئه الأحمر ضغط على المفتاح ليستمع إلى الرسائل المسجلة فيه.

كانت الرسالة الأولى من " نينا " تقول فيها أنها ما زالت تأمل أن يتم بينهما لقاء في وقت قريب، وأنه إن لم يرد عليها هذه المرة ستفهم من ذلك انه لسبب من الأسباب يفضل ألا يلتقي بها. الرسالة الثانية كانت من " فاروق الدجوي " يقول فيها إنه انتظر مكالمته بالأمس حسب الاتفاق، وأنه ظل في مكتبه حتى الثامنة مساء ثم انصرف، ويرجوه أن يتصل به فور وصوله.

ظل جالسا خلف مكتبه دون حركة، لماذا هذا الإعراض في أن يذهب إليه؟ لم يحدث من الرجل شيء يضر به، إن ما رآه، أو هيئ له انه رآه يحدث كل يوم، فلماذا أحدث له هذه الصدمة؟ إنه مثل الآخرين يستنكر ما يستنكرون، ويدين ما يدينون لأنه يريد أن يحتمي في القطيع، أن يمارس إحساسه بالتفوق عليه.

عمل مع " فاروق الدجوي " منذ أكثر من سبع سنوات دون أن يسيء إليه، صحيح أن فيه عيوبا، يتأثر

بكلام الناس، فاقد الثقة في نفسه، وهذا يجعله يشد ك ف ي أقرب الأشخاص إليه، يجعله ينساق مع رجل مثل الدكتور " عبد الفتاح " أو غيره، مع ذلك ليس دوره أن يزيد العذاب الذي لا بد أن يشعر به، عليه أن ي ذهب إلي ه، ويواص ل المناقشات المتعلقة بالبحث كأنه لم يحدث شيء.

شرب فنجان القهوة الذي أحضره له " عم سليمان " ثم اتصل بالسكرتيرة وطلب منها أن تبلغ رئيس المرك ز بأنه سيحضر إليه بعد عشر دقائق إن ل م يك ن مش غولا بشيء، جمع أوراقه، واضعا أغلبها في الحقيب ة، وال تقط منها مجلة " الكيمياء والكون " الهندية ليعرضها عليه.

عندما دخل غرفته وجده جالسا في الملح ق إل ى جوار النافذة وأمامه على المنضدة فنج ان م ن القه وة، وعلبة سجائر مفتوحة، حياه ثم سأله ضاحكا:

" هل عدت إلى السجائر أم ماذا "

رفع رأسه وتطلع إليه دون أن يجيب، جسمه النحيل ساقط في المقعد فاقد الحيوية، فلا ملامحه وعيني ه ح زب شاحب كمن جاءته أنباء سيئة عن أقرب الناس إليه، قال:

" أشعر بحالة من التوتر منذ سنتين وأنـا أعـيش على المهدئات ففقدت تأثرها علي، قلـت لنفسـي لأجـرب السجائر ربما يكون لها تأثير، كنت مدخنا شرها ثم انقطعت عنها، وبالطبع لا أريد أن أعود إليها، لكنني أحتاج إلى شيء " .

" أنها ستؤدي إلى زيادة التوتر وليس إلى الإقـلال منه " .

لك حق؟.. لكن دعنا من هذا، لمـاذا لـم تحضـر بالأمس أو على الأقل لماذا لم تكلمني حسب اتفاقنا " .

يجب أن أعتذر لك عما حدث، تصور أنني لم أتذكر إلا بعد أن فات الموعد، كنت في الشـارع، ولـيس عنـدي محمول لم أحاول الاتصال بك تليفونيا حتى لا أتعطل أكثـر من ذلك، جئت مباشرة، وعندما وصلت لمحت نورا يتسـلل من غرفتك، فظننت أنك موجود، لكن لما دخلت لم أجد أحـد في الغرفة، يبدو أنك انصرفت ظنا منك أنني لن أحضر " .

ظل صامتا وعينا تنظران إلى قدميه، رفـع رأسـه ببطء وحملق في وجهه كأنه يحاول أن يستشف شيئا لم يرد

فيما قاله إليه، ثم أخذ يتكلم كأنه يبذل جهـ ـدا لينطـ ـق بمـ ـا يقوله:

" يا يوسف.. لقد عملنا سويا لمدة سبع سـ ـنوات، تعاونا في كثير من الأشياء، لكن يبدو أن ثمة حواجز حالت دون أن أفهمك جيدا، أو تفهمني، وإزاء ما شرحته لي أنا لا أستطيع أن أقول " ... توقف لحظة كأن صوته تعثـ ـر فـ ـي حلقه... " لا أستطيع أن أقول لك أكثر من كلمة واحدة هي متشكر.. رغم أنها أصعب كلمة يمكن أن أنطقها في الموقف الذي أنا فيه " .

أحس بغصة في حلقه، ابتسم إليه باحثا عـ ـن كـ ـلام يرد به عليه.

أرجو أن تأتي اليوم الذي لا تحتاج فيهـ ـا إليهـ ـا، لا أشعر أنني قمت بشيء يستحق الشكر، ربما تحتـ ـاج إلـ ـى إعادة ترتيب القيم في حياتنا " .

أشرقت ملامحه واختفت الموجة المتوترة في وجهه مد يده إلى مفتاح الجرس تدلس على مقربة منه سأله:

تشرب ليمون؟

قال: أشرب.

قال: وقهوة.

ضحك في سرور:

والآن يا " يوسف " قل لي ماذا فعلت مع السـ يدة " سلما باتشينو " .

تناقشا لمدة ساعة أو أكثر بالأمس، وعرضت علـ ى ما سبق أن عرضه الوفد عليك، قلت لها إن أي قـ رار فـ ي شأن مستقبل البحث يعود إليك بصفتك رئيس المركز " .

قال: بصرف النظر عن هذا يا " يوسف " بصراحة ما رأيك أنت في الموقف؟

رأيي أن للموضوع شقين، شق يتعلـ ق بـ المركز، ومستقبل البحث، وشق يتعلق بحقوقي أنـ ا فيمـ ا يتعلـ ق بالمركز رأيي إن أمكن إلى اتفاق معهم أي إلى بروتوكـ ول تفصيلي للبحث يساهمون بمقتضاه فـ ي تمويـ ل المرحلـ ة الثانية، ويقدمون واحدا أو اثنين من باحثيهم للتعاون معنـ ا هنا في المعمل.

علي أن يستخدم التمويل أساسـ ا لإعـ داد المركـ ز بالأجهزة والإمكانيات التي يحتاج إليها، وعند الانتهاء مـ ن

المرحلة الثانية يعقد اتفاق بين الحكومـ ـة والشـ ـركة علـ ـى كيفية استغلال الاكتشاف صناعيا.

وحقوقك أنت؟

يقوم المركز بشراء براءة الاختراع مني مقابل مبلغ من المال، فيصبح الكشف العلمي الذي توصلت إليـ ـه ملكـ ـا للمركز يتصرف فيه وفقا لأهدافه، ويستخدم ملكيتـ ـه هـ ـذه للوصول إلـ ـى اتفـ ـاق مـ ـع " تكنـ ـو سـ ـبايس كيميكـ ـال كوربوراشبون " بحيث يدعم إمكانياته ونشاطه في البحـ ـث العلمي.

" وما المبلغ الذي تراه مناسبا؟

هذه مسألة قابلة للتفاوض، ولكن حسابه ليس صعبا فاحتياجاتي في الحياة بسيطة.

هل لديك مانع في أن تحدده مبدئيا؟

نصف مليون من الجنيهات، فقط لا غير.

قال ضاحكا:

ألا ترى أن المبلغ كبير؟

بعد سبع سنوات من التفكير والجهد المتواصل؟ ثـ ـم الأهم من ذلك هو خطورة الاكتشاف الذي توصلنا إليه فـ ـي

عملية التخليق الكيماوي، هناك جهات ستكون مستعدة لدفع أضعاف أضعاف هذا المبلغ، ثم أليس من حقـ ـي أن أتمتـ ـع بالاستقرار فيما تبقى لي من عمر، وألا أعيش على المرتب الهزيل الذي أتقاضاه حتى هذه اللحظة؟

ظل صامتا فسأله:

أنت يا " فاروق " ما رأيك.؟

أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير.

قال:

شيء آخر أريد أن أوضـ ـحه قبـ ـل أن تـ ـأذن لـ ـي بالانصراف حتى أذهب إلى المعمل.

نظر إليه بشيء من التوجس:

قال: أريد منك أن تتأكد من أنه لا توجد أي علاقـ ـة بين ما تناقشنا فيه في الجزء الأول من هذه الجلسة، وبين المناقشة التي دارت بيننا في موضوع البحث.

تأكد أنت يا يوسف أنني لم أكن في حاجة إلى هـ ـذا التوضيح، لكن على أية حال أشكرك على محاولتك طمأنتي من هذه الناحية، مر على كلما سنحت لك الفرصة، فأنا أريد أن نتحدث سويا في أمور كثيرة.

(١٢)

أغلق أدراج المكتب بالمفتاح، خلع معطفه الأبيض، وارتدى السترة المعلقة على الشماعة في ركـ ـن الحجـ ـرة، التقط الملف الذي أعده ليقرأه في البيت، لم يجد ا لحقيبـ ـة على المقعد حيث تعود أن يضعها، بحث تحت المكتب، ومن حوله، وعند " الشنن " الذي يحفظ فيه ملفاته الخاصـ ـة، دار في الغرفة باحثا عنها مرة ثم أعاد الكرة مرة ثانية، جثم على ركبتيه ليفتش تحت الأريكة وزحـ ـزح المبـ ـرد لينظـ ـر خلفه، صعد على سلم أخرجه من خزانة في الحائط وبحـ ـث عنها أعلى رفوف المكتبة، لم يجد سوى طبقة من التـ ـراب قرر أن يلفت نظر الفراش إليها عندما يحضر في الصـ ـباح، عاد إلى جلساته خلف المكتب، أخذ يستعيد تحركاته منذ أن حضر في بداية النهار، تذكر أنه ساعة وصوله أخرج منها بعض الأوراق ، ثم أغلقها و وضعها على المقعد، إنه واثق من هذا فعندما غادر الغرفة ليـ ـذهب إلـ ـى الصـ ـالة التـ ـي خصصت لفريق البحث لمحها في مكانها، وعندما عاد فـ ـي فسحة الغذاء، وأخرج قليلا من العنب، وعلبة زبـ ـادي مـ ـن المبرد ليتناول وجبة خفيفة كانت لا تزال حيث وضعها فوق

المقعد، لكن آخر النهار قبيل أن يستعد للعودة إلى البيت جلس على مكتبة ليرتب أوراقه فوقعت عيناه بالصدفة على المقعد، كان خاليا لم يلفت هذا نظره فقد ظن أنه ربما نقلها إلى مكان آخر.

أحس بالتوتر، عاد يراجع تحركاته أثناء النهار خطوة خطوة لعله يكتشف شيئا لم يتنبه إليه، الحقيبة لم تختف في الصباح بدليل أنه رآها في فسحة الغذاء، إذن لا بد أن اختفت بعد ذلك، الشخص الذي أخذها دخل غرفته، خرج بها بعد الظهر لكن من الذي جرؤ على ذلك؟ لا بد أنه أحد العاملين أو العاملات في المعمل، فأي شخص غريب عنه يمكن أن يضبط بسهولة وهو داخل أو خارج منه، توجد حراسة على الأبواب، أما الطرقة التي تمتد من الإدارة ثم من تهمه هذه الحقيبة؟ الجميع يعلمون أنه لا يضع فيها نقودا، تعود أن يستخدم بطاقة ائتمان يضعها داخل محفظته في الجيب الخلفي للبنطال، والذين يعملون في المعمل حفظوا عاداته، المسألة لا تتعلق بالنقود، وإنما بشيء آخر له قيمة عند السارق، أنه متأكد الآن أن الحقيبة سرقت، فمنذ أكثر من سبع سنوات تعود أن يراه الناس وهو يحملها

في الصباح ويخرج بها آخر النهار، ولم يحدث أن ضـ ـاعت منه طوال هذه السنوات، الشيء الوحيـ ـد الـ ـذي يمكـ ـن أن تكون له قيمة الآن هو الأوراق التي لها علاقـ ـة بالبحـ ـث، صحيح أنه لم يعد يحمل معه أية أوراق لكن لا أحد يعلم هذه الحقيقة، من أخذها يظن أنه سيجد فيها ما يبحث عنه.

لكن من؟ من؟ " فاروق الـ ـدجوي " ؟ لا مسـ ـتحيل مهما كانت عيوبه فهو ليس من هذا النوع، ثم أنه مـ ـا زال يظن انه هناك نسخة تفصيلية من إجراءات ونتائج البحـ ـث موضوعة في خزينة البنك باسميهما، إذن من؟ " الـ ـدكتور عبد الفتاح " ؟ الدكتورة " عفاف " ؟ هما الاثنـ ـان؟ إنهمـ ـا يستطيعان الدخول إلى غرفته في أي وقـ ـت دون أن يشـ ـك فيهما أحد، هل يجازفان بالإقدام على شيء يمكن أن يقضي عليهم تماما؟ ربما استعانا بأحد العاملين في المعمل.

أخرج علبة مناديل من الدرج ليجفف نقاط العـ ـرق البارد التي سالت على جبينه، ما له يضخم الأمـ ـور بهـ ـذه الطريقة؟

الموضوع أبسط من ذلك بكثير، إنه لا يتعدى سرقة حقيبة لا أهمية لها، فلماذا هذا الخوف الذي أخذ يتسلل إليه

كالفراغ الأسود يملأ كيانه؟ الآن بدأ يدرك أن الموضوع أخطر مما يظن.

فالحادثة تبدو تافهة، لكنها قد تعني أن هناك أيادٍ خفية تمتد إليه، أياد تحركها قوة أخذت تدبر شيئا لا يستطيع أن يعرف المدى الذي يمكن أن تصل إليه، فحتى لو فرض أن " الدكتور عبد الفتاح " أو " الدكتورة عفاف " أو الاثنين سويا أرادا أن يستوليا على أسرار البحث فلا بد أن وراءهما آخرين، فهي لا تعني شيئا بالنسبة إليهما إلا إذا كانت هناك جهة لها إمكانيات تستطيع بها أن تستغل الاكتشاف الذي توصل إليه، وأن تدفع لهما مقابلا مجزيا يبرر المخاطر التي أقدما عليها.

لكن كيف يستطيع أن يجزم أنهما وراء سرقة الحقيبة؟ صحيح انه لا يثق فيها، مع ذلك هذا لا يكفي للقفز بسرعة إلى هذه النتيجة، لا بد من أن ينتظر لبعض الوقت فربما ظهرت من جديد أو اتضحت أشياء ما زالت خافية عنه، يجب أن يتوقف عن تقليب الموضوع فقد بدأ يشعر بالتعب، قام من جلسته ليشرب كوبا من الماء ، ثم رقد على الأريكة هناك سؤال يلح عليه، لماذا حدث ما حدث في هذا

الوقت، أي بعد أن جاء الوفد الأمريكي ليتفاوض مع رئيس المركز، حول المرحلة الثانية للبحث الذي سيجريه الفريق؟ أهي مجرد صدفة؟

أحس بشيء كالدوامة في رأسه، سيرهق نفسه إذا استمر يطلق العنان لخياله، لا يوجد مبرر للتخوفات الت ي زحفت عليه الخيال مفيد، لكنه في الحياة اليومية قد يتحول إلى شيء مدمر.

عمره الآن ثلاث وخمسون سنة وما زال يقع فريسة للأوهام التي يصنعها بنفسه، جدته هي السبب كانت لا تكف عن الحكي ، فامتص منها جو الأساطير والخرافات أصبحت جزء من تكوينه، غرست فيه القدرة على الحكي نمت فيم ا بعد، أعطته الكتابة أسعد لحظاته فلماذا لا يترك ك ل ه ذا، ويعود إليها؟ سيتضح أن سارق الحقيبة فراش ظن أن فيها نقودا، أو أشياء يستطيع أن يبيعها.

الأفضل أن ينصرف إلى البيت ليريح جسمه.

كان يقف بالسيارة قرب مفارق ك وبري الجامع ة عندما رنت في ذهنه كلم ة ف راش، رأى ملام ح " ع م

سليمان " القلقة تطل عليه يوم أن دخل في مكتبه بعد عودته من الساحل الشمالي.

ترددت في أذنيه كلمات التحذير التي نطق بها: " في هذه الأيام يجب أن يحتاط الإنسان من أقرب الناس إليه، إنهم يريدون أن يخطفوا من الآخرين دون أن يبذلوا جهدا.. " يطلبون مني أشياء لا أستطيع أن أقدم عليها " كأن يريد أن ينبه إلى شيء لكن مما؟ ربما مع كلاما تردد وهو يقدم فناجين القهوة والشاي، فهو يتحرك طوال النهار بين مكاتب الإدارة والموجودين فيها تعودوا عليه ولا يحتاطون منه.

تحول نور المفارق إلى اللون الأخضر، انشغل بتفادي سيارة " جاجوار " مرت إلى جواره بسرعة، ثم مالت عليه فجأة كاد أن يصطدم برصيف الجزيرة فتوقف لعن الانفتاح، وأصحابه، وسنينه قبل أن يتقهقر إلى الخلف قليلا ليدور حولها، ويكمل طريقه، عاد يقلب الاحتمالات في ذهنه، الأرجح أن الشخص الذي أخذ الحقيبة فراش في المعمل يستطيع أن يدخل إلى الغرف ويخرج منها بحرية " عم سليمان " قال له إن هناك من طلب منه أن يفعل شيئا رفض أن يقدم عليه، ترى هل طلب منه أحد أن يسرق

الحقيبة ويسلمها إليه فرفض؟ من هو الشخص الذي يجرؤ على مفاتحته في القيام بهذه الخطوة؟ لا بد أنه يتملك سلطة كبيرة، فيضمن أنه حتى إن رفض سيتردد في إفشاء السر خوفا من أضرار يمكن أن تقع عليه، " الدكتور عبد الفتاح " ، و " الدكتورة عفاف " يقضون جميع أوقاتهم تقريبا في مبنى المعمل، ولا يأتيان إلى الإدارة إلى نادرا لذلك لا علاقة لهما تقريبا " بعم سليمان " لا بد إذن أنه شخص يعمل في الإدارة، لا ليس بالتأكيد فربما هو أحد العاملين في الجهات الأمنية، لكن ما علاقة الجهات الأمنية بمثل هذا البحث؟

أحس برأسه يدور، وبالوهن في جسمه، قاد سيارته إلى طريق الكورنيش، وأوقفها في مساحة خالية إلى جوار النيل.

ضغط على مفتاح البرنامج الموسيقى فتسللت إليه الأنغام مع نسيم الليل، أحس بالتوتر يتسلل منه، " عم سليمان " قال له إن " نينا " سألت عنه، اتصلت هي به مرتين بعد أن التقيا في بيتها فلماذا لا يكلمها؟ إنه في أشد الحاجة للترويح عن نفسه.

جاء صوتها عبر أسلاك التليفون ينطق الكلمات بلكنتها الروسية، أحس في نبراته برنين الفرحة " أخيرا فكرت في أن تتصل بي، كم الساعة الآن؟ السابعة والنصف؟ ما رأيك في أن تمر على هنا في البوتيك؟ يوجد جناح صغير ملحق به يمكن أن نتعشى فيه، تفضل أن تخرج في الهواء الطلق؟ معك حق، النسيم الليلة جميل توجد عوامة ظريفة اسمها " بانوراما " إلى جوار كوبري الجامعة ليست بعيدة عن بيتك ثم أنها هادئة، ومريحة، نستطيع أن نلتقي هناك على الساعة التاسعة، يجب أن أعود إلى البيت لأغير ملابسي قبل أن أجيء إليك، في الساعة التاسعة والنصف؟ وهو كذلك.

كان يريد أن يجلس وحده قليلا فذهب قبل الميعاد بنصف ساعة، فحص العوامة من الباب المطل عليها من أعلى، كانت ممتدة في شكل مركب كبير قرب الشاطئ، هبط إليها على السلام ثم صعد داخلها عند طرفها يرى منها النيل حتى كوبري الجيزة وبعيدة عن زحمة الناس، ألقى عليهم نظرة سريعة وهو يخرج من السلالم ويتجه إليها، كانوا جميعا فتيان وفتيات في سن الشباب جلسوا اثنين

اثنين واستغرقوا في تبادل النظرات والهمس، عندما مر إلى جوارهم حملق فيه أحدهم باستغراب ما الذي جعلها تختار مكانا كهذا لا يأتي إليه إلا الشباب؟ جلس على المقعد موليا ظهره إليهم ، جاء ليستمتع فما الداعي لأن يفسد على نفسه هذه اللحظات.

رفع قدميه على الحاجز الحديدي، واستغرق في ضوء القمر يصب أشعته الفضية على سطح النيل، الريح يداعب وجهه، ويدفع القوارب المجنحة أمامه، يسمع صوت الأمواج تحتك بجنباتها، كم من المرات جلس هكذا إلى جوار النيل ينتظر " نجوى " حتى تأتي إليه " كم من المرات استغرق في المناظر وسمع الأصوات التي تصل إليه، في تصور اللحظة التي فيها سيشعر بذراعيها وثديها الصلب يضغط عليه، قبل أن تجلس على المقعد أمامه ليرى اللمعة في عينيها، في جسمه رغبة طاغية إليها.

أحس بيد فوق كتفه، بدفئها يتسلل إليه من خلال القميص، التفت... كانت تقف وراءه ترتدي جلبابا داكن اللون مشبوكا بجمالتين عند كتفيها يلف حول جسمها الممشوق الممتلئ شعرها في لون القمح تركته حرا ليبعثره

الريح، حول خصرها حزام مضفور يتدلى عند إحدى ساقيها سألته.

" هل انتظرت كثيرا، تعمدت أن أتأخر عشر دقـائق حتى لا اصل قبلك، لا أحب النظرات التي يرشق بها الرجال المرأة عندما تجلس وحدها في مكان عام " .

قام ليسلم عليها، أحس بيـدها كبيـرة مثـل يـده، تفحص ملامحه كأن فيها ما أثار اهتمامها، جلسـت مثلـه مولية ظهرها إلى الجالسين سألته:

" هل أعجبك المكان؟ "

قال:

إنه جميل لكن ما الذي جعلـك تختاريـنه، الـرواد جميعا من الشباب ولما دخلت نظروا إلي في ضيق كأنه مـا كان لمثلي أن يأتي إليه " .

ضحكت في استرسال:

لماذا تهتم لم ألمح فيهم أحدا يستطيع أن ينافسك " .

اعتدل في جلسته قال:

هذا كلام مضيفة تسعى إلى بث الراحة في مضيفها

"

ليس هذا صحيحا.. في الطائرة كنت أقول كلاما آخر.

انحنت قليلا، وكشفت عن أسنانها في ابتسامة مصطنعة كأنه تقلد حركة المضيفة ثم قالت: " شاي يا سيدي أم قهوة.. دجاج يا سيدي أم لحم.. أرجو يا سيدي أن تربط الحزام.. أعطني هذه الحقيبة حتى أضعها في الخزانة أعلى رأسك..

أشعلت سيجارة بأصابع ترتعش قليلا، وحملقت في مياه النيل تتلألأ فيها الأضواء الملونة للعوامة سألها:

هل ضايقتك في شيء.

قالت:

لا .. أبدا المهم أن المكان مريح، أليس كذلك والجو جميل، عندما أنظر إلى هؤلاء الشباب أتذكر لحظات من السعادة،

أحس بحركة إلى جوارهما فالتفت كان النادل يقف على بعد خطوة مرتديا قميصه الأبيض و " الفيونكة " السوداء... سألها: " ماذا تريدين؟ " .

قالت:

ما رأيك في بيرة مثلجة وبعض " المزات " ؟

"موافق"..

كتب النادل في النوتة، ثم ابتعد قالت:

قبل أن يأخذنا الحديث أريد أن أسألك لماذا تركت الأيام تمر دون أن تتصل بي، ثم تذكرت وجودي اليوم؟

كنت مسافرا خارج القاهرة.

وبعد أن عدت؟

انشغلت بأشياء تراكمت أثناء غيابي، ثم لما وجدت الفرصة اتصلت بك "

أحس بعينيها اللوزيتين تفحصانه.

ردك لم يقنعني.

لماذا؟

كان يمكن أن تكلمني لتوضح ما قلته الآن، أنا تفسير مختلف.

ما هو؟

في البداية ترددت في الاتصال بي ثم أخيرا قررت فلماذا ترددت ولماذا حسمت؟ أريد أن أعرف؟

ما زالت تواجهه بنظراتها الثابتة، عيناها كالقطيفة السوداء تلمعان في الضوء الضعيف، حتى الآن لا يعرف لونهما قال:

إذا كنت تريدين مني الصراحة عديني أنه عندما يأتي دورك ستجيبين علي بنفس الطريقة " ،

أعدك بهذا.

" ترددت لأنك زوجة " نبيل القرنفلي " .

وما المشكلة في ذلك؟ هل تتفادى أن تلتقي مع أي امرأة متزوجة؟

" عادة... إلا إذا كان زوجها على علم بذلك " .

" إذن هذه هي المشكلة.. أتريد مني أن أقول له إننا التقينا " .

ارتبك ظل صامتا كأنه يفكر ثم أجاب:

لا..

" إذن فلأسألك .. هل خطر على بالك أن اتصالي بك معناه أنني أسعى إلى إقامة علاقة خاصة بيني وبينك؟

انشغل بإعادة ترتيب الأطباق الصغيرة على المائدة ثم رفع رأسه إليها، كان وجهها جامدا كالتمثال قال:

ليس السبب الأساسي في ترددي

قالت في صوت هادئ فيه رنة سخرية:

" شكرا أعطيتني نصف الإجابة، أنا منتظرة النصف الآخر " .

" النصف الآخر ه و شخص ية زوج ك " نبي ل القرنفلي " .

لكن أنا لست " نبيل القرنفلي " . أنا اسمي " تيذ ا فاسيلينا بتروفتش "

مع ذلك أنت زوجته.

هذا صحيح.

أسندت ذقنها إلى الحاجز وأخذت تحملق في مي اه النيل ظلت صامتة مدة طويلة ثم قالت:

ما رأيك في أن ننصرف؟ لم تعد ل دي رغب ة ف ي البقاء:

لا يا " نينا " ... أريد أن أبقى معك بعض الوقت.

لماذا؟ ما زلت زوجة " نبيل القرنفلي " بمعنى آخر أنا صائدة رجال.... أو إن أردت الدقة امرأة على المش اع " .

لماذا تقولين هذا الكلام، لم أقصده على الإطلاق.

ما الذي كنت تقصده إذن فأنا التي اتصلت بك، وألححت على إتمام هذا اللقاء، ولا يمكن أن يعني هذا سوى شيء واحد، أنني أريد أن أجرك إلى الفراش " .

علا صوتها فالتفت عدد من الجالسين على بعد خطوات، قال في صوت انخفضت نبراته:

صدقيني لا داعي لهذا الكلام، المسألة ليست لها علاقة بك، أنا أعرف زوجك منذ سنوات، وحدث بيننا ما يدفعني إلى الابتعاد عنه " .

أطلت عليه بوجهها الأبيض كالرخام، سمعها تقول:

لماذا إذن قبلت أن تلبي دعوته على العشاء؟

دار بعينه حول المكان كأنه يبحث عن مخرج يلجأ إليه.

قال:

" سيجيء الوقت الذي أستطيع فيه أن أوضح لك هذه المسائل لكن ليس الآن " .

انتفض لهب الغضب في عينيها:

أنت لا تثق في أليس كذلك؟ في رأيك أنا و " نبيل القرنفلي " شيء واحد.. لماذا جئت إلى هذا اللقاء؟ من باب التسلية مع امرأة ربما خففت عنك الأحزان، أم بحثا عن جسم تحتضنه في الفراش وتدفن فيه قلقك الدائم، إنكم معشر الرجال لا تختلفون ... لا شيء يهمكم في المرأة إلا الصعود فوقها بوسيلة ما " .

فوجئ بانفجارها الغاضب... ما الذي يمكن أن يفعله الآن؟ أن ينصرف ويتركها وراءه؟ أن يبقى ليواصل الحوار؟ يشعر أنه مشلول؟ فهي امرأة غريبة يمكن أن يفلت زمامها في تلك الليلة عندما كانت في بيتها كادت أن تنفجر كما انفجرت الآن.. لو توقع كل هذا لما جاء... ليس من حقها أن تخاطبه بهذا الأسلوب الخالي من الاحترام.. إنها لا تعرف قيمته بين الرجال.

قالت كأنها قرأت أفكاره:

" الآن أصبحت نادما على المجيء .. كيف يحق لي أن أقول مثل هذا الكلام؟ أتريد أن تعرف لماذا قلته؟ ليلة أن كننت في بيتنا فوجئت بموقفك، أحسست أنك مختلف عن الخنازير الذين يصعدون على جثث النساء، أعدي إلى أياما

كان فيها أمل وبريق، ظننت أنني وجدت شخصا يمكـ ـن أن يصبح صديقا في هذه الصحراء المجدبة التي نسميها الحياة " .

لمح أصابعها ترتعش وهي تحاول إشعال سيجارتها.

وضع كفيه حول اللهب حتى يحميـ ـه مـ ـن الـ ـريح فتلامست أصابعهما كانت أصابعها باردة كالثلج قال:

" أنا آسف.. لم يكن في نيتي أن أسـ ـبب لـ ـك أي ضيق، دعيني أشرح لك الموضوع " .

أسندت وجهها على يدها أحـ ـس أن تبـ ـذل جهـ ـدا للتمالك مدت يدها إلى كوب من الماء، وابتلعته عن آخـ ـره، همست.

أنا أسمعك.

قال:

عندما جئت إلى بيتكم في تلك الليلة لم أكن أعـ ـرف أنني التقيت " بنبيل القرنفلي " قبل ذلك فقد مر على هـ ـذا اللقاء ما يقرب من ثلاثين سنة، لذلك لما رأيته فـ ـي الإدارة لم أتعرف عليه، .. ولما جئت إلى بيتكم في تلك الليلة حدث نفس الشيء لكن عندما قررت أن أنصـ ـرف ذهبـ ـت إليـ ـه

لأعتذر كان واقفا مع أحد الضيوف عند بداية البوفيه، وفي تلك اللحظة عندما مددت يدي إليه، ونظرت في وجهه مليـا أدركت أن " نبيل القرنفلي " ليس غريبا علي، إنني رأيته في ظروف تركت بصمات لا يمكن أن أنساها " .

سألت:

هل تتذكر أين التقيت به؟

قال:

في السجن.

هتفت:

في السجن؟

نعم في السجن كنت متهما في قضية سياسية وكان هو الضابط الذي أشرف على عمليات التعذيب وكانـت لـه صلة بإدارة الأمن العام " .

أخذت نفسا عميقا، بحثت بيدها عن كوب من الماء فاصطدمت الكوب الذي أفرغته.. صب لها من زجاجة المياه المعدنية.. ارتشفت نصفها ثم نحته جانبا، أخرجت منديلا من الورق ومسحت بها على جبينها ثم وضعته تحت أحد الأطباق قالت:

أريد أن أنصرف..

قال:

" لا امكثي قليلا، أريد أن أتحدث إليك " .

لا.. ليس الآن، ربما في مرة قادمة.

لمح طبقة شفافة لامعة فوق عينيها، أخرجت منديلا ثانيا ومسحت به على وجهها ثم ألقت به إلى المياه من فوق الحاجز " .

سألته:

هل يمكن أن تصطحبني حتى السيارة؟.

قال:

" طبعا " .

أشار إلى النادل ليدفع الحساب، ثم سار معها، أمسك بيديها وهما يهبطان على الدرجات ثم يصعدان فوقها ليخرجا إلى الشارع.

جلست خلف عجلة القيادة صامتة، قال:

سأتصل بك.

ألقت إليه بابتسامة واهنة، أدارت المحرك، وانطلقت فجأة بالسيارة، سمع صفير العجلات فوق أسفلت الشارع،

ظل يحملق في المساحة الفارغة التي تركتها السـ يارة ثـ م استدار وسار شاقا طريقه وسط أفواج النـ ـاس، وعربـ ـات الترمس والحمص والفول السوداني زحفت علـ ـى رصـ يف الشاطئ.

(١٣)

زحفت أشعة رفيعة من الشمس فوق المنضدة التي جلس إليها ليتناول إفطاره، رفع رأسه ونظر من النافذة فتحها الشغال ليدخل فيها هواء الصباح، على الجانب الآخر من الشارع أعلى " السوبر ماركت " ارتفعت عمارة كالحة اختفى لونها الوردي تحت طبقة من الدخان، والتراب.. على شرفاتها الضيقة تدلت اللافتات: الدكتور عبد الله الطرشوبي معمل تحليل أمراض الحيوانات الأليفة، المركز التخصصي لأمراض النساء والولادة والعقم، والعجز الجنسي، الشركة السويسرية لمواد البناء الحديثة والي جوارها اتحاد صرافة المدينة المنورة.

صعد إليه هدير الشارع، قام وأغلق ضلفتي الزجاج فأحس بالراحة، تطلع من النافذة لحظة، ثم عاد إلى المنضدة.

ابتلع ملعقة من البيض المسلوق، وامسك بجريدة الصباح " المحكمة الدستورية تصدر حكما هاما حول ممارسة الحقوق السياسية، وقانون الانتخاب " ، بطلان انتخابات مجلس الشعب لا يمس القوانين الصادرة عنه،

الرئيس يعقد اجتماعا عاجلا لبحث الأوضاع الناجمة عن الحكم " كامب دافيد الثانية... إسرائيل تسلح مستوطناتها " الرئيس يوزع جوائز البحث العلمي في احتفال ضخم " فتح الجريدة ليقرأ تفاصيل الحفل في الداخل.. من بين الفائزين لمح صورة "الدكتور أمين الصيرفي" و "الدكتور عبد الفتاح عبود" جنبا إلى جنب، قرأ الكلام المكتوب تحتهما " الدكتور أمين الصيرفي" نائب رئيس المجلس الأعلى للبحث العلمي... الباحث الكبير في علوم الكيمياء الفيزيقية ولد سنة ١٩٤٢ في كفر صقر محافظة الشرقية، حاصل على الدكتوراه في الكيمياء من جامعة ايدينبور باسكتلندا عضو اللجنة التنفيذية لحزب الوفاق الديمقراطي منح جائزة الجمهورية الكبرى من الدرجة الأولى عن مجمل أعماله، واكتشافاته الهامة في علم الكيمياء.... رئيس المجلس الأعلى للبحث العلمي يقول إن هذه سابقة تدل على أنه في مصر اليوم، وفي ظل الروح القومية والديمقراطية التي تحرص عليها الدولة، وتؤكدها باستمرار تقدر كل الجهود المخلصة بصرف النظر عن الانتماءات السياسية لأصحابها.

فمن المعروف أن الباحث الكبير، ورجل العلم الفذ " الدكتور أمين الصيرفي " هو أيضا أحد القادة البارزين في حزب المعارضة اليسارية، ومع ذلك لم يحل هذا دون منحه جائزة الجمهورية الكبرى من الدرجة الأولى التي حجبت في السنة الماضية عن المتقدمين لها... ففي هذا العهد تف تح لكل المواطنين فرص متساوية حتى وإن كانوا ممن ينتقدون بعض الأوضاع في البلاد طالما أن نقدمهم بناء، ولا يم س القيم والتقاليد السائدة في بلادن ا، ولا ين ال م ن النظ ام الاجتماعي الذي حقق لنا الازده ار، والاس تقرار وال ذي ارتضيناه كشعب واع لا يفرط في مص الحه مهم ا ح اول وبعض المغرضين أن يبلبلوا أفكاره.

حملق في الوجه المنكمش والعين ين الص غيرتين تطلان من خلاف الزجاج الكبير للنظارة، ارتشف جرعة من الشاي وانتقل يقرأ ما كتب عن الدكتور " عبد الفتاح عبود " ، الباحث المرموق في مركز الأبحاث الكيماوي ة، يعم ل منسقا لفريق من البحث أوكلت إليه دراسة هامة يتوق ع أن يؤدي النجاح في إتمامها إلى وضع مصر في مصاف البلاد العريقة الناهضة بسرعة، والتي ينفتح مستقبلها عن آفاق

عالمية لا حدود لها لتلحق بركب العولمة العصرية، لذلك منح " الدكتور عبد الفتاح عبود " جائزة الجمهورية الكبرى من الدرجة الثانية مقابل نشاطه العلمي البارز، وجهوده المتواصلة في تكوين أجيال من شباب الباحثين الذي سيلعبون دورا هاما في إعادة هيكلة الاقتصاد وتنميته وفقا لمقتضيات التقدم العلمي المتسارع في هذا العصر.

في التحقيق الذي أجراه " هيثم اللاوندي " المحرر العلمي للجريدة، وردت التصريحات التي أدلي بها عدد من الفائزين من بينهم " الدكتور أمين الصيرفي " الذي عبر عن امتنانه لقيادة البلاد التي تحرص على تشجيع كل منتج، ومبدع، ومفكر يساهم في البناء، أشار إلى أن البحث العمل في بلادنا رغم الإنجازات الكبيرة التي حققها في مختلف المجالات نتيجة السياسات المنفتحة للعهد الحالي ما زال يعاني من مشاكل هامة لا مجال لتعدادها.

لكنه يود أن يذكر منها افتقاد الكثير من البحوث إلى الموقف المستقل الذي يخدم النهضة القومية للبلاد، ويساعدها على مواجهة غزو العولمة، وآثارها الضارة فمن الملاحظ أن أعدادا كبيرة من الباحثين العلميين

انخرطوا في بحوث بالتعاون مع هيئات أجنبية، وبتمويل منها مما يتعارض في أغلب الأحيان مع قومية الأبحاث، فالهيئات الأجنبية هذه لن تكون حريصة على مصالحنا قدر حرصنا نحن عليها، ولن تنظر إلى احتياجاتنا من الزوايا التي ننظر نحن إليها، وهذا لا يعني بالطبع رفض هذه المشاركة الأجنبية، وإنما يعني ضرورة التسلح بحب مصر، وبالروح القومية الأصلية النابعة من تراثنا التي تظل يقظة لأي شيء يمكن أن يضر بمصالحنا .. و أخيرا عبر عن امتنانه مرة أخرى إزاء التقدير الذي لاقاه من أعلى القيادات السياسية والعلمية ومن زملائه مما يدفعه إلى بذل السنين الباقية من عمره في خدمة العلم والوطن الذي كرمه.

أما الدكتور " عبد الفتاح عبود " فكانت وجهة نظره أن عصر العولمة يتطلب منا ألا ننعزل، وإن تقبل التحدي دون خوف، فالعلم والتكنولوجيا هما المستقبل، ولظروف خارجة عن إرادتنا تخلفنا عن هذه المجالات، وتزايدت الهوة التي تفصل بيننا، وبين البلاد التي أحرزت تقدما كبيرا بفضل البحث العلمي المستمر، ولا سبيل إلى اللحاق بالركب إلا بالتعاون الوثيق مع الجهات التي تملك

المعرفة والإمكانيات والتي لا غني عنها لإجراء البحوث المرتبطة بمشاكلنا، لذلك فهو لا يرتاح كثيرا إلى استخدام كلمة " استقلال " عند الحديث عن البحث العلمي، فهو شعار عفا عليه الزمن، وتعبير عن الجمود في الفكر الذي يأبى التطور مع مقتضيات العصر، علينا أنت نتفتح، ونتفتح ، ونتفتح دون تردد لتشهد مصر تقدما مضطردا في ظل قيادتها الحكيمة التي علمتنا كيف نواجه التحديات، ونقتحمها ثم شكر رئيس البلاد والمجلس الأعلى للبحث العلمي على اللفتة الكريمة التي وجهت إلى رجل بسيط مثله، يستمد قوته من إيمانه العميق بالله سبحانه وتعالي الذي لا ينسي عباده المخلصين لدينهم، والذي يرعى المسلمين جميعا لأنهم خير أمة خلقها في الأرض.

بحث في درج المكتب عن مقص، وزجاجة من الصمغ، اقتطع أجزاء الجريدة الخاصة بجوائز الكيمياء وألصقها على فروخ من الورق الأبيض ثم ثقبها و وضعها في ملف كتب عليه.. " أخبار الكيمياء مقتطفات سنة ٢٠٠٠، ملف رقم ١، في الفهرست عند أول الملف كتب ١٦ – جوائز الكيمياء عن سنة ١٩٩٩ يوليو ٢٠٠٠.

كان يضبط شفرة الحقيبة الجديدة ليضع فيها أوراقه عندما لمح الشغال منتصبا عند الباب كأنه يريد أن يطلب منه شيئا.. لاحظ أنه ، ترك الشعيرات تنمو على وجهه، وأن ملامحه بدت متعبة كأنه يعاني سأله:

" مالك يا محمود " هل أصابتك وعكة أم ماذا؟

ظل صامتا لا ينطق فاندهش ، صحيح أنه تعود على صمته طوال السنوات التي عمل فهيا عنده، لكن عندما كان يوجه إليه سؤالا كان يرد على الفور.. كان مثال الشغال المتقن لعمله، المؤدب، يدخل إلى الشقة في بداية النهار ويقوم بكل المهام المطلوبة منه بهدوء ونظام، يكوي ويغسل، ويطبخ وينظف الحجرات، ويرتب الملابس، ويشتري له ما يحتاج إليه من طعام، لم يغب أبدا إلا بإذن أو في الإجازات، يعرف أنه متزوج وله ثلاثة أطفال.

أدرك فجأة انه لا يعرف عنه أكثر من ذلك، لم ير أولاده أبدا ولم يسأله عن أحواله، أو أحوالهم رغم أنه يراه كل يوم.

ورغم أن الرجل قام على خدمته خيرا قيام وجنبه الانشغال بتفاصيل الحياة، أصبح وجوده بالنسبة إليه مسألة

مفروغ منها لا يحتاج إلى اهتمام خاص، حملق في ملامحه النحيلة القمحية اللون، في نبت الشعيرات على وجهه كأنـ ـه يكتشف وجوده لأول مرة قال:

" يا محمود " لماذا أنت صامت؟

تردد لحظة طويلة ثم كأنه اختزن أشياء في صد ـدره مدة طويلة اندفع منه الكلام.

" لا بأس.. من حقك إن كنت متعبا أن تأخذ إجازة، متى تريد أن تسافر؟

قال:

باكر.

نظر إليه في شيء من الغضب وقال:

باكر؟ هكذا دون إنذار تريد أن تسافر قبل أن أرتـ ـب نفسي " .

بدا على وجهه ما يشبه الجمود كأنه قرر شـ ـيئا ولا يريد أن يناقشه في الأمر.

" أنا خدمتك يا دكتور طوال هذه السـ ـنين، وربنـ ـا يعلم لم أقصر في شيء " .

أعرف هذا يا " محمود " لكن كيف تسـ ـافر هكـ ـذا فجأة لماذا لم تقل لي شيئا من قبل؟

تعبت

منذ متى؟

منذ بداية الأسبوع إن مت أريـ ـد أن أمـ ـوت وسـ ـط أهلي؟

إن مت؟ وما الذي يجعلك تفكر في الموت؟.. لماذا لا نعرضك على طبيب، أو تأخـ ـذ الراحـ ـة التـ ـي تريـ ـدها ... أسبوعين أو ثلاثة ثم تعود " .

لا أحتاج إلى طبيب الأعمار بيـ ـد الله، ولا أريـ ـد أن أعود.... قررت أن أبقى هناك، وعليك أن تبحث عن غيري ليحل محلي " .

حملق في وجهه لاحظ أن عينيه تحيطمها رمـ ـوش طويلة وأن نظرته فيها شيء أنثوي فأدرك أنه لم ينظر في وجهه قبل اليوم، كيف عاش الرجل إلـ ـى جـ ـواره طـ ـوال السنين دون أن يلتفت إليه، كأنه كان بالنسبة إليه مثل قطعة أثاث... منضدة، أو مقعد، أو شماعة يعلق عليهـ ـا قمـ ـيص النوم، أحس بالغربة عن نفسه، قال:

" يا محمود " هل أنت غاضب؟ هل أسأت إليك في شيء؟ "

قال:

" لا.. أبدا يا دكتور، أنت لم ترفض لي طلب والحمد لله فهي مستورة، الشيء الوحيد الذي أحزنني هو الانفصال الذي حدث بينك وبين الدكتورة... كان وجودها في البيت راحة لنا، وكانت تسألني دائما عن أحوالي، وتتحدث معي عن مستقبل أولادي، أحيانا كانت تزورنا في البيت، بل ما زالت تأتي كل حين... وفي العيد الكبير زرناها أنا وزوجتي.

لم تقل لي شيئا عن هذا؟

ظل صامتا فسأله:

أهذا هو السبب؟

قال:

لا يا دكتور.. لو كان هناك أي شيء لقلته لك.

إذن لماذا لا تبقى يا " محمود " .

لمح دمعة وحيدة في عينه مسحها بسرعة ثم عاد إلى وجهه القناع، أطلت من عينيه نظرة فيها توجس قال:

لا أستطيع... لا أستطيع.. الموت أصبح قريبا، ولا بد أن أعود إلى أهلي " .

قال في نفاد صبر:

هذا الكلام غير معقول.. سأبحث لك عن طبيب أو آخذك إلى إحدى المستشفيات إنها حالة نفسية ستزول " .

حملق في الوجه أغلق نفسه تماما.. أحس باليأس... هؤلاء الناس لا يمكن فهم ما يدور في أذهانهم يتصرفون بلا منطق... بينه وبين هذا الرجل هوة لا يستطيع أن يجتازها.. ربما لم يحاول قال:

" يا محمود " لن أضغط عليك أكثر من ذلك، ولو أنه كان من الواجب أن تخطرني، أشعر كأنك تخليت عني " .

حملق في الجدار كأنه يتفادى نظراته، فنظر إلى ساعته وسأله:

متى ستسافر؟

قال:

باكر.

إذن سأترك لك الراتب على المنضدة في الصد الة، ومعه مكافأة عن السنوات التي عملت معي فيها.. لكن عليك أن تحضر بعد الظهر لتتسلمها فليس معي نقود الآن.. " .

طفرت من عينه دمعه ثم تمالك.. قال:

" يا دكتور... ربنا يجازيك كل خير، ويحميك مـ ن أذى الناس "

ثم استدار وانسحب إلى المطبخ، وبعد قلي ل سـ مع صوت الأطباق التي أخذ يغسلها في الحوض.

قاد سيارته خلال الشوارع سارحا فيمـ ا دار بينـ ه وبين الرجل، أحس بالقلق، فموقفه غير مفهوم، ثم ليس من السهل أن يجد شخصا يستطيع أن يحل محله، كان يأتمنـ ه على كل شيء... وهو مشغول بأشياء كثيرة تحول دون أن يتابع ما يحدث عنده في البيت... على أية حال... ليسـ ت معضلة... حياته وشقته بسيطة.. سيجد من يسـ هر عل ى راحته إذا أعطاه مرتبا مجزيا.. لكن كل هذا جاء في وقـ ت غير مناسب، اليوم سيبدأ أولي الخط وات التنفيذيـ ة فـ ي المرحلة الثانية للبحث.... المتعلقة بأثر الضغط الجوي على

التحام الذرات.. سيراجع البريد بسرعة ثم يذهب إلى صالة الاختبارات حيث ينتظرونه.

جل أمام الكمبيوتر ليفحص البريد الإلكتروني الـ ذي وصل إليه، آخر رسالة من " الاينبوكس " كانـ ـت مـ ـن " أسعد خالدون " قال فيها إنه فوجئ بانصرافه مبكـ ـرا مـ ـن حفلة العشاء في بيت " نبيل القرنفلي " فلـ ـم تـ ـتح لهمـ ـا فرصة للحديث بعد السنوات التي فرقت بينهما.. سأله عن أحوال الدكتورة " نجوى " وأحواله وختم الرسالة بالتعبير عن سعادته للجوائز التي نالها " الدكتور أمين الصـ ـيرفي " و " الدكتور عبد الفتاح عبود " ، لذلك قرر أن يقيم احتفالا تكريما لهما في اليوم الذي سيفتتح فيه المبني الجديد لمركز دراسات تاريخ الشرق الأوسط (مدتشا) ويريد أن يدعوه هو و " الدكتورة نجوى " لحضوره، أضاف أن إلى الـ ـدعوتين ستصلان إليه اليوم في الصباح.

في فسحة الظهر وهـ ـو يتنـ ـاول وجبتـ ـه الخفيفـ ـة المعتادة سمع نقرا على الباب... دخل عليه شـ ـاب يحمـ ـل خوذة ملونة تحت إبطه وحقيبة رفيعة أخرج منها مظروفين سلمهما له وطلب منه التوقيع على السركي أمام اسمه وقرأ

بطاقة الدعوة ثم وضعها في درج المكتب وسجل تاريخها في الأجندة الموضوعة على مكتبه، أمسك بالمظروف الآخر وسرح، ماذا سيفعل به؟ إلى متى سيظل يخفي عن الناس حقيقة ما حدث بينها وبينه؟ في لحظات يراوده الأمل في أنها ستتراجع عن موقفها.. رغم مرور الوقت شوقه إليها لم يضعف، لكن من يعلم ربما تجد من يملأ الفراغ الذي تركه إن كان قد ترك فراغا؟ ما زالت في مقتبل العمر امرأة جميلة وناضجة يحيط بها المعجبون، إنه يشتاق إلى رؤيتها، إلى التحدث إليها، ومعرفة أخبارها، في لحظات يتمنى أن تمرض فتحتاج إليه .. مرضا خفيفا بالطبع، ثم يراجع نفسه على دناءة أحاسيسه.

لماذا لا يتصل بها أو على الأقل يرسل هذه الدعوة إليها ليجس نبضها؟ ربما رحبت به وردت عليه، وإن لم ترد سيتأكد من موقفها بدلا من أن يظل متأرجحا على هذا النحو، منشغلا بتكنهات لا طائل من ورائها، كانت ترتاح إلى " إسماعيل أبو سمرة " وتصطحبه في بعض زياراتها إليه... ربما تكون قد اتصلت به خصوصا بعد المرض الذي أصابه فيعرف منه بعض أخبارها.. مرت أسابيع دون أن

يسأل عنه وليخبره بما فعله بعد المناقشة التي دارت بينهما حول موضوع البحث، لا بد أنه أحس بشيء من المرارة لهذا الإهمال خصوصا مع الحالة التي يعاني منها إنه يلوم الآخرين عندما ينشغلون بأنفسهم إلى درجة نسيان أقرب الناس إليهم، وها هو يفعل نفسي الشيء، ألم يكفه ما حدث مع " محمود " الشغال؟

جاءه صوت " إسماعيل " غابت عنه رنين الفرحة التي اعتادها:

" أهذا كلام يا رجل؟ مرت أسابيع، ولم تسأل عني، ثم هل نسيت أنك عضو في مجلس إدارة اتحاد المعاقين، أرسلت إليك دعوة لتحضر اجتماع المجلس، ولم تضر أو تتصل بي.. كيف؟ لم تصلك الدعوة؟ أرسلتها إليك على عنوان العمل. نعم... ٢٩ شارع أحمد شوقي المتفرع من كورنيش النيل، هذا ليس الخطاب الوحيد الذي لم يصل إليك في هذه الفترة؟ غريبة خطاب آخر من مدير البنك يطلب منك المرور عليه؟ من أين تتكلم الآن؟ من المعمل... مر علي الليلة، سأكون في البيت بعد العاشرة مساء.. يمكن أن نخرج قليلا في الهواء الطلق.. على فكرة أصبح عندي

محمول .. خـ ذ رقمـ ـه ٠١٠١٥٦٧٢٩ إنـ ـه مفيـ ـد فـ ـي الطوارئ، لماذا لا تحصل على واحد لك؟. قد ينفعك.. علـ ـى أية حال، أنا منتظرك الليلة " .

عندما وصلا إلى " الكازينو " جلس على المنضدة، يرتشف من الشاي ويسحب أنفاسا من الشيشة.. بين الحين والآخر يتطلع إلى النيل كأنه يتتبع سريانه، أو يرح معـ ـه، كان يرتدي جلبابا من القطن يخفي ساقيه، بدا وجهه مرهقا وحول مقلتيه لاحظ دائرتين رماديتي اللون لم يرهمـ ـا مـ ـن قبل... سأله عن صحته فقال:

" لا بأس، أنا متعب إلى حد ما ، أعمل ، وأتحـ ـرك كثيرا وهذا أحيانا يرهقني.. لكن.. هز كتفيـ ـه " لا بـ ـد أن انغمس في شيء.. ما أخبارك أنت و " نجوى " ؟.

" أخباري أنا و " نجوى " جيدة.

حملق في وجهه بنظرة فيها شك.. ثم ابتسم إليه في ود فأضاءت عيناه.

" يا يوسف... منذ متى تعودت أن تخفي الأشـ ـياء عني؟

أنا لا أخفي عنك شيئا.

زم شفتيه في صمت ثم قال:

" أنت حر.. ولكني سمعت أنه حدث بينك وبـ ين " نجوى " خصام، وأنكما منذ شهور لا تعيشان سويا. إنكمـ ـا اتفقتما على الانفصال لمدة إلى أن يتقرر بينكما شيء نهائي " .

من قال لك هذا؟

" نجوى " زارتني منذ أسبوع وحكت لي.

ارتبك .. مسح بيده على رأسه، وصمت... أحـ ـس أنه يريد أن يبكي، كتم دموعه، وتمالك.... مـ ـن الشـ ـاطئ الآخر جاءه صوت عود منفرد يرتفع في الليل. لماذا أخفـ ـي عليه ما حدث؟ لماذا يكتم الأشياء في نفسه؟ حملق في وجه " إسماعيل " ثم سأله:

" ألم تقل لك لماذا انفصلنا؟ " .

" لا.. قالت فقط أن هناك مشكلة في علاقتكما لكنها أبت أن تفصح عنها " .

ربما تريد طفلا.

" لا سألتها مرارا... قالت أنها مشغولة بمـ ـا هـ ـو أهم، أحيانا أشعر أنها أقوى من اللازم.

" وأنت تريد امرأة أضعف منك؟ " .

ظل صامتا ثم قال فجأة كأنه قرر أن يطلق لسانه:

" لم أعد قادرا على ممارسة الجنس معها، لا أعرف ما الذي جرى " .

نظر إليه في اندهاش ثم انفجر ضاحكا:

" وما الغريب في ذلك؟ لا أقابل صديقا هذه الأيام إلا وشكا أنه مصاب ب العجز.. مع ذلك لا يكف الرجال عن الحديث عن غزواتهم النسائية.. الإنسان يتحدث كثيرا عما ينقصه، يا رجل لست وحدك، إنها مشكلة مصر كلها، ألم يقل " رختر " أن القهر السياسي والجنسي متلازمان؟

" اسمه " رايخ " يا إسماعيل، " رختر " هو عالم الزلازل "

قال إسماعيل:

أتعرف ما هي مشكلتك؟

لا.

" الفلسفة.. الفلسفة تصيب الرجل بالعجز.

ارتفعت ضحكاتهما فـ ـي رنـ ـين متصـ ـل.. فالتفـ ـت الجالسون على المناضد المجاورة إليها. توقف " إسماعيل " فجأة وسأله في جدية:

لكن أهذا سبب كاف للانفصال؟ ربما هنـ ـاك شـ ـيء آخر.

هذا ما فهمته منها.

لكن الزواج يتحول في النهاية إلى صداقة.. ومشاكل مثل هذه يمكن أن تحل.. صم الصداقة هي الأبقى..

لا تنس أنها أصغر مني بخمسة عشر عاما "

سأقول لك شيئا قد يؤلمك يا " يوسـ ـف " صـ ـمت طويلا ومد يده إلى كتفه قبل أن يضـ ـيف " ربمـ ـا أحبـ ـت غيرك، ألم يخطر هذا على بالك " .

خطر.

إن صح هذا ماذا ستفعل؟

لا شيء.. ماذا أستطيع أن أفعل؟ لـ ـن أقـ ـف فـ ـي طريقها إذا طلبت الطلاق.

ضغط على كتفه وقال:

أنت إنسان ظريف " يا يوسف " ... عيب لك انك منطو على نفسك وربما لعب هذا دورا.. الشباب يتطلب الانطلاق.. ما علينا أريد أن أسألك عن شيء آخر ربما يكون أهم ... ما هي حكاية الخطابات التي لم تصل إليك " .

" كما قلت لك في التليفون إنهما خطابان بالتحديد، على الأقل في حدود ما أعرفه.. دعوتك لحضور اجتماع مجلس إدارة اتحاد المعاقين، وخطاب آخر من البنك يطلب مني المرور على المدير، إنه معرفة قديمة.

" ما الذي يريده منك " .

دفع إيجار الخزانة التي وضعت فيها أوراق البحث..

" .

وكيف علمت بهذا طالما أن الخطاب لم يصلك...؟

بالصدفة كنت في البنك ومررت على المدير لأسلم عليه، كانت أمامه ورقة تقول إن البنك أرسل إلي خطابا لتسديد الإيجار وأنه مر أسبوعان دون أن ادفع أو أرد عليهم، أعطاني صورة من الخطاب فاتضح انه أرسل بعلم وصول، وأن علم الوصول كان موقعا عليه باسمي.

وماذا فعلت بعد ذلك..؟

لا شيء

تدفقت الدماء إلى وجهه الشاحب ، صد مت لحظ ـة طويلة كأنه يحاول إعادة السيطرة على نفسه، قال:

لا أعرف كيف دخلت السياسة، ولا كيف أفلتت منها دون أن تقضي عليك الكوارث، لا بد أن فيـ ك شد يء لله.. فأنت لا تصلح لها إطلاقا.. خطاب بعلـ م وصـ ول خـ اص بخزانة البنك التي وضعت فيها أوراق البحث و قـ ع عليـ ه شخص لا تعرفه، ولا تفعل شيئا.؟

ماذا أفعل؟

منذ باكر صباحا ستذهب إلى البنك لتتسلم أوراقـ ك وتنقلها إلى خزانة في بنك آخر.. ما اسم البنك الذي أودعت فيه أوراقك؟

البنك العالمي للتجارة والائتمان فرع محيي الدين أو العز " .

هل له أكثر من باب؟

لا أعرف.

سحب نفسا طويلا من الشيشة، مر بأصـ ابعه فـ ي ثنايا الشعر الأكرت الخفيف الذي يغطي رأسه وهرش كأنـ ه

يفكر.. أخرج " نوتة " من جيب داخلي وأخذ يبحـ ـث فـ ـي صفحاته ثم أخرج المحمول من كيسه وطلب رقمـ ـا سـ ـمعه يقول:

" يا حسام " أنا " إسماعيل " كيف أحوالك... أنا بخير.. مشغول هذه الأيام بالاتحاد.. لكن سأمر عليك قريبا، أين أنت الآن؟ في البيت؟ .. أريد أن أسألك سؤالا بسـ ـرعة البنك العالمي للتجارة والائتمان فرع محي الدين أبو العز كم عدد مداخله؟ لماذا أسأل؟ قررت أن أسرق البنك وأريد أن تساعدني " ضحك.. لا ... لا معلومة مهمة بالنسبة إلي... أحتاج إلى بنك ليس فيه مشكلة ركن، فأنت عارف التنقـ ـل بالنسبة إلى أصبح مشكلة.. هناك حارة خلفية هادئة يمكـ ـن الدخول منها يستخدمها كبار القوم... جميل .. أشـ ـكرك.... لا .. لا .. سأتصل بك بعد أيام.. لماذا لا تأتي معـ ـي إلـ ـى المزرعة، عندي أحسن عنب بناتي ومانجة فـ ـي القطـ ـر.. العنب جاهز لكن المانجة باقي عليها شـ ـهر.. سـ ـلم علـ ـى الزوجة العزيزة؟

أغلق المحمول وأعاده إلى الكيس ثم التفت إليه:

ستذهب إلى البنك وتدخل من الباب الرئيسي لتتسلم أوراقك، أما في الخارج فاستخدم الباب الخلفي الذي يط ل على حارة خلفية حتى لا يراك أحد وأنت تخرج منه.. ولكن قبل أن تتنقل أوراقك اتفق مع البنك الذي سـ تذهب إلي ـه.. مالك تبدو مهموما؟ لن يحدث شيء... مشكلة " نجـ ـوى " سيحلها الزمن.. ثم يا أخي اعتبر نفسك على المعاش وانس الحب؟

ليس هذا ما يشغلني الآن يا " إسماعيل " سـ ـرقت حقيبتي من المكتب منذ أسبوع تقريبا و و ... اليـ ـوم فـ ـي الصباح ابلغني الشغال " محمود " بأنه يريد أن يترك العمل ويذهب إلى بلدته، يقول إنه عنده إحساس بأنـ ـه سـ يموت، ويريد أن يموت بين أهله.

عرضت عليه أن أبحث له عن طبيب أو أدخله فـ ـي المستشفى فرفض وأصر على السفر باكرا صباحا " .

أصبحت عيناه كالخط الأسود بين جفونه... قال:

واحدة.. واحدة، الحقيبة كان فيها شيء؟

لا أبدا.

فيمن تشك؟

الأغلب أنه أحد الفراشين ... لكن لا بد أن هناك من يقف وراءه فالجميع يعرفون أنني لا أضع فيها نقودا أو أشياء ذات قيمة في نهاية الشهر الماضي عندما عدت من الساحل الشمالي حذرني فراش الإدارة " عم سليمان " بطريقة غامضة، قال إن هناك من طلب منه أن يفعل شيئا لا يرضى أن يقدم عليه، لكنه لم يصرح من هو وما الذي طلب منه، كان الخوف باديا عليه.. فربطت بين هذا وبين ضياع الحقيبة من مكتبي في المعمل...

من تظن أنه وراء هذا الحادث.. رئيس المركز؟

لا

أحد زملائك إذن؟

ربما.. لكني لا أعتقد أن أحدا منهم يجرؤ على هذه المخاطرة رغم أني لا أثق فيهم.

من إذن؟

هز كتفيه..

لا أعرف..

سأله:

هل ربطت بين سرقة الحقيبة وبين سفر " محمود " الشغال المفاجئ؟

لا.

ولماذا لم تربط... السرقة قام بها في أغلب الظ ن فراش ثم الشغال في بيتك يعبر فجأة عن رغبته في ترك ك بعد سنوات من الخدمة لم يحدث أثناءها شد يء.. وف راش آخر يحاول تحذيرك من محاولات بذلت معه لدفعه إلى عمل شيء رفض الإقدام عليه.. ماذا تنتظر أكثر من ذلك؟ الشغال " محمود " تعرض في الأغلب إلى محد اولات م ن نف س القبيل..

أحس بأصابع باردة تتسلل إلى قلبه وتضغط علي ه، حملق " إسماعيل " في وجهه:

" الخوف لا يحل شيئا.. ينفع كتنبيه لكن يج ب أن تتخطاه إلى تدبير وقائي... إنهم لن يكونوا أذكى منا؟

من هم؟

الذين يريدون أن يسلبوك ما بذلت حياتك في ه.. لا يكفون عن محاولتهم أبدا.. لا يكفون عن سد رقة أحلامذ ا، لكننا لن نتوقف عن السعي إليها..

أزاح الشيشة على جانب وسأله:

تشرب بيرة؟

قال:

إن شربت معي.

توقفت عن شربها لكن لأجل خاطرك سأقتسم زجاجة " سقارة " مثلجة معك، وسأطلب معها طبقا من الجمبري الصغير.. احك لي يا " يوسف " ما الذي تكتبه الآن؟

لا شيء... أنا متوقف تماما... الكتابة تحتاج إلى صفاء الذهن، والاستقرار، وأنا مفتقد الاثنين..

كل ما يحدث لك الآن ستصبه على الورق عندما يجيء الأوان..

تأمل الهلال الرفيع المحلق في السماء.. أخذ نفسا عميقا ثم التفت إليه..

" اتصل بنجوى " ... لا تنظر إلي هكذا.. اتصل " بنجوى " واطلب منها أن تأخذ الأوراق التي ما زلت تخفيها في بيتك وأن تخفيها بمعرفتها في مكان بعيد..

لا أستطيع.

لماذا .. كرامتك لا تسـ ـمح أم مـ ـاذا؟ .. سـ ـترحب بمساعدتك وهي إنسانة يعتمد عليها.

الأوراق موجودة عندي في خزانة سرية.

سرية أم علنية انقلها من بيتك.. إنهم مدوا أصابعهم للشغال الذي يشاركك البيت.

محمود؟

" نعم محمـ ـود " وبعـ ـد أن ذهـ ـب " محمـ ـود " سيبحثون عن وسيلة أخرى.. فبادر أنت وانقلها من البيت، سأرسل إليك احد المعاقين ليعمل عندك... لن تسمع صـ ـوته لأنه أخرس... لكنه يجيد القراءة والكتابة ويمكن أن تتفاهم معه على الأوراق وهذه طريقة مثلى بالنسـ ـبة إلـ ـى كاتـ ـب مثلك... بالإضافة هو مـ ـدرب علـ ـى حمـ ـل السـ ـلاح، و " الكاراتيه " .

صعدت ضحكاته في الليل فالتفت إليهما العاشـ ـقون الجالسون في الحديثة.. رفع يده بكوب البيرة والتفت إليهم قال في صوت عال:

" اشرب للحب والشباب.. واشرب لصـ ـحتنا نحـ ـن الاثنين.. لا تحمل إليهم يا " يوسف " أنت محظوظ.. لكـ ـن

عندما لا ترى حال الآخرين تنسى هذه الحقيقة، خـ ذا هـ ذا الجنبري اللذيذ.. ربما يعالج العجز الجنسي ويجعلك تنسـ ـي الحقيبة والشغالين وحتى البحث العلمي الذي أغرقت نفسك فيه.

(١٤)

كان يقضم في قطعة من الفطير بالجبن عندما أحس بأصابع تلمس ذراعه، فالتفت ليجدها أمامه.. قالت بصوتها الضاحك العميق:

" أنا اسمي " سـ لما " " سـ لما باتشـ ينو " .. أتذكرني؟

غرق في عينيها الزرقاوين يطل منهما مزيج مـ ن المرح، والسخرية كأنها مستمتعة بالمفارقات تتجـ دد فـ ي حياتها... قال:

" طبعا.. أذكرك... ما الذي جاء به إلى هنا؟

قالت:

" أسعد خلدون " صديق... أنا وزوجتـ ـه درسـ نا سويا في جامعة " ميتشيجان " .

اختفيت بعد لقائنا في المكتب، ولم أسمع انك جئـ ـت إلى المركز بعدها.. أين كنت؟

سافرت إلى " نيويورك " ... وبعد أن عدت حضرت إلى المركز مرة واحدة.. لكن قبل أن نواصل الحديث دعني أعتذر للناس الذين كنت معهم، لمحتك تقتـ ـرب مـ ـن نافـ ـذة

الشرفة كأنك تستعد للتسلل منها... فأسرعت لألحق بلك قبل أن تختفي من الحفل " .

ابتسم:

منذ الآن يجب أن أحترس من قوة ملاحظتك.

ومضت أسنانها في وجهها الأسمر. قالت:

" لا تهرب قبل أن أعود إليك.. فربما قررت أن أهرب معك " .

أحس بمرحها ينتقل إليه.. راقت له الفكرة فتتبع قوامها الممشوق يخط طريقه إلى وسط الزحام، انضمت إلى مجموعة من الناس كانوا يقفون في حلقه على مسافة ليست ببعيدة عن النافذة التي وقف عندها، لمح " أسعد خلدون " بحليته السوداء ورأسه الكبير يدور الشعر حوله تاركا مساحة صلعاء تلمع في الضوء المنبعث من النوافذ الواسعة... إلى جواره وقفت زوجته ترتدي ثوبا حريريا أبيض، وتاجا صغيرا من زهر البنفسج كأنها في عرس إحدى قريباتها، ثم المستر " بوجمان " الملحق العلمي في السفارة الأمريكية، على مقربة منه فوجئ " بنبيل القرنفلي " وزوجته " نينا " ثم " أمين الصيرفي " بدا إلى جوار

قوامها الطويل كالدمية المنكمشة، كانت تميل عليه لتسـ تمع إلى ما يقوله، لمحه يبتسم إليها، في بلاهة ويهـ ز رأسـ ـه المنتفخ من السترة الضيقة تركها مفتوحة.

تبادلت " سلما باتشينو " بعض الكلمات الضـ ـاحكة معهم قبل أن تخط طريقها عائدة إلـ ـى حيـ ـث كـ أن قـ ـف، تتبعتها " نينا " بنظراتها وهي تقترب منه فالتفت عيونهما بنوع من التفاهم الساخر بينما تابع " أمـ ـين الصـ ـيرفي " كلامه كأنه لم يلاحظ انشـ ـغالها عنـ ـه، أخرجتـ ـه " سـ ـلما باتشينو " من تأملاته بسؤالها:

هل جئت إلى هذا المكان من قبل.؟

قال:

لا أبدا.. إنه المقر الجديد لمركز دراسـ ـات تـ ـاريخ الشرق الأوسط.

أعرف هذا لكن يبدو أن المركز نقل نشاطه إليه منذ شهور إنه بناء جميل.

اقتربا من النافذة ليتأملا الحديقة احتلتهـ ـا مسـ ـاحة واسعة من السندس الأخضر، وأحواض الزهور وصـ ـفوف من النخيل، الحديقة يفصلها عن الصحراء المحيطـ ـة بهـ ـا

سور مـ نخفض تسـ لقته شـ جيرات الجهنميـ ـة الحمـ راء، والبيضاء، والبرتقالية اللون، كان قرص الشمس يقترب من الغروب فبدا منخفض الرمال من حولهما مثل البحيرة تحلق فوقها غيوم ذهبية وردية، وزرقاء اللون، استنشـ قا عطـ ر الياسمين حملته دفعات الريح الآتية من الصحراء.

طال صمتهما كأنهما يمتصان مناظر الكون، أخـ ذت نفسا عميقا وقالت:

ما أجمل الصحراء في لحظات الغروب، وما أجمـ ل الأشجار والزور تنفجر قوية، نقية كالشـ عل فـ ي الرمـ ال المفتوحة.

تأملها إلهة فرعونيـ ـة سـ مراء منحوتـ ـة تغسـ لها الأضواء الوردية اللون، تموجت خصلات شعرها الأسود في النسيم ثم عادت إلى السكون همس:

" إنها جميلة بالفعل "

التفتت إليه:

أين نحن الآن في جنة عدن؟

ليس بالضبط ثم أشار بيده " هذا طريق الإسكندرية الصحراوي، وهذا الكوبري يبدأ من حي المهندسـ ين فـ ي

الجيزة، ويتجه إلى مدينة جديدة اسمها ٦ أكتـوبر.. كيـف جئت إلى هنا؟

بالسيارة من فندق " أوبروي " الطريق رائـع... حدائق... ونخيل، وأشجار.. وقصور. وهذا المركـز فخـم للغاية ، خشب محفور، وأبواب بالحشـوات، ومشـربيات، ورخام، يشبه الحمامة البيضاء الراقدة في مساحة خضراء لا بد أنه تكلف الكثير " .

" سمعت أنه أقيم بمساهمة ماليـة مـن مجلـس الكنائس العالمي، ومؤسسة تكساكو للدراسات الإثنية.

هز كتفيه:

في هذه اللحظة أنا مثلك أستمتع لكـن لا أريـد أن أنسى.

ماذا؟

أننا بلد فقير، وفي هذا العصر لا نستطيع أن نكـرر ما فعلتموه... والدليل هو ما يحدث لنا الآن....

العزلة في عالم متداخل معناها الموت "

الاستقلال لا يعني العزلة.

المصالح أصبحت عالمية ويجب أن تتجاوز هذه النظرة المحدودة.

أحس بالضيق:

عالمية لصالح الأقلية على حساب الأغلبية فأيهما تختارين؟

بصراحة أختار أمريكا وأنت؟

أختار الكرامة:

ألقت إليه بنظرة فاحصة:

كلامك يذكرني بأمي الصومالية؟

قال:

أفهم من ذلك أنك معجبة بي.

أنت رجل استفزازي .. لكن لما لا.. بالفعل هناك أشياء تعجبني فيك..

قال:

وأنت أيضا فيك أشياء أنا معجب بها...

ألقت إليه بنظرة مشاكسة.. قالت:

لن أسألك ما هي؟

أحس كأن هناك عيونا ترصد وقفتهما ، فالتفت لمح " نبيل القرنفلي " يدخن سيجارا مسندا ظهـره إلـى احـد العواميد التفت فالتقت عيونهما رفع السـيجار إلـى فمـه فاختفت ملامحه خلاف سحابة من الـدخان الأزرق، أسـر ببعض الكلمات إلى " نينا " هزت رأسها بعصبية واتجهت إلى باب الخروج فتبعها، عاد إلى المرأة الواقفة أمامه، مـا زالت تتأمله بنظرتها المشاكسة.

قالت:

" نينا القرنفلي " امرأة جميلة أليس كذلك؟

نعم جميلة.. لكن لا داعي للاستنتاجات.

قالت:

أنت غريب، من قال لك إنني مغرمة بالحواديـت.. الإعجاب شيء ظريف فلماذا الإخفاء؟ رأيي أنها معجبة بك، ثم ليس من السهل أن تبتلي امـرأة برجـل مثـل " نبيـل القرنفلي " .

أتت برعشة صغيرة من جسمها تنم عن الإعـراض الشديد، ثم أخرجت سيجارة من حقيبتها وأشـعلتها نفثـت الدخان من فمها وسألته.

الدكتور " أمين الصيرفي " صديقك؟

أحس بالتوتر يزحف عليه، لا تكف عن سؤاله.

نعم، يبدو انك تعرفت على عدد كبير من الناس في هذه المدة القصيرة، ماذا كنت تفعلين منذ لقائنا السابق؟ قلت إنك ستتصلين بي لكن لم يحدث، هل توقفت المفاوضات مع المركز تماما؟

أشارت بيدها إلى رجل كان يحمل صينية فضية عليها كاسات وردية اللون يدور بها على المدعوين سألته:

ماذا تشرب؟

قال:

تمر هندي.

تمر هندي؟

بالإنجليزية اسمه " تامارند " .

مدت يدها إلى كأس من التمر الهندي وأعطته له ثم أخذت لنفسها كأسا من البرتقال.

قالت:

حتى الآن الدكتور " فاروق الدجوي " مصر على شروط لم توافق شركتنا عليها.

وماذا تفعلين طالما أن المفاوضات محلك سر؟

أتعرف على مجالات التصنيع الكيماوي في مصر، وإمكانياتها، وأجري مناقشات مع القائمين عليها، في هذه الفترة عدت إلى " نيويورك " للتشاور مع المسئولين في " تكنو سبايس " كنت أريد أن أنهي مهمتي في مصر، أحسست أن بقائي ضياع للوقت لكنهم أصروا على أن هناك يمكن أن أقوم بها إلى أن يتضح الموقف بشكل نهائي، وأنا هناك انتهزت الفرصة لقضاء بعض الأيام في قسم الكيمياء بجامعة " نورث كارولينا " ، وقمت بزيارة ابنتي التي تدرس في جامعة " ديوك " .

عمرها كم سنة.

ثماني عشرة سنة.

وأين زوجك؟

يعيش في " سان فرانسيسكو " .. انفصلنا وتزوج امرأة أخرى... لي منه بنت وحيدة.

سألته:

وأنت؟

متزوج.. لكن ليس عندي أطفال.

أحس بعينيها تتفرسان في وجهه:

متزوج فعلا؟

ابتسم في حرج:

لماذا تسألين ألا تصدقين أنني متزوج؟

ظننت أنك مطلق مثلي.

ضحك:

هل أنت عرافة "

ابتسمت:

ربما عندي حاسة سادسة نسد ميها " عنـ دنا " " جت فيلنج " تنبئني أنك تعيش وحدك مثلي.

قال:

لسنا مطلقين لكننا منفصلان..

هل لي أن أعرف اسمها؟

اسمها الدكتورة " نجوى أبو العلا " .

سمعت هذا الاسم انها استاذة أدب أو شيء من هذا القبيل، آه تذكرت الآن... " نبيل القرنفلي " ذكـ ر اسـ مها أمامي بطريقة لم تعجبني ، أحسست أنه رجل مريض فـ ي علاقته بالمرأة.

قال في لهجة تسلل إليها الغضب.

إنه رجل حقير.

نظرت إليه بشيء من الدهشة ثم قالت:

لا تعره اهتماما.. لا يستحق أن تتوتر.. عندي اقتراح.. ألم نتفق أن تهرب سويا؟ أم تريد أن تهرب مني أنا أيضا.

قال:

لا أبدا...

أذن ما رأيك في أن أدعوك على العشاء في فندق " أوبروي " يوجد مطعم هندي ممتاز، هل تحب الأكل الهندي؟

لم أجربه.. لكن..

لكن ماذا..؟ طالما أنك لم تجربه فهذا سبب وجيه لتأتي معي... ثم إن تركتني سأقضي الليلة في هذا الحفل الممل أو وحدي في حجرة الفندق، إنك ستنقذني المطعم ظريف ويمكن أن نكمل حديثنا لكن يجب أن نسرع، أشعر أن أصدقاءك متجهون إلينا، وسيفسدون علينا هذه الفرصة.

قال:

مواف ـق... سـ ـأذهب لتهنئ ـة " أسـ ـعد خلـ ـدون " والفائزين بجوائز الكيمياء .. ثم أعود إليك.

" لا ..سيحاصروننا إذا لم نختف بسرعة.. هل معك سيارة؟

نعم

سأصرف السائق وأنتظرك عند باب الحديقة لنركب سويا.

عندما دخلا إلى المطعم كان خاليا من الرواد ما عدا أسرة كبيرة احتلت مائدة قرب تخت الموسـ ـيقى الهندي ـة، أشارت إلى مائدة في الركن البعيدة وسألته:

ما رأيك؟ هناك سنكون بعيدين عن حركة الـ ـدخول والخروج، المطعم يمتلئ عادة بعد العاشرة.

جاءهما النادل قال بالإنجليزية:

" مساء الخير.. أتشربان شيئا قبل العشاء؟

رد عليه بالعربية:

اسأل الأستاذة أنا سأشرب ماء وتمـ ـر هنـ ـدي مـ ـع العشاء.

قالت:

النبيذ المصري " عمر خيام " لا بأس بـ ـه.. مـ ـا رأيك؟

ليس الليلة... لكن ربما تريدين أنت نبيذا؟

قالت:

لا .. سأشرب معك تمر هندي.. لم أجربه من قبل.

قال النادل بالإنجليزية:

آسف.. ليس عندنا تمر هندي.

نظرت إليه قال:

سأشرب ماء.

قالت:

وأنا ذلك.. ماذا تريد للعشاء؟

اختاري أنت أنا أفضل الخضروات والبقول.

ألا تريد أن تشاركني أكلـ ـة دجـ ـاج مشـ ـوي علـ ـى الطريقة الهندية.

قال:

لا بأس.. أنا أحب الدجاج المشوي.

التفتت إلى النادل وقالت:

" اثنان بالاك و واحد دال و واحـ ـد آلـ ـو و واثنـ ـين تاندوري تشيكن و واحد بيلاور اجستاني ثم سألته.. أتريـ ـد أن تخفف الشطة.

قال: لا وأنت؟

قالت:

مثلك. الأكل الهندي في البهرات.

كتب النادل وانصرف قال:

لم أفهم ماذا سنأكل.

ضحكت:

" بالاك " يعني سبانخ " ودال " يعني عدس، و " آلو " بطاطس مطبوخة بالبهرات، و " تاندوري تشـ ـيكن " دجاج مشوي على الطريقة الهندية، و " بيلاور اجستاني " يعني أرز بالمكسرات، هل تحب هذه الأصناف؟

اخترت الأشياء التي أعشـ ـقها وبالـ ـذات السـ ـبانخ والعدس..لكن من أين تعلمت هذه الأسماء الهندية؟

عشت في الهند خمس سنوات مع زوجي كنا ندرس في جامعة " إليجار " وسافرنا كثيرا داخل الـ ـبلاد.. هـ ـل زرت الهند؟

لا.

ولا أمريكا؟

أبدا.

قالت:

فاتك الكثير.. البلدان يستحقان أن تتعرف عليهم ـا. الهند بالذات موحية؟

لم تتح لي الفرصة؟

الفرص لا تتاح.. الفرص يصنعها الإنسان.

هكذا يقول الأمريكان.. أمريكا بلاد الفرص "

فعلا .. لكن نحن الذين نصنعها أو عل ـى الأق ـل لا ندعها تفلت من بين أيدينا.

أحيانا تكون الفرص قليلة.. تصبح العلاقات أه ـم.. علاقات بمن؟

بأصحاب السلطة.. أو المال. أليس هذا هو الح ـال عندكم.

ربما.. لكن إلى درجة أقل بكثير، عندنا مفتوح بحكم الإمكانيات... ربما المال أهم من السلطة؟ ...صمتت لحظ ـة تفكر ثم سألته.

أليست لك علاقات..؟

محدودة.

يبدو لي أنك من النوع الانطوائي.

هذا صحيح.

أنا عكسك تماما.

ضحك وقال:

واضح..

يجب أن تخرج من القمقم.

سأحاول .. أحيانا يحتاج الإنسان إلى من يشد جعه على ذلك.

ألم تجد من يشجعك؟

وجدتها.. لكنها تركتني.

ربما يئست منك

ضحك:

ربما ... أحيانا يبدو لي أن هذا هو ما حدث بالفعل

"

لاذا إلى الصمت وانهمكا في الأطباق الموضوعة أمامهما... بعد قليل توقفت عن الأكل، وأسندت جسمها إلى ظهر الأريكة كأنها تستريح قالت:

" ستجد من ترى أنك تستحق الجهد "

قال:

في هذا السن صعب.

ألم تقل لي إنك تحب الصعب؟

ابتسم

قالت:

يبدو أن في حياتك هناك شيء واحد أو شخص واحد مستول عليك.

الناس عندنا يقولون " صاحب بالين كذاب وصاحب ثلاثة منافق " .

لكن لماذا لا تطرق الأبواب عندما يغلق باب أمامك، ما الداعي لأن يضيع ما تبقى من العمر جريا وراء وهم؟

أطرق برأسه ثم التفت إليها ... قال:

" أخشى أن أكون أفسدت عليك السهرة، و حولت الحديث كله إلي " .

قالت: " لا أبدا أنا مستمتعة بجلستنا، لكـ ـن يبـ ـدو أنني صدمتك بما قلته " .

لم أصدم.. على العكس.. الحوار معك ممتـ ـع... و الطعام كان لذيذا جدا..

هتفت في حماس: " صحيح أنـ ـا مسـ ـرورة بأنـ ـك استمتعت " .

وضع النادل دفتر الحساب أمامه، فأخرجت بطاقـ ـة الائتمان من حقيبتها ووضعتها على الصحن.. قالت: " أنـ ـا التي دعوتك:

لكن أنت في مصر ضيفتنا "

لا الدعوة جاءت مني.

قال: " على الأقل أشارك معك " .

ليس هذه المرة.. في المرة القادمة يمكن أن يكون الدور عليك " .

قال: إذن ستكون هناك مرة قادمة؟

التقت عيونهما.. قلبت الشوكة بين أصابعها الطويلة ثم تركتها قالت:

وهل عندك شك في هذا؟

(١٥)

حياه حارس الأمن الجالس على باب مبنـ ـى الإدارة عندما وصل في الصباح، بدا له أنه لم ير وجه الرجل مـ ـن قبل، سأله:

" أ أنت جديد؟

قال: نعم.

ما هو اسمك؟

عبد الغفار الشاذلي.

منذ متى جئت؟

منذ شهرين.

لم أرك من قبل.

كنت أعمل حارسا على باب المخازن.

وأين راح زميلك؟

لا أعرف يا دكتور " يوسف ".

كيف عرف اسمه؟ ربما عرفه من الذين يعملون في الإدارة قبل أن يتسلم حراسته، نوع من التقدم في إجراءات الأمن.

تركه وسار في الطرقة ناحية جناح رئيس المركـ ـز، وجد السكرتيرة جالسة في مقعدها مولية ظهرها للكمبيـ ـوتر كانت تضع يدها خلف رأسها، وتميل إلـ ـى الـ ـوراء كأنـه ـا تعرض نفسها على الرجل الواقف أمامها، تضحك في غنج وتتلوى في المقعد.

ترددت خطواته على بلاط الطرقة فالتفتـ ـت إليـ ـه، فوجئ بالدكتور " عبد الفتاح " يحملق في وجهـ ـه، ألقـ ـى عليه تحية الصباح وسأله عن حفل اليوم السـ ـابق، ارتبـ ـك قليلا وهو يرد ثم انصرف بسرعة معتذرا بموعـ ـد كـ ـاد أن يسناه فالتفت إلى السكرتيرة وسألها:

" يا عبير، الدكتور فاروق وصل؟ "

اعتدلت في جلستها وألقت إليه بنظرة فيها ضيق ثم وقفت على قدميها وأحكمت الطرحة حول رأسـ ـها، أحـ ـس بحركة في الطرقة فالتفت فلمح الدكتور " فاروق الدجوي " وهو يمرق أمام باب السكرتارية وقد بدا عليه الاسـ ـتغراق العميق فلم يحيهما أو ينظر إليهما، سار مباشرة إلى بـ ـاب غرفته واختفي وراءه، فكر في أن يتبعه ثم غير رأيه وقال:

" يا عبير بلغي الدكتور فاروق أنني أريد أن أقابله قبل أن أذهب إلى المعمل " .

غابت لحظة طويلة، كان عل ى وشـ ك الانصـ راف عندما سمع همس الباب وهو يفتح خرجت منـ ـه وأشـ ـارت إليه بالدخول.

أتفضل

وجده جالسا في الملحق، كسا وجهه شحوب غيـ ـر عادي وبدا على جسمه الهزال الشديد كأنه فقد مـ ـا تبقـ ـى عليه من لحم.

أفرغ قرصين من أمبوبة دواء في كفـ ـه وابتلعهمـ ـا بقليل من الماء ثم التفت إليه في عينيه نظـ ـرة اسـ ـتعطاف غريبة كالكلب الذي يضربه سـ ـيده، فأصـ ـبح يخشـ ـى مـ ـن الضرب، بزته مكرمشة كأنه نام بها طوال الليـ ـل، فـ ـوجئ بمنظره فسأله:

" مالك يا دكتور فاروق " هل أنت مريض؟

قال: " اجلس يا يوسف لا ليس هناك اقترب مني.

جلس على المقعد الذي أشار إليه، ظـ ـل صـ ـامتا لا يقول شيئا، حول عينيه دائرتان من السـ ـواد، يـ ـده فـ ـوق

المسند ترتعش ثم تسكن ثم ترتعش من جديد، عندما تكلـ ـم بدا وكأنه ينتزع نفسه من بئر قال:

" يا يوسف " أريد أن أتحدث إليك في أشياء حدثت أخيرا.

قال: " كنت على وشك الذهاب إلى المعمـ ـل لكـ ـن قررت أن أمر عليك لمدة دقائق فلم نلتق منذ مدة، سأتصـ ـل بالمعمل وأخبرهم، هل تسمح لي باستخدام التليفـ ـون؟ هـ ـز رأسه فتوجه إلى التليفون، تحدث فيه بسرعة وعاد إليه.

قال " فاروق الدجوي " :

" أفضل ألا نتحدث في المكتب، أن نذهب إلى مكان آخر بعيد عنه، أنا في حاجة استنشاق الهواء الطلق " .

أحس بالدهشة، لم يره أبدا إلا في الغرف المغلقـ ـة، يظل قابعا فيها كأنه لا يشعر بالأمان إلا إذا أحاطته الجدران، لا يعرض جسمه للشـ ـمس أو الهـ ـواء فأصـ ـبح كالتمثـ ـال المصبوب في الشمع.

" أين تريد أن نذهب؟ "

قال:

لا أعرف.

ما رأيك في نادى الجزيرة

هز رأسه موافقا وقال: " لا أريـ ـد أن آخـ ـذ معـ ـي السائق، هل نستطيع أن نركب سيارتك؟

قال: بالطبع وبعد أن ننتهي أستطيع أن أعيدك إلـ ـى المكتب أو أوصلك إلى البيت "

بدا النادي خاليا من رواده كما هي العادة في شهور الصيف قاده إلى أرض الكروكيه، قرب المدخل كان يجلـ ـس عدد من الرجال يتبادلون الأحاديث بأصوات عاليـ ـة، سـ ـمع أحدهم يقول " إنها تمص دماءه وأشياء أخرى فيه، مسكين أصبح رفيعا كالإبرة؟ فعلت الضحكات، علقت امرأة شـ ـعرها أحمر وأظافر يدها بنفسجية اللون " أما أنت يا جو!! قـ ـام الرجل الذي كان يحكي وقال: أهلا يا " فاروق " بك.. لـ ـم نرك منذ زمن.. اسأل عنا يا أخي. ربنا معك... الحمـ ـد لله صحتها تحسنت.

عادا أدراجهما فرمقتهما المرأة كأنها تعترض على دخولهما في هذا المكان المخصص لرواد " الكروكيه " ثم تتبعتهما بنظراتها كأنها تطمئن إلى أنهما لن يـ ـودا إليـ ـه، اجتازا الجزء الخلفي من النادي، اخترقا موقف السـ ـيارات

إلى ارض الجولف بحث عن مقعدين من القش و وضـعهما في ظل شجرة كبيرة تطل على مساحات الخضرة، جلـس " فاروق الدجوي " ومد ساقيه النحيلتين، أفرغ مـن جيبـه أمبوبة الدواء وتناول منها قرصين ثم أعادها إلى جيبه.

سأله: ما هذه الأقراص الكثيرة التي تبتلعها.

مهدئات.

لكن هذا مضر

لا أستطيع أن أستغني عنها حملق في وجهه كأنـه يبحث عن شيء فيه يطمئنه قبل أن يبدأ ثم قال:

" يا يوسف.. لن أقول لغيرك ما سأقوله لك الآن.

وأرجو أن يبقى سرا بيننا لا تبح به لأحد أيا كان.. أنا أثق فيك أكثر من أقرب الناس إلى . لم آمر بالتجـارب التي مررت أنت بها، طوال عمري ابتعدت عـن السياسـة، لكني خضت معارك أخرى ربما أصعب لأحتفظ بقـدر مـن الاستقلال لنفسي ولأحقق قدرا من النجاح لهـذا المركـز.. وأنت تعرف أنني ساندت البحث الذي قمت أنت به بمعاونة زملائك رغم كل العوائق، لست من يبالغون فـي الخـوف، لكني أصارحك يا " يوسف " أنني لم أعرف فـي حيـاتي

خوفا يشبه من قريب أو بعيد الخوف الـ ذي أعـ اني منـ ه الآن..

أغرق وجهه بين كفيه لحظة طويلة ثم رفعه إليه " هناك جهة عليا اتصلت بي منذ أسبوع وطلبـ ت منـ ي أن أسلمها كل أوراق البحث.. " أخذ نفسا عميقا، نظر حولـ ه قبل أن يستطرد " ردي أنني لا أملك مثل هـ ذه الأوراق.. إنها ليست في حوزتي.

وبعد يومين أعادت هذه الجهة الكرة عـ ن طريـ ق الوسيط الذي تستخدمه، وأبلغتني أن هذا الكلام فضلا عـ ن أنه غير صحيح لا يمكن إلا أن يعتبر محاولـ ـة اسـ تفزازية ومضحكة للرفض يمكن أن أدفع ثمنها غاليا، فلا يعقـ ل أن رئيس المركز لا يحوز أوراق البحث أو على الأقل نسـ خة منها، وأن علي أن أبادر فورا بتسليمها.

حملق في وجهه طويلا كأنه يريد أن يستشف أثـ ر كلامه.. أحس بقلبه يدق وبالعرق البارد في كتفه، بذل جهدا حتى لا يبدو عليه شيء.. سأله في هدوء.

هل لي أن أعرف الجهة التي تتحدث عنها؟

مر على رأسه بكف يده ثم مسح به على البنطـال، نطق الكلمات بصوت خال من الانفعال كأنه آلة تـردد مـا سمعته.

لا أستطيع أن أقول سوى أنها جهة عليا للغاية.

والوسيط؟

ردد في توتر: " يا يوسف " لا تسألني.. هل أنـت مدرك ما هم قادرون عليه إذا سمعوا أني أفشيت أقل سـر من أسرارهم؟

" هون عليك يا " فاروق " الخوف لـه حـدودا، والخوف نفسه يميت قبل أي شيء آخر.. يا رجل.. المسائل لم تصل إلى هذا الحد.. هل هددوك بشيء؟

قال.. وهل احتاج إلى تهديد، أنـا قـادر علـى أن أتصور كل الأشياء التي يمكن أن تصيبني.

خلع سترته و وضعها على الحشيش إلـى جـواره الأفكار تروج وتجيء في ذهني كأنها أشياء صـلبة تحتـك بجمجمة الرأس.

أحس ببرودة تزحف عليه، فانحني ليلتقط السـترة من الأرض وارتداها من جديد.

" دعني أفكر قليلا... باغتني بما قلته، لم أكن أتصور أن يحدث كل هذا في موضوع يتعلق ببحث.. أكاد لا أصدق إنه كابوس سنستيقظ منه.

نظر إليه " فاروق الدجوي " بضيق..

يا يوسف أرجوك..

صمت قليلا ثم سأله:

من أين لك اليقين بأن هناك جهة عليا تخاطبك؟ ربما هي مجرد خطة دبرها شخص له مصلحة في الحصول على أسرار البحث.

لا... لدي ما يجعلني متأكدا مما أقوله.

تأمله في صمت ظل " فاروق الدجوي " يضغط على أصابعه ويلقي بنظرات من حوله رغم خلو المكان من أي ناس لا فائدة في أن يسأله الذكر الذي استولى عليه ينطق في كل كلمة من كلماته.... في كل حركة من حركات يديه.. في كل نظرة من عينيه... الرجل وصل إلى حالة يرثى لها، ولا داعي أن يضغط عليه، الأفضل أن يحسم الموقف لا شيء سوى مثل الخوف، تعلم ذلك في السجن.. قال: " يا فاروق " ما الذي أستطيع أن أفعله لأساعدك " ؟

ظل يحملق في الأرض ثم رفع نظراته إليـ ـه، فمـ ـه المعوج كاد أن يصل إلى صرصـ ـور الأذن، عـ ـادت نظـ ـرة التوسل تطل من عينيه.

قال: " أن توافق على تسلمي البحث إليهم "

قفز إلى ذهنه السؤال " ألهذا يقوم بهذه التمثيلية؟ ألهذا كل الكلام عن ثقته فيه.. عن المخاطر، والتهديد؟ إنها ليست إلا محاولة لتخويفه.. تملكه الغضب.. ألا يدري معنى ما يطلبه منه؟ كيف يسوغ له ضميره أن يسرقوا منه جهـ ـد سبع سنوات من عمره.. بل أن يسرقوا عمره كله؟ هل كان يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه إلا بالإصـ ـرار بـ ـالقرارات اليومية التي صنعته، بالإخلاص للفكرة التي استولت عليه، للحلم الذر راوده طوال السنين، هكذا بسهولة؟ سـ ـلم لهـ ـم أوراق البحث؟.. سلم لهم عمرك وأحلامك؟ يريد أن يبصـ ـق عليه، أن يركله بقدميه، إنه ليس إلا حشرة، صرصار خرج من البالوعة ليزحف عليه.

نظر إلى الرأس المنحنية أمامه، لا ليست تمثيلية... هذا الإنسان المرعوب، المرتعش الخائف من كل شيء، من كل لحظة تنتظره، يعد الثواني، والدقائق والسـ ـاعات كـ ـأن

هناك حكما صدر عليه، يدمر جسمه وعقله بالأقراص التي يبتلعها. من الذي صنع منه الحطام الذي يجلس أمامه؟ من الذي حوله إلى جبان يتخلى عن أقرب الناس إليه؟ عرفه رجلا يقف إلى جواره ضد الذين أرادوا تحطيم جهوده عند كل منحنى ومنعطف، وسد واجهه، عرفه مبتسما، متفائلا، ضاحكا يحكي له النكات عندما كانا يسهران في العمل لإعداد برامج البحث؟ والآن قال في هدوء:

سلمها أنت إليهم.

أخذ نفسا عميقا قبل أن يرد كأنه يخرج من تحت ثقل يكاد أن يخنقه.

" يا يوسف بيننا عقد غير مكتوب، وضعنا أوراق البحث في خزانة البنك سويا، كان يمكن أن أتصرف من وراء ظهرك دون أن أصرح لك بشيء، لكن كنت أنت أمينا معي، وحافظت علي، وعلي سر مهم كان يمكن أن يحطم حياتي، فكيف أطعنك من الخلف؟ أنا أتحدث معك الآن لنتفق سويا؟

لكن إذا كنت لا أوافق على تسليم البحث إليهم، ما هو الموقف؟

أصبح وجهه في لون الطباشير الأبيض، وسال العرق من على جبينه، أخرج أنبوبة الدواء من جيبه بأصابع مرتعشة فتبعثرت الأقراص البيضاء على الحشيش الأخضر، تركها ونظر إليه قال " يوسف " :

" ستقتل نفسك بهذه الحبوب، أو بغيرها " يا فاروق " وكل هذا من أجل من... من أجل " تكنو سبايس كيميكالز كوربوراشون " والقائمين عليها، من أجل سلطات أجنبية تخطتنا لتذهب إلى من هم أعلى منا؟ هكذا تلعب المصالح.. لكني لن أستسلم.. إن قتلوني لن أستسلم.. وقبل أن يقتلوني سأفضحهم علانية.. سأصرخ بأعلى صوتي.. سأدافع عن حقي إلى آخر رمق، لن أتذوق طعم المذلة.

نظر إليه مشدوها.. اختلطت الدهشة بالخوف زحفت مرة أخرى على عينيه.

لكن ماذا سأفعل أنا؟

لا أريد منك شيئا يا " فاروق " لم تعد الأوراق في خزانة البنك حيث أودعناها سويا.. أخفيتها في مكان آخر لا يعرفه أحد غيري " .

ارتجف صوته وهو يقول:

" لا أصدق.. أنت ألفت هذه القصة " .

ضحك:

يا فاروق أنا لا أؤلف شيئا، قل لهم الحقيق ـة الت ـي قلتها لك، بلغهم أنني تصرفت وحدي دون أن أرجع إلي ـك.. نقلت الأوراق من الخزانة التي كنت شريكا فيها، و وضعتها في مكان لا تعرف أنت عنه شيئا، فبحكم ق ـانون ب ـراءات الاختراع الذي يتشدق به أسيادهم هذا البحث بأسراره يعتبر ملكي قل لهم أنني أبلغتك شخص ـيا بك ـل ه ـذا، ومس ـتعد لمواجهة أي منهم.

سمع صوت الريح يهمس ف ـي الأش ـجار، زق ـزق عصفور عد ة مرات ثم صمت، فوق مس ـاحات الحش ـيش لمح بعض الرجال والنساء يرت ـدون البناطي ـل القص ـيرة، والبقعات الملونة، تأملهم وهم يضربون الك ـرة الص ـغيرة البيضاء بالعصاة. ارتفعت في الجو وسقطت في مكان بعي ـد فوق الحشيش، أسرعوا وراءها للحاق بها كأن لا شيء في الدنيا أهم منها، ومن ورائهم أسرعت الأجس ـاد الس ـمراء النحيلة تشد العربات بأدواته، بدت له الحياة عبثية.. هؤلاء الرجال والنساء لا يشغلهم في الدنيا إلا هذه الكرة الصغيرة

يلهثون وراءها.. وإلي جواره يجلس " فاروق الـ دجوي " يفكر في المصير الذي ينتظره، وبالأمس كان يستمتع بالكلام والضحك مع " سلما باتشينو " بينما هي الأخرى جزء من الأخطبوط الذي يمد أصابعه إليه، تلعب الدور الموكل إليها.

فوجئ بصوت كالنهنهة إلى جواره فالتفت.. وضـ ـع ذراعه حول الكتفين النحيلين، وضغط عليهما فارتفع صوت البكاء.

همس في أذنه:

لا شيء يستحق البكاء يا " فاروق " الدنيا هكـ ـذا، لكن لن يهزموننا هذه المرة، تأكد من هذا قـ ـم .. السـ ـاعة قاربت على موعد الغداء، وهناك من ينتظرونك في البيـ ـت " .

رفع رأسه وحملق فيه، اختفى لون الطباشير مـ ـن وجهه كأن الدماء عادت تجري في شـ ـرايينه قـ ـال: " يـ ـا يوسف " عندما توصلني إلى البيت، اصعد معي، أريـ ـد أن أعرفك على أسرتي، لم تزرنا طوال السنين، أنظر " أخرج المحفظة من جيبه وفتحها، لمح صورة بنتـ ـين صـ ـغيرتين

تأملهما .. كل شيء فيهما نسخة منه أضفت عليها الطفولة رونقها كالأرنبين اللذيذين الصغيرين، كتم ضحكته وقال:

الوراثة شيء عجيب.

أطل الفخر من عينيه كأنه أتى بمعجزة لم يأت بهـ ـا أحد من قبل:

" إنهما توأمتان ولدتا منذ ست سنوات، سـ ـتراهما عندما تصعد إلى البيت.

(١٦)

لف المنشفة حول جسمه، وفتح باب الحمام، كـ ـان الشغال الأخرس واقفا في بداية الطرقة، في يـ ـده صـ ـينية فضية وضع عليها مظروفا أبيض، وقلما، وبعض الأوراق، أشار إلى ورقة صغيرة كتب عليها " صباح الخير خطـ ـاب وصل بالبريد السريع، الرجاء إمضاء الإيصال المرفق.. هل تريد شايا أم قهوة مع الإفطار؟ "

تأمل الخط المنسق الجميل.. كيف عثر " إسماعيل " على هذا الشاب، ملامحـ ـه المسـ ـتقيمة ونظراتـ ـه تـ ـوحي بالاطمئنان، كتب على الورقة " قهوة يا مبروك.. وشكرا " ثم وقع على الإيصال، هز رأسه وانسحب عائدا من حيـ ـث جاء، سمع همهمة خافتة تبعها صوت باب الشقة يغلق.

جلس على السرير، وفتح المظروف، أخـ ـرج منـ ـه الورقة المطوية وقرأ السطور القليلـ ـة المكتوبـ ـة بحـ ـروف كبيرة تشبه خط الأطفال.

عزيزي يوسف:

أرى أن أتحدث معك في موضوع هام للغاية، أقترح أن نلتقي الأحد القادم الساعة الثامنة مساء في " ك ازينو بانوراما " إن لم تتصل بي سأعتبر أن الموعد قائم.

" نينا "

فحص الورقة الصفراء اللون، في ركنه ا الأعل ى طبع اسم " بوتيك نينا " وفي الجزء الأسفل منها العنوان، والتليفون، والفاكس.. قرأ الرسالة من جديد كأنه يحاول أن يستشف معنى خفيا في الكلمات، ربما هي حجة للقاء، هذه المرأة فيها رعونة، ومن الواضح أنها تعاني من مشاكل في حياتها، لكن لماذا تلجأ إليه؟ ربما من الأفضل أن يعتذر عن هذا اللقاء، لا يحتاج إلى مشكلة أخرى في حياته خصوص ا الآن، يكفيه أن زوجها هو " نبيل القرنفلي " إنسان سيء وفاسد إلى أبعد الحدود، لكن ما ذنبها هي؟ ليست مسـ ئولة عنه.. يقولون إن الطيور على أشكالها تق ع، لك ن لـ يس دائما.. لا يريد أن يظلمها فيها جاذبية غير عادي ـة، ولـه ا شخصية تفرض نفسها على من يتعامل معها، ليسـ ت مـ ن النوع الذي يحرج نفسه بتمثيلية رخيصة من هذا الصـ نف، لا بد أن هناك سببا قويا دفعها إلى كتابة هذه الرسالة إليه.

جاء اليوم الذي حددته لموعدهما، عاد إلى البيـ ـت مبكرا.

اكتفى بوجبة خفيفة تناولها بسرعة ثم ترك ورقـ ـة صغيرة تحت سلة الخبز كتب فيها " يا مبروك سأدخل لأنام ولا تنصرف إلا عندما استيقظ " .

هبط من العمارة في الساعة الثامنة إلا ثلث، وسار على قدميه في اتجاه كوبري الجامعة، كان الجو حارا للغاية لا يخفف منه إلا نسمة خفيفة تكاد لا تحس والزحام علـ ـى شاطئ النيل شديدا كأن الناس جميعا زحفوا من الشـ ـوارع الخلفية ليجتمعوا على مساحات الخضراء الضـ ـئيلة، شـ ـق طريقه متفاديا الصفوف المتلاصقة السائرة فوق الرصـ ـيف فاضت على الشارع فصعد صوت الأبواق في ضـ ـجيج مـ ـلأ الليل، وصل إلى " الكازينو " قبل الثامنة بخمسـ ـة دقـ ـائق هبط سلالم الحديقة ثم صعد الدرجات داخل العوامـ ـة حتـ ـى السطح، المنضدة التي جلسا عليها من قبل كانت مشـ ـغولة، لكن إلى جوارها لمح منضدة أخرى خالية فأسرع إليها.

جلس ثم دار بمقعده ليطل على النيل، ومن ورائه شاطئ المنيل أضاءته المصابيح وتماوجت عليه فروع الأشجار والنخيل.

تأمل المياه الساكنة لا يتحرك على سطحها شيء، هبت منها رائحة صنان خفيفة تشبه رائحة مياه الغسيل، كان الجو ملبدا بغيوم رطبة رمادية اللون، ترى ما الذي تريده منه؟ أخذ نفسا عميقا راحت الأيام الجميلة التي كانت ينتظر " نجوى " فيها جالسا على الجدار المنخفض إلى جوار النهر، تخرج من الجامعة وتجتاز المسافة إليه سيرا على الأقدام يتنزهان قرب الشاطئ.

يبتاعان الترمس والذرة المشوي، تضغط على ذراعه بأصابعها، وتنظر إليه بعينين تطل منهما الفرحة، كل الأشياء حتى الصغيرة منها كان لها رونق، تبدو تلك الأيام كأنها كانت جزءا من حياة أخرى لا تنتمي إليه.

أحس بيدها على كتفه، تردد صوتها ينطق الكلمات بتلك اللكنة الروسية التي تفخم مقاطعها، لم يسألها أين تعلمت اللغة العربية قالت:

هذه المرة لم أتأخر سوى خمس دقـ ـائق. ضـ ـغطت على كتفه، وقالت: لا تقم.

خلعت حزام الحقيبة من فوق كتفها، وأسقطتها على المنضدة، سحبت مقعدا وجلست، تصرف كأنهمـ ـا صـ ـديقان تعودا هذا اللقاء الليلي حملقت في وجهه ثم قالت:

" شيء غريب، لم نلتق سوى مرتين ومع ذلك لك وحشة كيف أحوالك؟

كاد أن يقول، " وأنت أيضا " ثم تحفظ في الرد:

أنا على ما يرام، منهمك في العمل كالعادة، وأنت ما أخبارك؟

ردت دون حماس:

لا بأس

أخرجت سيجارة، وأشعلتها.

والبوتيك؟

" في أحسن أحواله طالما أنه يوجد رجـ ـال معهـ ـم نقود زائدة عن الحد، ونساء تؤمن " بالشفافية " وكشـ ـف العورات، اقترح أن تزورنا مرة للتفرج، وأن تصطحب معك صديقتك.. عندنا أشياء ربما استهوتها " .

ضحك

ليست لي صديقة.

لماذا؟ أنت رجل فيك جاذبية، على الأقل في الظاهر أين راحت " سلما باتشينو " ؟ لماذا لا تجيئان مـ ـرة إلـ ـى المحل لأعرض عليها بعض الموديلات الجديدة ستعجبها.

نظر إليها في ضيق ، استدرجته إلى هـ ـذا اللقـ ـاء لتنفس عن أشياء في نفسها، قالت أن " سـ ـلما باتشـ ـينو " معجبة به.. لا تفهم المرأة إلا المرأة ربما تشعر بـ ـالغيرة.. وضع ساقا فوق ساق واعتدل في جلسته تأملته بنظرة فيها سخرية قالت:

لا داعي للنفخة وإلا ربما انفجرت.. ولا داعـ ـي لأن تظن أن الغيرة هي التي جاءت بي إليك.. يبدو أنك لم تفهم ما كان يجب أن تفهمه من اللقـ ـاءين السـ ـابقين، إن كنـ ـت راغبة في الاقتراب منك فليس لأنك تملك عضو الذكورة أو من أجل ما يسمونه الحب، فقد كرهت كل ما يتعلق به " .

لمحت في عينيه الرفض قالت: " يا يوسـ ـف " لا تنظر إلى هكذا، جئت لأحكي لـ ـك عـ ـن علاقتـ ـي " بنبيـ ـل

القرنفلي " أنها مسألة لا تخصك، ومع ذلك لها علاقة بـ ك يمكن أن تؤدي إلى آثار خطيرة عليك " .

أحس بالدهشة... حملق في وجهها باهتمـ ـام.. مـ ـا الذي تقوله هذه المرأة، سمع أنفاسها تتردد بالقرب منـ ـه، استنشق رائحة خمر خفيفة، ربما شربت قبـ ـل أن تجـ ـيء، ذهنه أصبح مثل عش للنحل.. تبدو له غريبة كأنه لم يره ـا من قبل، عيناها اللوزيتان اتسعتا حتـ ـى كادتـ ـا أن تمـ ـلأن وجهها ويشع منهما بريق بنفسجي اللون، شعرها يتدلى في خصل فقدت لمعانها، ترتدي ثوبا واسعا من القطن، وصندلا تطل منه أصابع قدميها، صوتها يدور في دائرة واسعة ثم يعود إليه، لمح نظرة أسى تزحف في عينيها.

قال: " أنا آسف يا " نينا " .. أنا مصغ إليك " .

أخذت نفسا عميقا كأنها تستجمع إرادتها قالت:

عندما تزوجت " نبيل القرنفلي " لم أكن أعرفـ ـه، كنت كمن يقف على شفا هاوية يستعد لإلقاء نفسـ ـه فيهـ ـا، استغنوا عني من شركة " ايروفلـ ـوت " عنـ ـدما تقلـ ـص نشاطها وألغوا عددا كبيرا من خطوطها، كنت في " طشقند " بلا عمل ولا مأوى مضمون، ولا أي شيء، التقيت بـ ـه،

وأنا في بار وحدي، كان معه عدد من الرجال فقام وتحدث إلي، بدأت أمارس الدعارة فظننت أنه يريد أن يأخذني إلى الفراش، ولكنه تحدث إلي في لطف، ثم جلس وسألني عن أحوالي كنت في حالة يأس فحكيت له عن حالي.

ابتاع لي كأسين من الفوديكا وشرب معي، ثم قام بعد تواعدنا على لقاء في الغد، بعد ذلك أصبحنا نلتقي يوميا، يدعوني إلى العشاء معه، وأحيانا كنت أبيت في شقته لكن لم يطلب مني أن أضاجعه، قال لي إنه عائد إلى مصر، اقترح علي أن نتزوج في " طشقند " ثم نذهب إلى " موسكو " لنسجل زواجنا في القنصلية المصرية فهو يعرف القنصل وسيسهل له كل شيء، وبعد ذلك نسافر إلى مصر، فبدا لي كأنه الرب تدخل لإنقاذي " .

توقفت لحظة.. نظرت إلى المائدة كأنها تبحث عن شيء.

قال: " أنا آسف.. نسيت أن أسألك ماذا تطلبين " .

قالت: " ويسكي.. أطلب زجاجة.. سأدفع أنا ثمنها " .

كانت ملامحها متعبة فتردد لحظة.. هز كتفيه وقال:

ليس هذا المهم أتأكلين شيئا؟

قالت: لا.

أشار إلى النادر طلب زجاجة ويسكي، ثـ م التفـ ـت إليها.

باختصار جئت معه.. كانـ ـت معـ ـه نقـ ـود.. نقـ ـود كثيرة.. أنت رأيت البيت الذي نسكن فيه، لم ينقصني شيء، لكن سرعان ما اكتشفت أنه إنسان شـ ـاذ، لا يقـ ـدم علـ ـى مضاجعتي إلا بعد أن يضربني، عنده تشكيلة من الكـ ـرابيج يستخدمها.. وكلها صغيرة لأنه صـ ـغير الحجـ ـم " توقفـ ـت لحظة وبحركة سريعة أزاحت جلبابها عن أعلـ ـى جسـ ـمها حملق في خط أحمر داكن من اللحم يهبط فوق ظهرها، ثـ ـم أعادت الجلباب إلى مكانه ، و"أنه تزوجني لأشرف علـ ـى البيت والحفلات، وأظل صامتة لا أفتح فمي عـ ـن النشـ ـاط الذي يقوم به".

نشاط؟

تشابكت أصابع يديها بقوة حتى أصـ ـبحت بيضـ ـاء اللون.

أساسا لتجارة السلاح وأشياء أخرى.

خطر في باله ما هذا العالم الذي سقط فيه؟ أحـ س بالبرودة تسري في جسمه، انتزعه النادل من خاطره، جاء حاملا زجاجة الويسكي والمياه، والـ ثلج، وضـ عها علـ ى المائدة ومد يده ليفتح الزجاجة.

قال له:

اترك كل شيء.. سننصرف.

بدا عليه الضـ يق كأنـ ـه غيـ ـر راض عـ ـن سـ ـلب اختصاصته، وانسحب بكبرياء بطيء، قال:

" سخيف "

قالت: لا مسكين.. عندما أراهم أرى نفسي مضـ يفة في " أيروفلوت " أعصابك مشدودة اليوم الويسكي سـ يفك عنك " صبت لنفسها جرعة كبيرة وأضافت إليها الثلج، ثم ابتلعت نصفها في رشفتين. قالت:

الآن أدركت لماذا كان " نبيل القرنفلـ ـي " فـ ـي " طشقند " يوم أن التقيت به.

لماذا؟

لأنها قريبة من الجمهوريات الإسلامية في آسيا.

لكن أليس في هذا مخاطر جسيمة عليه؟

هزت كتفيها.

ربما لكنه محمي.

ممن؟

رفعت يدها إلى السماء وأشارت إليها، وباليد الأخرى حملت الكأس إلى شفتيها وابتلعت ما بقي فيها كأنها تشرب نخبا على الطريقة الروسية، بدا عليها الحزن، أخرجت سيجارة من العلبة وأشعلتها، سألها:

لماذا لم تتركيه؟

نظرت إليه في جمود كأنها لم تفهم سؤاله؟

إلي أين..؟

إلي أي مكان.

هزت كتفيها بعدم اكتراث:

" تعودت.. ثم مع الوقت انصرف عني إلى داعرات تخصصن في هذا النوع من الرجال يدفعون بسخاء مقابل خدماتهن " . صبت لنفسها جرعة أخرى و وضعت فيها الثلج.

" لكن لماذا إذن يقبل أن يعمل مديرا إداريا في المركز وهي وظيفة متواضعة نسبيا " .

قالت: " ليقوم بمهمة أوكلت إليه، ربما تتساءل لماذا أحكي لك ما كان من الأحوط أن أصمت إزاءه؟

قال: " أحيانا يكون الإنسان في حاجة إلى أن يحكي إلى صديق " .

وهل أنت صديق؟

ربما

اقتربت منه ونظرت في عينيه: " يا يوسف " ... يمكن أن يكون سببا، لكن هناك ما هو أهم " صمتت لحظة طويلة، بلعت ريقها قبل أن تستطرد في الكلام كأن شيئا توقف في حلقها.

" نبيل القرنفلي يحيط أنشطته بالغموض، ولا يقول لي شيئا عنها، لكن أخيرا ولأول مرة طلب مني أن أعاونه في مسألة لها علاقة بك " .

بي أنا؟

نعم بالاكتشاف العلمي الذي وصلت إليه؟

نظراته تكاد تستنطق شفتيها، ابتلعت جرعة من الويسكي، تبعتها بجرعة ثانية، نظرت إلى كأسها وقالت: لم يبق لي إلا هذا.. في يوم من الأيام أحلم بأشياء أخرى.

بذل جهدا ليصبر عليها.. سألها.

مثلا؟

أن أتحول من مضيفة تحمل صينية إلى قائدة تجلس في كابينة الطائرة وتقودها.

تتبعا المركب الفرعونية سارت أمامهما، سرح في المياه الفائرة من ورائها، أصبحت الحياة مثلها تنقلب عليه موجاتها لتغرقه.

كنا نشرب جالسين على شرفة الفيلا في " مارينا " كانت علامات السكر واضحة عليه، يضحك ويغضب بلا منطق، أخذ يتكلم عنك بحقد غريب كأنك عدو يريد أن يقضي عليه، قال عنك انك عنصر خائن، كنت عميلا للسوفيت والآن تلعب لعبة غير مفهومة لحساب جهة من الجهات، أنك تفرض التعاون مع العناصر الشريفة في المركز وتعمل لصالحك مما يغلق الباب أمام العون الذي يمكن أن تحصل عليه من شركات عالمية لها سمعة رفيعة في مجالات البحث العلمي، إنك إنسان مغرور، وفاسد في الوقت نفسه، المهم أنه فتح المجرور لتتدفق منه كل القاذورات التي تراكمت فيه " .

ابتلعت رشفة طويلة من الويسكي كأنها تبتلع معه دواء مرا.

طلب مني أن أوثق علاقتي بك، فالمرأة مثلي تستطيع أن تصل إلى ما لا يصل إليه الرجال، أخذ يضحك، ألم يهبني الله أعماقا يمكن أن تصيب أي رجل بالجنون من شدة الرغبة في الولوج إليها، وتجعله يوافق على أي شيء، قال إن مهنتي هي اكتشاف المكان الذي أخفيتِ فيها أوراق البحث وأنني إن نجحت في هذه المهمة سنحصل على مبلغ كبير من المال، وعد أن يعطيني نصفه قال: إنني عندئذ أستطيع أن أتحرر منه، أو أن أبقى معه، بشرط زواجه من امرأة أصغر مني، قال: " ألا ترين الكرمشة القبيحة التي زحفت على وجهك، أصبحت امرأة شمطاء لا تصلح لشيء، أكثر من إدارة بيت للدعارة"، صمتت ثم قالت فجأة:

لماذا لا تشرب بدلا من أن تظل تحملق في.

ارتعش صوتها كأنها ستبكي، أخرجت منديلا من الورق ومسحت به على عينيها قالت:

أشعر بالوهن، ربما يكون من الأفضل أن أعود إلى البيت " .

أمسك بيديها أحس بهما بـ ـاردتين كـ ـالثلج، خلـ ـع السترة الخفيفة التي كان يرتديها و وضعها حول كتفيهـ ـا، اقترب بمقعده منها و وضع ذراعه خلف رأسـ ـها فأسـ ـندته عليها.. قال:

ارتاحي قليلا.. ثم بعد ذلك يمكن أن نقوم إن أردت.

مدت يدها إلى كأسها فأمسك بها قبل أن تصل إليـ ـه قال:

لأجل خاطرك وخاطري توقفي الآن عـ ـن الشـ ـرب. الوهن لا يعالج بالويسكي.

قالت:

سأستريح قليلا: رأسي تدور. وأغلقت عينيها.

علي مقربة منهما مر " يخت " يحمل عـ ـدد مـ ـن الرجال والنساء، لمح أجسامهم نصف العارية تبدو شـ ـاحبة زرقاء اللون في أضواء اليخت، سمع أصواتا كالتأوهات ثم ترددت الضحكات الممطوطة، واختفى اليخت فـ ـي الغيـ ـوم العائمة على سطح النهر.

ظل جالسا لا يتحرك، أحس بأنفاسها على وجهه، مال عليها وأحكم السترة حولها، فتحت عينيها ونظرت إليه ثم اعتدلت في جلستها، خلعت السترة وأعادتها إليه قالت:

أنا أحسن الآن.

أزاح زجاجة الويسكي بعيدا عنها، تبعتها بعينيها، قال ليس الآن، يا نينا.

قالت في غضب: من عينك وصيا علي.

قال: آسف.

وأعاد الزجاجة إلى مكانها.

أمسكت بها، وقبل أن يتنبه رفعتها فوق الحاجز وتركتها تسقط في المياه، ثم تبعتها بكأسها ما زالت فيه بقايا من الويسكي وشظايا من الثلج.. قالت:

الآن يمكنك أن تستريح.

لم يعلق... مد يده إلى كأسه، وألقى به فوق الحاجز، تطايرت رذاذ منه في الريح اشتد فجأة فبلل وجهه وصدره، وتناثرت عليه قطع من الثلج.

حملقت فيه لحظة ثم انفجرت ضحكاتها في موجات متصاعدة، نظر إليها في غيظ ثم أخذ الضحك يفلت منه

بالتدريج كأنه يحاول أن يكتمه، علت الضحكات والشهقات في سكون الليل فالتفتت إليهما الرؤوس الجالسة حول المنضدة.

قالت وهي تشهق: أنت مجنون.

قال: أنا أم أنت؟

لمح البريق يطل من عينيها، مد يده وأمسك بيدها.

تركتها لحظة ثم سحبتها من بين أصابعه، سرحت كأن خاطرا مر في ذهنها، أخذت نفسا عميقا وقالت:

يا يوسف لنعد إلى ما كنا نتحدث عنه، يجب أن أكمل ما جئت لأنقله إليك فأنا لا أعرف ماذا سيكون موقفك بعد أن تسمع كل ما عندي، قال لي " نبيل القرنفلي " أنك رفضت الاتفاق الذي تقدمت به " تكنو سبايس كيميكال كوربوراشون " رغم أن هناك جهات عليا حريصة على إتمامه دون تأخير " .

قال في دهشة: كيف وصلته هذه التفاصيل؟

لا أعرف، لكن هناك جانب متعلق بي يجب أن تعرفه في يوم من الأيام فقدت حقيبتك أليس كذلك؟

أحس كأن أحد ضربه على رأسـ ـه بعصـ ـاة، دارت الدنيا من حوله ثم استقرت من جديد، حملق فيهـ ـا عـ ـاجزا عن النطق أشعلت سيجارة بأصابع مرتعشة، نفثت الـ ـدخان ثم أزاحت شعرها الطويل عن عنقها، ومسحت عليه بمنديل، سمعها تقول:

" في الحقيبة عثر " نبيل " على إيصال من البنك مقابل تأجير خزانة " .

كتم أنفاسه كأن مصيره أصبح معلقا علـ ـى الكـ ـلام الذي يخرج من بين شفتيها.. استطردت:

" فطلب مني أن أبحث عن وسيلة للحصول علـ ـى محتويات الخزانة، مدير البنك من أصدقاء " نبيل " ومـ ـن المعجبين بي... يتردد على بيتنا أحيانا دون أن يصـ ـطحب زوجته، يبدو أنها من مريدات أحد المشـ ـايخ، الكفـ ـافي أو غيره، وأنها مشغولة به إلى درجة أنها ترفض أن تشـ ـاركه سهراته، و " نبيل " يستخدمني أحيانا في بعـ ـض المهـ ـام الصغيرة.

مدت يدها إلى كوب من الماء ابتلعت نصفه، قالت:

" هذه الجلسة طويلة، ومرهقة لكن يجب أن انتهى منها، أن

أتقيا كل ما عندي " صمتت ثم أضافت في يـ ـأس " ربمـ ـا أستريح أعطيت للرجل فرصة ليتحسس صدري فوافق على أن يبذل محاولة لمعرفة محتويـ ـات الخزينـ ـة، فـ ـلا يملـ ـك مفاتحها سوى من يقوم بتأجيرها، وأحد المختصـ ـين فـ ـي البنك " .

والإيصال؟.

كما تعرف ليس في سوى رقم " كودي " .

نظرت إلى النيل وفي عينيها شيء كالحسرة قال:

" يا نينا " يمكن أن نشتري زجاجة ثانية " .

مسحت بيدها على يده قالت: " أنت إنسان ظريف.. أصبحت أكره جسمي وإلحاحه الذي لا يتوقف، لـ ـو كانـ ـت هناك وسيلة للتخلص منه".

" لم ألتق بامرأة أعماقها أنقى منك " .

قالت: " أرجوك لا أريد أن أسمع منك مثـ ـل هـ ـذا الكلام السخيف " بلعت ريقها " المهم ذهب الرجل، وبعـ ـد يومين اتصل بي، وطلب مني أن التقي بـ ـه فـ ـي فنـ ـدق " كونوراد " قال: إنه مقيم فيه لبعض الوقت حتـ ـى يسـ ـتجم، فسألته عما فعله في موضوع الخزانة، قال: إن صاحبها أخذ

ما كان فيها وسلم المفاتيح للبنك... فشكرته، واعتذرت عن الذهاب إليه، عندما أبلغت " نبيل " كنت أريد أن أزغرد من الفرحة، الأغلب أنه لم يقتنع بالإحباط الذي بدا عليه، وهكذا اكتشفت فيك جانبا آثار إعجابي " .

وما هو؟

قالت وهي تبتسم: الخبث.

أشكرك.

استغرقت في مركب صيد كانت تشد امـ ـرأة علـ ـى مقذافيها بينما وقف الرجل في مقدمتها يتتبـ ـع " لانشـ ـا " للبوليس النهري اتجه ناحية الكبري، وانزلق تحت أقواسه.

ساد صمت طويل، نظر إليها في تردد ثم سألها:

" يا نينا " ما الذي دفعك إلى البوح بكل هذا، إلـ ـى الإقدام على خطوة لم تكن بكل المقاييس سهلة؟

ردت في بطء: لا أعرف.. ما أعرفه هو أنـ ـي لـ ـم أكره في حياتي شخصا مثلما كرهت " نبيل القرنفلي " .

فقط؟

لماذا لا؟ الكراهية كافية للقتل، هذا البحـ ـث لـ ـيس بحثي والوطن ليس وطني.. لا أملك فيه شيئا، لا أملك فـ ـي الدنيا كلها شيئا حتى نفسي.

لا تملكين نفسك.. ربما هو السبب.

ابتسمت في سخرية: " تذكرني بأبي قال هذا الكلام عندما فقدنا كل شيء " .

أبوك؟..

كان أحد الخبراء السوفييت الذين جاءوا إلى مصر.

في الجيش؟

لا.. في السد.

وأين كنت أنت في ذلك الوقت؟

ولدت هنا.. كان عمري أربع سنوات عندما عـ ـدنا إلى بلادنا " أشارت إلى النيل " أتذكر هذه الميـ ـاه عنـ ـدما كانت حمراء اللون.

يا خبر يا " نينا " .. لم يكن من الممكن أن أتصور هذا حتى في الخيال.

لماذا الدنيا أصبحت صغيرة، والحدود تنهار في كل يوم، وها أنا عدت حيث ولدت ربما هذا هو السـ ـبب الـ ـذي أغراني بالزواج من هذا الوحش " .

لكن لماذا قلت إن أباك فقد كل شيء؟

دخل السجن؟

هنا في مصر؟

ضحكت فلمعت عيناها:

لا في سيبيريا.

لماذا؟

لأنه عارض النظام.

وأنت مثل أبيك؟

لا أعرف.. أتذكر أمي أكثر منه... ظلت معـ ـا أنـ ـا وأخي حتى كبرنا ثم ذهبت لتعمل مدرسة في قرية سيبيرية حتى تكون قريبة من المعتقل الذي وضع فيه.. وبقيت هناك إلى أن مات دون أن يفرجوا عنه.. ثم عادت إلى موطنهـ ـا في " طشقند " .

بحث عن كلام يقوله.. سألته:

هل تعيش وحدك؟

قال: نعم.

وهل لديك أكثر من غرفة للنوم؟

قال: نعم.. اثنتان.

قالت: لا أريد أن أعود إلى البيت الليلة... لا يوجد أحد هناك.

أريد أن أبقى معك حتى الصباح..

قال: وأنا أيضا أريد أن أبقى معك.

(١٧)

قرب آخر النهار وهو يتأهب لمغ ادرة المعم ل دق جرس التليفون على الطرف الآخر من الخط ترددت صد وت رجل... لم يكن كلامه واضحا، فقال " لـ م أسـ معك. لـ و سمحت أرفع صوتك " . فأعاد المتحدث الكلام قائلا:

هل تسمعني الآن؟ أنا " الـ دكتور عبـ د الفتـ اح " أتحدث إليك من السيارة.

نعم يا " دكتور عبد الفتاح " أسمعك لم أرك اليوم في المعمل، لا أنت، ولا " الدكتورة عفاف " هـ ل نسـ يتما أننا أعددنا أنفسنا للبدء في تجارب الحرارة؟ الإعداد لها أخذ جهدا، لكن عندما تغيبتما اضطررت إلى إلغائها، أرجـ و أن يكون المانع خيرا " .

قال الصوت الأجش:

أنا و " الدكتورة عفاف " موجـ ودان الآن أسـ فل المبنى، ونريد أن نتحدث معك في أمر هام، هل نستطيع أن نصعد إليك الآن؟

قال: تفضلا أنا منتظركما.

انشغل بترتيب بعض الكتب الجديدة في المكتبة، عندما وصلا دخلت الدكتورة " عفاف " سائرة فوق حذائها العالي، كانت ترتدي بلوزة صفراء اللون مبطنة عند كتفيها و " تربانا " مثبتا بدبوس كبير في شكل فراشة بسطت جناحيها أعلى جبينها، تبعها الدكتور " عبد الفتاح " كأنه يدفعها أمامه ببطنه الكبيرة.

جلسا على المقعدين متواجهين وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر.

طال الصمت.. فقال مبتسما:

يبدو أن الموضوع الذي جئتما من أجله خطير للغاية؟ دارت السبحة بسرعة بين أصابع الدكتور " عبد الفتاح " تنحنح ثم قال:

" يا دكتور " يوسف " أنت تعلم أننا، أنا و الدكتورة " عفاف " تعاونا معك لمدة سنين في فريق البحث، كنا دائما جزءا لا يتجزأ منه، ومن النجاح الذي تحقق نتيجة تضافر جهودنا وبتوفيق من الله سبحانه وتعالى وصلنا إلى نتائج خاطفة ثم استطرد ويهمنا أن

يستمر العمل الذي جمع بيننا إلى أن يتحقق كل ما نسعى إليه.

الرجل يتحدث كأنه صاحب البحث، أحس بالضيق، ألا يخجل، خطر في باله أن يلفت نظره ثم قرر ألا يعلق، نظر إليه في جمود فبدا عليه شيء من الارتباك، تدخلت الدكتورة " عفاف " قائلة:

ربما اخترنا وقتا غير مناسب للكلام، كنت تستعد للعودة إلى البيت " .

" لا أبدا.. أرجو أن تواصلا ما جئتما من أجله " .

نقل الدكتور " عبد الفتاح " السبحة من يد إلى يد، وأمسك بعلبة دبابيس كانت موضوعة على المكتب ثم تركها قال:

" الحياة صعبة يا دكتور " يوسف " وكل واحد منا مثقل بالمسئوليات، ربما ظروفك أنت أسهل، ليس عندك أطفال مثلنا، رزق الله كل منا بعدد منهم ونحمد الله، زينة الحياة الدنيا المال والبنون " ابتسم كاشفا عن أسنانه الطويلة تشبه الأنياب " عندنا البنون لكن الحصول على المال الذي يكفيهم ليس سهلا كما تعلم " .

هزت الدكتورة " عفاف " رأسها علامة الموافقة على كلامه، أخرجت منديلا من حقيبتها ومسحت بسرعة على عينيها سألهم الدكتور " يوسف " .

" أولادكما الآن في أمريكا أليس كذلك " ؟

قالت في صوت خفيض: أولادي أنا في ألمانيا.. لكن الصغيرة هنا " .

قال: على أية حال أنتما تعرفان أننا محكومون باللوائح، لكن إن كان هناك ما يستدعي زيادة المكافآت الخاصة بالبحث، يمكنكما أن تتقدما بما يؤيد هذا، وأنا أعدكما بمناقشة الموضوع مع الدكتور " فاروق " في أقرب فرصة.

ظلا صامتين كأن أسقط في يديهما، تبادلا النظرات؟ تقدم الدكتور " عبد الفتاح " قليلا فوق مقعده ثم قال:

" يا دكتور " يوسف " الموضوع للأسف أكبر من ذلك، إنه متعلق بمستقبلنا كله " .

أحس بالدهشة قال: كيف؟

أنت تعرف طبعا أن المفاوضات مع شركة " تكنو سبايس كيميكالز " توقفت بسبب الشروط التي تمسكت أنت

بها وكأن الاكتشاف الذي توصلنا إليه يخصك وحـ دك، ولا يخص المركز أو أحد غيرك " .

" كلامك تنقصه الدقة يا دكتور " عبد الفتاح " أنا عرضت على الدكتور " فاروق الدجوي " أن يشتري مني المركز براءة الاختراع فيصبح حرا بعد ذلك في التصـ رف فيه وفقا لما يريده وموقفي هذا فضلا أنني أعتبره من قبيل الدفاع عن حقي الطبيعي ليس فيه مساس بكما أنتما في أي ناحية، أنت تتحدث يا دكتور " عبد الفتاح " كأنك صـ ـاحب الاكتشاف، لو صح هذا لماذا لا تتفاوض أنت معهم، وتتنازل عن حقك إن أردت " .

تعثرت أصابعه وهو يدير السبحة فتمتم بكلمات كأنه يستغفر ربه، تدخلت الدكتورة " عفاف " لمح طرف لسانها المدبب يبرز من بين شفتيها.

" لا فيه مساس، وأي مساس؟

هذا المرأة يجب أن يلقي عليها درسا يخرسـ ـها، لا تجيد شيئا سوى النميمة، وكتابة المحاضر، لا يعرف كيـ ـف دخلت مجال البحث العلمي، قال في هدوء:

ربما هناك شيء لم أتبنه إليه، فأرجو أن توضحا لي ما الذي يقلقكما؟

قال الدكتور " عبد الفتاح " :

يقلقنا أن هناك جهات عليا في الدولة تصر على أن يتم الاتفاق بين المركز و " تكنو سد بايس " ف ي أق رب وقت .

كيف وصلت إليهما هذه المعلوم ات؟ ربم ا لهم ا اتصالاتهما هما أيضا، ما هذه الدوامة التي دخل فيها؟ إن ه وحده صاحب البحث ومع ذلك الجمي ع ينازعون ه علي ه، تراءت له ابتسامة " سلما باتش ينو " وه ي تس أله " أليست لديك اتصالات؟ " هل كانت تسخر منه؟ م ال عل ى المكتب وحملق في وجه كل منهما كساه شحوب التوتر قال:

وإذا فرض أن كلامكما صحيح، ما ه و المطل وب مني؟

قال الدكتور عبد الفتاح:

أن تتنازل عن شروطك حتى تسير الأمور بدلا م ن أن تتعثر، موقفك هذا سيصبنا جميع بأضرار جسيمة بينم ا الاتفاق مع " تكنو سبايس " من ش أنه أن يف تح أمامن ا

جميعا إمكانيات، وفرصا للمستقبل، ألا تعلم ما هي " شركة تكنو سبايس " ؟ مليار دولار يا دكتور " يوسف " مليار دولار، هل تعرف أرباحها، ثلثمائة وخمسين مليون دولار في السنة، ألم تفكر؟ أنا لا أفهمك، هناك شيء وراء هذا الموقف.

أحس بالدماء تصعد إلى رأسه، بالعضلة الصغيرة تتنفض قرب عينه، صارع حتى يتحكم في نفسه، خطر له أن يطردهما من المكتب لكنه طرد الفكرة، لهما منطقهما وليسا وحدهما في هذا المنطق ربما تكون المشكلة فيه هو.. قال: " فكرت يا دكتور " عبد الفتاح " ، ورفضت الاقتراح الذي تقدمت به هذه الشركة لأن فيه تنازلا مني، ومن المركز عما نملكه نحن، ويحق لنا أن نستفيد منه بالطريقة التي تدعمنا وتفتح مستقبلا حقيقيا أمامنا، إنها تريد منا أن نترك لها الحرية في أن تفعل ما تريده بالاكتشاف الذي توصلنا إليه بجهد غير عادي، أن تستثمره هي لصالحها، لنخرج نحن من المولد بلا حمص " .

" لا يا دكتور " يوسف " سيمنحوننا أكث ر م ن الحمص بكثير، عيبك أنت أنك ما زلت تفك ر ف ي ح دود الحمص " .

ربما.. لكني أتساءل أين ذهب كلامك عن الاستقلال، والهوية، وضرورة الدفاع عن مصالحنا، لم اذا لا نتك اتف ونواصل العمل المبدع الذي بدأناه، إذا أخذنا موقف ا قوي ا يمكن أن نصل على الأقل إلى شروط أفض ل؟ لم اذا ه ذا الاستسهال، والاستسلام الذي لن ينتج عنه سوى أن نصبح أتباعا بلا كرامة في المركز الذي بنيناه سويا؟

ساد الصمت في الحجرة قال الدكتور " عبد الفتاح " بصوت انخفضت نبراته:

أنا لست مطمئنا إلى ما يمك ن أن يح دث لن ا إذا اتخذنا هذا الموقف، وكذلك الدكتورة " عفاف " نظر إليه ا فهزت رأسها! " ولا نستطيع أن نكمل المشوار في العم ل مع الفريق تحت هذه الظروف يؤسفنا ألا نكم ل المش وار معك لكن نرجو أن تعذرنا إذا قدمنا استقالتنا، أو ب الأحرى انسحبنا من الفريق، كتبنا خطابا بها المعين إليك وسنرسله

إلى مكتبك باكرا صباحا، لم نرد أن نبعث به إلى الدكتور " فاروق الدجوي " مباشرة.

قال:

" كما تريدان لكن قبل أن ننهي هذه الجلسة أريـد أن أسألكما، من الذي قال لكما إن هناك جهات عليا تـدخلت في هذا الموضوع؟ أليس من المحتمل أن يكون هذا الكـلام من قبيل الضغوط التي يمارسها عليكما شخص ما لخدمـة أغراضه، أو لصالح الشركة، أو لأي سبب لا نعرفه؟

توقفت السبحة عن الدوران بين أصابع الـدكتور " عبد الفتاح " ومسحت الدكتورة " عفاف " بمنديل أسـفل الفراشة فوقعت على الأرض، التقطت أجزاءها، و وضعتها في الحقيبة، أحس بالفرحة، لمح عينيها الصغيرتين تنظران إليه في حقد كأنه هو الذي أوقعهما قال الـدكتور " عبـد الفتاح " :

لا.. أنا متأكد من هذه المعلومات، سـمعناها مـن شخص ثقة لديه اتصالات مهمة. صمت لحظة ثم أضاف يـا دكتور " يوسف " إن لم تكن عندك أسـئلة أخـرى، هـل يمكننا أن نستأذن تأخرنا، وأنا مسافر الليلة إلى بلدتي.

قالت الدكتورة " عفاف " :

وأنا أيضا عندي موعد في الحزب تأخرت عنه "

ترددت " اجتماع اللجنة العلمية ألن تحضـرها " ؟

الدكتور أمين الصيرفي سيكون هناك.

لا بلغيه تحياتي.

خرجا من الغرفة كالهاربين، ظل يحملق في البـاب المغلق كأنه آخر المنافذ سد أمامه، أخذ الغسق ينشر عتمته وهو جالس في مقعده دون أن يتحرك ثم بدأت تنتشر ظلال الليل في الغرفة، أحس بنفسه يائسا، منطفئا، باكرسـ يذهب إلى " فاروق الدجوي " لينهي هذا الصراع، لا يستطيع أن يستمر وحده.

أضاء مصباح المكتب، جمع أوراقه مرة أخـرى، و وضعها في الدرج، نظر إلى صورتها تطل عليه من بروازها حتى المرأة التي أحبها وعاشت معه سـنين تخلـت عنـه، حملق في الأجندة الموضوعة على المكتب الأحد ٣٠ يوليو، الورقة بيضاء ليس فيها شيء، أمسك بها وطواها، وقعـت عيناه على رقم تليفون محمول سجله في طـرف الأجنـدة، سرح لحظة طويلة ثم رفع سماعة التليفون وضـغط علـى

أزرارها ببطء، دق الجرس عدة مرات فكاد أن يعيد إلى مكانها ثم جاءه صوتها يرقص فوق الأسلاك قال:

" سلما " أنا يوسف، ماذا تفعلين الليلة؟ لا شيء؟ أنت في " فندق أوبروي " كما كنت؟ في المقطم، كيف، استأجرت شقة؟ نعم يمكنني أن أصعد إليك، أعطني العنوان، لا كل شيء على ما يرام ، صوتي؟ ربما عيب في السماعة؟

سمعها تقول:

هل كتبت العنوان كله؟

قال: نعم كتبته، مسافة السكة وأكون عندك.

(١٨)

كان قرص الشمس يطل عند الأفق ساعة خروجه من باب العمارة، كسا الصخور والرمال، وزجاج النوافذ بلونه الأحمر، فوق المدينة انتشرت الغيوم الكثيفة الداكنة اللون كأن ما تحتها نار تشتعل على مهلها مطلقة سحب الدخان والغازات في الجو لتصنع شيئا كالغطاء يخنق أنفاسهما.

كان كل شيء صافيا، واضحا أعلى المقطم، تسرت برودة الليل الوليد إلى جلده، إلى دماء الشرايين، لتهدئ النبض الجامح في جسمه، وتبدد غيوم الشراب الصاعدة إلى رأسه.

أوقف السيارة، وخرج منها ليستمتع بالجو المنعش قبل أن يهبط ملأ صدره بالهواء النقي، وتتبع العصافير تطير من شجرة إلى شجرة وهي تزقزق، في الميدان الخالي من الحركة وقف رجل أسمر الوجه أشيب اللحية أمام عربة صغيرة وضع عليها قدرة كبيرة من المعدن، دس مغرفة طويلة في القدرة وأخرجها ليقسط حبات من الفول المدمس في صحن من الصاج الأبيض، أمسكت به فتاة صغيرة نحيلة

الجسم تلف رأسها بمنديل أصفر، لمح عينيها السوداوين تبرقان في تحد وهي تقول: " ما هذا يا عم " نوفل " زد الفول، وإلا ذهبت إلى محل الحاج " عنبر " فرد عليها " اسكتي يا بنت يا مفعوصة " لا ينقصني في الصباح إلا أنت، ادفعوا ما عليكم الأول " . فرنت ضحكاتها في الجو الساكن كالفضة.

ألقى نظرة أخيرة إلى ما حوله ثم جلس خلف عجلة القيادة، وأدار المحرك ترك السيارة بسرعة، أحس أنه سعيد مقبل على الحياة، كأن الدنيا تغيرت منذ الأمس، كأن كل شيء فيها أصبح جميلا، له رونق أو كأنه لم يعد هو الشخص الذي صعد إليها بالأمس، أحس بالدهشة من نفسه، كيف يتغير من حال إلى حال بين يوم وليلة؟ وما الذي حدث حتى تتغير، فالأوضاع على بساط من الريح، خفيفا، شفافا مثل السحابة التي رمقها فوق رأسه، قبل أن ينحني به الطريق لتختفي خلف صخره.

وصل إلى بيتها دون أن يبذل جهدا في العثور عليه.

ارتفع به المصعد إلى الدور الرابع، عندما خرج منه وجد الباب الكبير بحشواته الداكنة أمامه، قالت له إن كل

دور ليست فيه سوى شقة واحدة، دق الجرس، لم يسمع رنينه لكن الباب فتح على الفور ليكشف عنها واقفة بقامتها الطويلة في الفتحة، رحبت به قائلة:

أهلا بك، أظن أن الطريق إلى البيت كان سهلا، وأنك لم تضطر إلى أن تسأل " .

أفسحت له الطريق وأضافت:

لماذا تقف هكذا.. ادخل.

أمسكت بيده وجذبته داخل الصالة الواسعة، دار بعينيه حول أرجائها تكاد تكون خالية من الأثاث ما عدا أريكتان كبيرتان وعدد من المقاعد الوثيرة، ومنضدة دائرية منخفضة ظهرها من الزجاج السميك التركوازي اللون، وضعت كلها في ناحية، على الناحية الأخرى مكتبة فيها أجهزة الموسيقى، وعلي مسافة منها جهاز تليفزيون على حامل متحرك وله شاشة كبيرة الحجم لم ير مثلها من قبل، على الأرض المبطنة بالخشب تناثرت الشلت، والأكلمة، وفوق الجدران الناصعة البياض علقت صور مرسومة بالكاربون محاطة ببراويز رفيعة داكنة اللون في أحد

الأركان مصباح فارغ القوام يسلط ضـ وءه نحـ و السـ قف العالي.

تتبعته وهو يتأمل الصالة ثـ م قادتـ ـه نحـ و نافـ ذة عريضة مفتوحة على شرفة تمتد بطول الصـ الة، فـ وجئ بالمدينة تبسط أضواءها المتلألئة تحت ناظريه، أخذ نفسـ ـا عميقا وقال " يا لجمال المدينة من هذا الموقع " .

هتفت مسرورة:

" أليس منظرها رائعا " .

أجلسته على مقعد من القش الرفيع وجلست أمامه، مدت قدميها العاريتين وهي تحرك أصابعهما الطويلة كأنهـ ـا تترك الهواء ليتسرب إليها قالت:

النسيم في الليالي الصيفية للقاهرة ليس له مثيل " .

قال: ربما هنا لكن في حواري القاهرة.

قالت:

لا تفسد علينا الليلة بضميرك الحي، أنا مصرة على أن أستمتع بالليلة وكل محاولاتك لإشعاري بالذنب سـ تبوء بالفشل.

أحس كأنها عرته، فصمت تأملها جالسة أمامه سمراء ترتدي ملابس من القطن الأبيض: جوبة واسعة تصل أعلى الركبة، وقميصا رجاليا مفتوحا عند الصدر، بدأ سمارها الدافئ نقيض الموت الأبيض، فكأنه جسمها الممتلئ صحة يتفجر من كفن فرض عليه ظلاله الداكنة تموج تحت ثيابها فأدرك أنها ترتديها فوق اللحم، نظراتها فراشات ملونة تشاكسه، قالت:

أرجو أن أكون قد نجحت في الامتحان " .

صعدت الدماء إلى وجهه فضحكت:

الذنب ليس ذنبي ما تفكر فيه يظهر على وجهك، هذا يريحني، لكنه خطر عليك، لكنك لست في أحسن أحوالك، صوتك على التليفون كان غريبا، صمتت لحظة قبل أن تضيف " صوت ميت أصابني بالرعب " .

قال: أنت تبالغين هذه أول مرة تسمعين فيها صوتي في التليفون؟

يبدو أن ليست لديك رغبة في الكلام، عندما أفكر في شيء أعبر عنه في الحال، لكن الناس هنا يتحفظون.

كلهم؟

ابتسمت: لا ليس كلهم، إنهم إما متحفظ ون ج دا، وإما " مدلوقون " جدا أليس هذا ما تقولونه؟

التقطت تعبيراتنا بسرعة.

بنفس السرعة التي " يندلقون بها " ابتسمت كأنها تذكرت شيئا، يبدو أنك لست من هذا النوع.

ربما لأسباب.

وما هي؟

ظل يفكر في أن يجيب:

ربما قدر من عدم الثقة في النفس.

المتحفظون والمدلوقون على حد سواء ليست لديهم ثقة في النفس أما أنت.. على أية حال تعجبن ي ص راحتك الرجل نادرا ما قول هذا الكلام " صمتت لحظة ث م قال ت فجأة يا إلهي أنا مضيفة سيئة للغاية ماذا تشرب؟

قال: لا أعرف اقترحي أنت؟.

عندي كل شيء حتى تمر هندي.

قال: أشرب شاي بدون سكر، ولا لبن.

نظرت إليه في سخرية:

شاي؟ وبدون سكر أو لبن؟ منتهى الثقة بالنفس، أما أنا " رفعت ذراعيها في السماء وصرخت " فشامبانيا.. اسألني لماذا؟ لأنني أريد أن احتفل بك، فأنت الضيف الأول في شقتي، وأنا الليلة أدشنها، ولأن الشامبانيا تعطيني إحساسا مبالغا فيه بقدراتي وجمالي، وكل شيء، وهو إحساس لذيذ للغاية، ألا تريد أن تخلع سترتك؟

توقف وخلع السترة، وأخذتها منه ثم مالت عليه وقالت:

غير رأيك وشاركني، عندي زجاجة " هيدر ١٩٩٤ " وأخري " فوف كليكو ١٩٩٦ " فأيهما تفضل؟

قال: لا تتعدى قدراتي التمييز بين التمر الهندي والعرقسوس.

قالت: نصاب: حكت جبينها بطرف ظفرها كأنها تحاول أن تتذكر شيئا.

أنت ماء تحت القش.

ضحك:

تقول ماء تحت تبن.

فتحت ذراعيها عن آخرهما، لمح صدرها الأسـ مر يصعد تحت القميص قالت:

افتح ذراعيك لهذه اللحظة، عشها حتـ ى لا تضـ يع منك.

مالت عليه كأنها تغريه بشيء:

هه أظن بعد كل هذه المحاولات ستشـ ـرب معـ ـي " شامبانيا " .

ضحك: لديك قدرة على الإقناع لا تقاوم.

لا... أنت نطقت شاي لكن عينيك كانـ ـت تقـ ـول " ويسكي " .

أما إحساسي أنا فقال " شامبانيا " هي ما نحتـ ـاج إليه هيا بنا نذهب إلى المطبخ، أنها في المبـ ـرد وأعـ ـددت معها وعاء من الثلج وبعض المأكولات البسيطة، هل تحـ ـب " الكافيار " .

قال: أسمع عنه.

قالت: لا فائدة منك.

كان المطبخ ملحقا بالصالة تفصله عنهـ ـا مصـ ـطبة عالية من الرخام، تأمل تجهيزاتـ ـه، وخزائنـ ـه التركوازيـ ـة

اللون تدور حول الجدران المغطاة بسيراميك يشبه الثلج، على جزء من الجدار قرب موقد الغاز تدلت أوان من النحاس الأحمر تلمع في الضوء النافذة العريضة تمتد بعض المطبخ، وقف أمامها يتأمل الأضواء المنثورة كالجواهر في الليل قال:

شقة رائعة، يبدو أنها تطل على المدينة من كل غرفها كيف عثرت عليها.

إنها ملك الشركة، البيت من خمسة أدوار، كل دور شقة وهو مبنى على ربوة أعلى المقطم فلا يحجزه عن رؤية المدينة شيء، لماذا لا تتفرج على الأجزاء الأخرى إلى أن أعد ما نحتاج إليه.

دخل في إحدى حجرات النوم، كل ما فيها ابيض اللون، السرير العريض، والبلاكار والمقاعد، تأمل نفسه في المرآة الكبيرة، بدا صغير الحجم، تراجع إلى الوراء فتعثرت قدمه على قطعة من ملابسها ملقاة على الأرض انسحب بسرعة، واحتمى في حجرة المكتب، أحس بالراحة، عاد إلى العالم الذي يعرفه عالم من الخشب الداكن فيه رائحة السيجار الذي تشربه، وصفوف من الكتب السميكة المجلدة

في أغلفتها، ومقاعد وأريكة من الجلد، ومنضدة ملتصقة بالجدار تدور معه في جزء منه.

وكومبيوتر وفاكس وشاشة لأفلام الفيديو تهبط من السقف، هنا عالم الكتابة، والعلم تعود عليه، راح الاضطراب الذي استولى عليه جلس في احد المقاعد يلتقط أنفاسه قبل أن يعود إليها.

خرج من الغرفة و وقف عن المصطبة الرخامية كانت تخرج صينية من الفرن ففاحت رائحة اللحم، أحس فجأة بالجوع، بالاضطراب اللذيذ يعود إليه، بكل المشاكل تتوارى إلى الخلف، نسي اللقاء الذي تم منذ ساعات في مكتبه، نسي البحث ومتابعه و " نبيل القرنفلي " والحقيبة التي ضاعت منه، أحس بجسمه يلح عليه بهذا العالم الحسي الجميل الذي تعرضه عليه هذه المرأة المتوقدة تستمتع بحياتها بالعلم بالشراب بالجنس، بكل ما شبع العقل والجسم، أما هو فعالمه محدود لا يعرف فيه إلا الجهد.

والآن فات الأوان، أم أن هناك سبيلا للحاق بما ضاع منه؟ سمع صوتها العميق يرن في أذنيه، مدت إليه الصينية وقالت:

" استنشق أليست رائحة الضأن رائعة؟ عندكم لحم لا مثل له في بلادنا، لم تطله الهرمونات بعد، ما زالت فـ ـي طريقها إليكم، الليلة سننسي كل متاعبنا آه " الشد ـامبانيا " سأحضرها هي و وعاء الثلج وزجاجة من المياه، لكن عليك أن تفتحها، هذه هي مهمة الرجال في حضارتنا الذكوريـ ـة؟ لكن قبل ذلك ادفع هذه العربة حتى الشرفة وضعت عليها كل شيء وسألحق بك " .

استقر كل منهما في مكانه.. قالت:

ألا تريد أن تخلع حذاءك؟

قال: لا شكرا.

سرحت لحظة ثم قالت:

أتعرف شيء غريب، في هذه اللحظة لا أشعر بـ ـأي وحشة إزاء أمريكا، ولا أريد أن أعود إليها، ما عدا ابنتـ ـي أنت لم تعرف معنى أن يكون للإنسان بنت أو ابن.

قال: فعلا إحساس لم أجربه.

قالت: ستجربه، أنا متأكدة.

ضحك: في هذا السن ومتأكدة.

لمعت عيناها في ضوء الشمعة التي انحنت لتشعلها.

نعم في هذا السن أفتح " الشامبانيا " ولحظة أن تفتحها فكر في أمنية، وأنا سأفعل مثلك.

في السر؟

كما تريد.. سأريك كيف تفتحها.

أمسكت بالزجاجة بين يديها خلعت الورق المفضض الملفوف حول طرفها لتلفها في منشفة ثم قالت:

اضغط بإصبعك على الجزء الأعلى من السدادة، هكذا ببطء.

تناول منها الزجاجة، ضغط على السدادة وأدارها بقوة بين أصابعه صرخت:

لا تصوبها إلي.

أفلتت من عنق الزجاجة بقوة الغاز المضغوط فيها واندفعت " الشامبانيا " الفائرة نحو عنها.

شهقت ظلت صامتة لحظة تحت وطأة المفاجأة ثم انطلقت ضحكاتها صارخة صاعدة كأنها عاجزة عن إيقافها امتزجت ضحكاتهما، وسالت الدموع من عينيها، قام

وبالمنشفة أخذ يجفف السائل الذي انسـ كب علـ ى عنقهـ ا وصدرها، ظلت ساكنة تنظر إليه بقي جزء من السائل على قميصها قالت:

ليس مهما.

صبت قليلا من " الشامبانيا " فـ ي كأسـ ه، وفـ ي كأسها.

انتظرت حتى استقرت الفقاقيع الهوائية وأكملتهـ ا، أمسكت بكأسها ورفعت همست:

ما الذي تتمناه يا يوسف؟

قال: أن تتدعم صداقتنا.

قالت: وأنا أيضا فلنشرب لهذه الأمنية، أفرغ كأسك تمام حتى تملأه من جديد، والآن ما هي الأمنية الثانية؟

صمت كأنه يفكر:

قالت: هل ترى أن أنوب عنك؟

قال:

لما لا. ؟ ربما تعرفين ما أريده أكثر مني " .

قالت:

أن تحتضن زوجتك بين ذراعيك.

أحس بصدمة كأنها انتزعته مما كان مستغرقا فيه، ترك مقعده وسار حتى طرف الشرفة، مال فـ وق الحـ ـاجز وتأمل المدينة في صمت، قامت من جلستها واقتربت منـ ـه، أحس بدفء جسمها وأنفاسها إلى جواره، قال:

في هذه اللحظة لم أكن أفكر فيها.

قالت: لكن أنا فكرت فيها.

لماذا؟

لأنه في يوم من الأيام هناك امرأة أخـ ـذت الرجـ ـل الذي كنت أحبه مني.

عاد إلى جلسته على المقعد. . اسـ ـتدارت مسـ ـندة ظهرها على الحاجز سألته:

فيما كنت تفكر يا " يوسف " ؟

كنت أفكر فيك، والآن لا أعرف هل هذه الليلة نهاية المطاف بالنسبة إلينا؟

قالت: لا أعرف أنا أيضا، ربما هي البدايـ ـة، هـ ـذا يتوقف علينا.

قال:

ربما من الأفضل أن أنصرف يا " سلما " .

قالت:

لماذا. . . الليلة لم تبدأ بعد والزجاجة ما زال فيها ما يقرب من نصفها، والغذاء الذي صنعته من أجلك لم نأكل منه، والليلة جميلة. . وأهم من كل هذا وجودك يضفي على الحياة فرحة أنا في حاجة إليها.

(١٩)

ذهب الصيف، وجاء الخريف. . ، سار العمل في المركز دون أن يحدث شيء غير عادي، حضر عددا من الاجتماعات مع " فاروق الدجوي " لمناقشة تحسين الأداء في المعامل، وتعيين باحثين جدد بعد المناقشة التي تمت بينهما في النادي. قال: " إنه نقل للوسيط ما دار بينهما بالكامل ومنذ هذا اليوم لم يفاتحه الرجل في شيء رغم أنه رآه في أكثر من مناسبة " .

في إحدى الأمسيات انتهى اجتماع رؤساء الإدارات الشهري مبكرا فاستبقاه ليتحدثا سويا، قال إنهما لم يلتقيا وحدهما منذ مدة، وأنه يريد أن يسمع أخباره بعد انسحاب الدكتور " عبد الفتاح " و " الدكتورة عفاف " من فريق البحث، جلسا في المحلق كما كانت عادته عندما يأخذ قسطا من الراحة مع أحد زملاء العمل الذين يأنس إليهم، سأله إن كان هناك جديد في موضوع الاتفاقية مع " تكنوس بايس كيميكالز كوربوراشون " . فبدا عليه القلق، هز كتفيه وقال:

لا شيء . . . هناك صمت كامل مع كل الأطراف ربما هي الانتخابات فلم يبق إلا شهران على إجرائها، ويبدو أن هناك محاولة لتغيير الطاقم القديم، أو على الأقل جزء منه بحجة الاستفادة من العناصر الشابة، مع ذلك هذا الصمت لا يريحني فلا أظن أن الشركة صرفت النظر عن عقد الاتفاق، مندوبتهم " سلما باتشينو " ما زالت في القاهرة أليس كذلك؟

أحس بعينيه تستقران على وجهه، انشغل بإخراج منديل من جيبه مسح به على بقعة صغيرة من الشاي تعلقت بكم القميص قبل أن يجيب:

أعتقد هذا.

من أين عرفت؟

لي صديق في شركة " كيما فارما " زارته لتعرف شيئا عن المصنع الذي يديره.

قال:

امرأة نشطة

لم يعلق سأله عن أسرته ثم استأذن معتذرا بأنه على موعد مع أحد أصدقائه، وهو عائد في السيارة تساءل

إن كان " فاروق الدجوي " يعرف شيئا عن لقاءاته مع " سلما باتشينو " ربما رآهما أحد معارفـ ـه ليلـ ـة أن تنـ ـاولا العشاء سويا في المطعم الهندي.

بعد أيام من هذا اللقاء مع " فاروق الدجوي " قرر مجلس إدارة اتحاد المعاقين إقامة ندوة حول مشروع قانون كان يريد تقديمه إلى مجلس الشعب بعـ ـد الانتخابـ ـات فـ ـي محاولة لتقنين ما يمكن تقنينه من حقوق المعاقين، فـ ـدعاه لحضوره، كان مشغولا في ذلك اليوم بإصلاح أحد الأجهـ ـزة الهامة فاتصل " بإسماعيل أبو سمرة " ليعتـ ـذر قـ ـال لـ ـه ضاحكا:

إذا تغيبت كثيرا عن نشاط الاتحـ ـاد سـ ـأطلب مـ ـن مجلس الإدارة أن يعيد النظر في عضويتك.

قال: يا " إسماعيل " الجهاز معطـ ـل، والتجـ ـارب متوقفة، لا بد أن أبقى هنا حتى اطمئن على إصلاحه.

قال:

" وهو كذلك لكن لا تتغيب مـ ـرة أخـ ـرى، هـ ـؤلاء الناس يحتاجون إليك؟ ما رأيك في الشغال الأخـ ـرس الـ ـذي

أرسلته إليك؟ ممتاز أليس كذلك؟ بالمناسبة ما الذي جـ ـرى في موضوع البحث؟ ألم يحدث شيء جديد؟ "

قال: انسحب الدكتور " عبد الفتاح " والدكتورة " عفاف " من فريق البحث لأن هناك ضغوطا تمارسها جهات عليا بسبب موقفي، ولأنـهما يخشيان من أضرار يمكـ ـن أن تقع عليهما، بعد ذلك أصبح هناك صمت.

قال:

ناس ورق، لكن هـ ـذا خطيـ ـر، معنـ ـاه أنهـ ـم لـ ـن يستسلموا وأنت ماذا فعلت؟ صمت أنت أيضا بالطبع.

قال:

ماذا يمكن أن أفعل؟

سمعه يصرخ:

ألا تعرف أحدا له وضع، أو اتصالات تسـ ـتطيع أن تحركه لإثارة القضية، إذا صمت ستشجعهم على المضي في تدابيرهم.

أعرف " إسماعيل أبو سمرة " .

" لن أرد عليك بالطريقة التي تستحقها. . ألا تعرف المدعو " أمين الصيرفي " ؟ أليس صديقك، وعضو معك في الحزب؟ "

علاقتي به تباعدت في السنوات الأخيرة.

لكن ربما ينفعك، ثم إذا اتصلت به لن تخسر شيئا سوى قليل من كرامتك المنتفخة، وهذا أفضل من أن تبقى دون أن تفعل شيئا.

ظل يفكر في كلامه عدة أيام، كان مترددا في الاتصال " بأمين الصيرفي " أحس بأنها خطوة ثقيلة على قلبه، لكن في إحدى الليالي بعد أن عاد إلى البيت أخرج زجاجة الويسكي من البار، ثم صب لنفسه جرعة مضاعفة، أضاف إليها مكعبات من الثلج وارتشف نصفها ثم أدار رقم المحمول الخاص به وجده مسجلا في " أجندته " .

سمعه يقول:

" أهلا بك. . طبعا يسرني جدا أن نلتقي، في أي وقت أنا تحت أمرك، في مكتبي أو في مقر الحزب، أيهما تفضل لا أذهب إلى الحزب إلا ثلاث مرات في الأسبوع، في المساء "

أغلق الخط أكمل كأس الويسكي ثم حمل الزجاج ـة معه إلى غرفة المعيشة، شرب كأسين آخرين وهو يشـ ـاهد فيلم " نيكسون " قرب منتصف الليل رقـ ـد فـ ـي السـ ـرير، وبعدها بلحظات كان غاطسا في النوم.

في اليوم الذي كانا قد اتفقا عليه للقـ ـاء اجتاحـ ـت البلاد موجة من الحر أشد مـ ـن أي موجـ ـة سـ ـبقتها منـ ـذ عشرين سنة، هكذا قالت نشرة الأرصاد، غربت الشمس لك ظلت الرطوبة الساخنة جاثمة على المدينة لا تحركها نسمة من الهواء، عندما هبط إلى الشارع أحس أنه سيختنق، لـ ـم يكن في السيارة تكييف هواء، كان يفخر بينه وبين نفسـ ـه انه قادر على تحمل تقلبات الجو من البـ ـرد القـ ـارس إلـ ـى الحرارة المشتعلة دون أن يتأثر، قاد سيارته إلى شـ ـارع " شاملبيون " حيث مقر الحزب، كانت المدينة خالية فوجـ ـد مكانا ليوقفها فيه بسهولة، خلع سترة البدلة " السـ ـفاري " التي كان يرتديها وألقى بها على المقعد الخلفي، وجد نفسه واقفا أمام محل لبيع الفاكهة تدلى منها الموز أسود اللون، كان صاحب المحل يجلس على قفص من الجريـ ـد فأوصـ ـاه بحراستها، أومأ برأسه دون أن يقول شيئا كأن الحـ ـر كـ ـتم

أنفاسه، صعد سلالم المبني تغط في العتمة تحت نعليه يسمع الصوت الخشن للتراب، عندما وصل إلى الدور الأول لمـ ـح عامل التليفون جالسا في " الكابيذ ـة " شد ـاحب الوجـ ـه، وجفونه مغلقة كأنه أسلم الروح، نقر على الحـ ـاجز ع ـدة مرات فتح عينيه وفركهما وهو ينظر إليه كأنه لا يصـ ـدق أن أحدا جاء إلى المقر في هذا الجو، خاطبه قائلا:

" مساء الخير يا " محمـ ـد " الـ ـدكتور " أمـ ـين الصيرفي " موجود؟

قال:

لا لم يحضر.

قال:

متأكد؟ عندي معه موعد.

هز كتفيه كأنه يقول له هذا شأنك، ثم قال:

يمكن أن تنتظره في غرفته إن أردت، آخر باب على اليمين في الطرقة.

توقف لحظة في قاعة الاحتفالات الكبيرة، لم يتغيـ ـر شيء فيها، ما زالت تضنيها المصابيح الهابطة من السقف بضوء أصفر.

ما زال التمثال الخشبي الضخم لعبد الناصر يتطلع إلى الأفق بنظرة بعيدة صارمة، مقاعد القش مكومة في الركن استعدادا لما هو قادم، واللافتة المصنوعة من قماش أبيض يتدلى طرف منها قرب الأرض بينما الطرف الأخر ظل معلقا قرب السقف كأنه لم يصدر قرار بإنزالها بعد، قرأ الحروف السوداء، والحمراء المكتوبة عليها " نؤيد الرئيس في قراراه الجريء "، انتخابات حرة بإشراف القضاء طريقنا إلى المستقبل؟ المنضدة الطويلة ما زال عليها الغطاء الأخضر تهدلت أطرافه، وتناثرت عليه بقع الشاي والقهوة، تحت اسلم غرفة " البوفيه " فيها حوض، ومبرد، وموقد للغاز، و وعاء كبير من البلاستيك لإلقاء الفضلات، والي جوارها الباب المفتوح للمراحيض تفوح منه رائحة بول نفذت إليه فاستأنف السير، عبر الصالة من ناحية اليمين، وسار في الطرقة اصطفت على جانبيها الأبواب المغلقة، على كل منها ورقة ألصقت بالدبابيس وكتب عليها بخط اليد " رئيس الحزب "، " الأمين العام " " أمين العلاقات العامة " " أمين التنظيم " " أمين الانضباط " توقف أمام الباب

الذي أشار إليه عامل التليفون، حملق في الورقة كتب عليها " رئيس التثقيف والشئون العلمية " .

نقر على الباب مرتين، لم يسمع شيئا، ضغط على المقبض لكن الباب لم ينفتح فدفعه بكتفه ليجد نفسه فجأة داخل الحجرة، تأملها صغيرة متربة فيها مكتب من الصاج فوقه بعض الأوراق، وثلاثة مقاعد، وشنن انخلعت منه أحد أدراجه، لمح بعض المجلات على الأرض فانحني ليلتقط واحدة منها، على الغلاف قرأ اسمها " العلم المعاصر " سحب أحد المقاعد وجلس أحس بالضيق يتصاعد في صدره، فأخذ يتصفح المجلة ليلهي نفسه، لفت نظره ملف بعنوان " الموسيقى والجسم " فاستغرق فيه لم ينتبه إلا عندما فتح الباب ليدخل " أمين الصيرفي " رفع رأسه وحملق في وجهه فارتبك، بدت عليه الدهشة كأنه لم يفطن إلى شخصية الجالس أمامه ثم تمالك وقال بسرعة:

" أوه، دكتور " يوسف " أنا في غاية الأسف، أعتذر عن هذا التأخير ففي آخر لحظة، وأنا ذاهب للنزول طلبني رئيس المجلس، وظل يتحدث إلي ما يقرب من ساعة فلم أملك أن استأذن منه " .

أعاد المجلة إلى مكانها و وقف، أحس كأنه سقط فجأة من قمة مثيرة ليقع في هذه الغرفة ينطق كل ما فيها بالقبح، لمع وجهه العجوز المنكمش كالقرد تطل عيناه من خلف النظارة الأنيقة، هل ينصرف، ويتركه دون أن يرد عليه؟ أم يلعنه بكل الكلمات البذيئة الجارحة التي تطن في رأسه كالقذائف تريد أن تنطلق منه، إلى متى سيظل عبدا لهذا البحث اللعين؟ لماذا لا ينطق بالكلمات التي تتصارع لتخرج منه فتختفي إلى الأبد تلك الابتسامة المنافقة التي لا تترك شفتيه، إلى الجحيم بالبحث، وبكل ما يتعلق به، شعر بالنبض يدق في رأسه بكل توترات الساعات والأيام الماضية تجمعت في هذه اللحظة التي يطل فيها على هذا الوجه ينطق بالرضا عن النفس، وعلى العينين تذبذبان خلف الزجاج مثل كرتين من الصلب، عقله يقول له اهدأ، سبع سنوات من الجهد.

تحمل لا تترك هذه الفرصة، خطوة بسيطة أخرى ربما تصل بها إلى شيء، " إسماعيل " على حق، علمته بالسياسة، ثم هذا الرجل ما ذنبه؟ عانى معك في السجن.

قال بهدوء:

كان يمكن أن تقول له إن عندك موعدا، لـ و كانـ ـت تلك مصلحة في هذا اللقاء لجئت على جناح السرعة.

امتقع وجهه لحظة ثم عادت الابتسامة الودودة إلى شفتيه.

قال:

" لا . . لا . أنت تعرفني، أصدقائي يلومـ ونني دائما لأنني أهتم بأشياء كثيرة على حساب نفسي، ثم كيـ ـف تقول إنك لا تهمني؟ نحن زملاء منذ سنوات طويلـ ـة، فـ ـي السجن، وفي الحزب، وفي العلم وأنت رجل لـ ـك مكانـ ـة لا يمكن إنكارها، اجلس، اجلس، اجلس.

أرجوك أنا آسف جدا، ليتني هبطت من المكتب قبل الموعد بمدة.

قلت لنفسي الشوارع خالية بسبب هذه الموجة مـ ـن الحر، رئيس المجلس رجل ممتاز لكنه يتمسـ ـك بالشـ ـكليات أحيانا، للأسف لا يوجد أحد فـ ـي المقـ ـر ليسـ ـعفنا بشـ ـيء نشربه فلا بد انك تعبت في هذا الجو " .

قال:

ليس هذا مهما.

قام إلى مفتاح المروحة المثبتة في السقف، أدارها لكن المروحة لم تتحرك، نفخ وقال:

تصور المروحة أيضا لا تعمل.

عاد يجلس خلف المكتب، لمح المجلة المفتوحة فوق المقعد قال:

كنت تقرأ في ملف " الموسيقى والجسم " ممتاز، أنا مغرم بمثل هذه الموضوعات تربط بين العلم والفن، للأسف ما زال أفق العلم في بلادنا محدودا، لكننا نحاول ونحاول لكن أنت ما هي أخبارك؟ لم نرك منذ مدة طويلة يا دكتور " يوسف " اللجنة العلمية افتقدتك عندنا مشاريع كثيرة كنا نود أن تشاركنها فيها، هل رأيت النشرة التي أصدرناها؟ صدر منها حتى الآن عددان، وهذا هو العدد الثاني " مد يده بورقتين مصقولتين، على الصفحة الأولى صورة رئيس الجمهورية، ورئيس الحزب، " جمعية نداء العلم " تحتفل بالحاصلين على جوائز الكيمياء، كلمة " وزير البحث العلمي والتكنولوجية " وتعقيب الدكتور " نزيه النادورجي " رئيس الجمعية.

مقال " البحث العلمي والتنمية المسد تقلة " بقلد م الدكتور " أمين الصيرفي " نائب رئيس المجلس الأعلد ى للبحث العلمي، دراسة عن " الجينوم "، ومستقبل الإنسد ان العربي " أعدها الدكتور إدوار الزغبي " رئيس قسم علد م الوراثة بجامعة شيكاغو الأمريكية ترجمة الباحثة " هـ دي أمين الصيرفي " تصفحها بسرعة و وضعها على المقعـ د فوق المجلة فانزلقت على الأرض، مال ليلتقطها فقال:

اتركها، عندنا نسخ كثيرة لم نوزعها بعد، كنا نأمل أن تكتب لنا شيئا في العدد الأول عن عمل فريـ ق البحـ ث الذي تقوده والنتائج التي توصـ لتم إليهـ ـا، لحسـ ن الحـ ظ الدكتورة " عفاف المنزلاوي " تطوعت، و كتبـ ـت عرضـ ـا شيقا عن هذا الموضوع بعنوان " علماء مصريون وآفـ ـاق جديدة في علم الكيمياء " أشارت فيه إلى أهمية الاكتشاف الذي توصل إليه الفريق، والي الدور الذي لعبتـ ـه الأجيـ ـال الجديدة، للأسف ليس لدي نسخ منه الآن، ألـ م تعـ ط لـ ـك نسخة؟ باحثة علمية من طراز نادر الـ دكتورة " عفـ ـاف " وإنسانة تتميز بالشجاعة، والإخلاص في كـ ـل مـ ـا تفعلـ ـه، وكذلك الدكتور " عبد الفتاح " ممتاز ممتـ ـاز، كانـ ـت لـ ـه

ارتباطات بالأصوليين لكنه رجل مجتهد، وذو خبرة طويلـ ـة في مجال البحوث الكيميائية، لا بد أنك تعتمد عليه كثيرا في العمل، لو كان عندي من أمثالهما!! أنا مثقل بالمسـ ئوليات، ولا أستطيع أن أتخلي عنها، المجلـ س الأعلـ ى، ومجمـ ع علماء الكيمياء، وجمعية المرأة الحديثة واللجنة التنفيذيـ ـة العليا، لكن أنا سعيد برؤياك، بهذه الفرصة لكي نتحدث فـ ـي البحث العلمي بعيدا عن كل هذه المشاغل، فهو عشق حياتي لا أستطيع أن أنساه أبدا " .

قاطعه قبل أن يستطرد:

يا دكتور " أمين " لا أريد أن آخذ من وقتك أكثـ ـر من اللازم، لم أقرأ ما كتبته " الدكتورة عفاف " عن عمل الفريق لكن ربما فاتها أن تذكر أنني صاحب الاكتشاف الذي توصلنا إليه.

الفريق ساعدني في بعض التفاصيل المكملة له، لكن ليس هذا هو الموضوع الذي جئت لأعرضـ ـه عليـ ـك، أنـ ـا مواجه بوضع خطير، هناك شركة متعددة الجنسية مركزهـ ـا الرئيسي في أمريكا تبذل محاولات للاستيلاء على الاكتشاف الذي توصلت إليه، اسم هـ ـذه الشـ ـركة " تكنـ ـو سـ بايس

كيميكالز كوربوراشون " الأخطر من هـ ذا هـ و أن هـ ذه الشركة لها اتصالات بسلطات عليا فـ ي بلادنـ ـا، وأن هـ ذه السلطات أخذت تهدد كل من لا يستجيب لأغراض الشـ ـركة، ترتب على ذلك انسحاب " الدكتور عبد الفتاح " وكذلك " الدكتورة عفاف " منذ أسابيع من فريق البحث خوفـ ـا مـ ـن الأضرار التي يمكن أن تقع عليهما.

لم يتبدل في الوجه المطل عليه شيء كأنـ ـه صـ ـبة مصنوعة تغطي الملامح المختفية ورائها، حتى الابتسـ ـامة المحايدة ظلت كما هي:

أنا أعرض هذه المشـ ـكلة عليـ ـك بصـ ـفتك رئـ ـيس المجلس الأعلى للبحث العلمي، حتى تساعدني على حمايـ ـة حقوقي وحقوق المركز الذي أعمل فيه، ولأنك زميل قـ ـديم في الحزب الذي أنتمي إليه، وهو حزب يدعي الدفاع عـ ـن المصالح الوطنية، ولأنك أنت نفسـ ـك تـ ـدافع عـ ـن فكـ ـرة الاستقلال في البحث العلمي.

حرك النظارة إلى أعلى فوق أنفه وقال:

أنا سعيد جدا بسماع هذا الكلام، وأؤيدك فيه علـ ـى طول الخط، لا نستطيع أن نتغاضى عن خبرتنا الطويلة فـ ـي

هذا المجال وعما يحدث في هذه الأيام لذلك لا بد أن نعمـ ل ما في وسعنا للدفاع عن حقوقك، وحقوق المركـ ز وجميـ ع من فيه من الباحثين.

بهذا وحده نثبت أننا نسعى إلى تدعيم البحث العلمي في بلادنا بالفعل، إنها مسألة تتجاوز مصلحة الأفـ راد إلـ ى المصالح الوطنية العليا للبلاد، إلى مصر كلها، و وضـ عها كبلد عريق بدأت فيها الحضارة منـ ذ آلاف السـ نين إنهـ ا معركة خضناها طويلا، معركة العمر، ومن أجلها أضع يدي في يدك، وفي يد كل شريف، لكن في الوقت نفسه " ضيق عينيه كأنه ينظر إلى بعيـ د " يجـ ب أن نخوضـ ها بـ ذكاء وبحكمة تتسم بالمرونة حتى لا نخسر قضيتنا، أنت شـ اهد على المأزق الذي وقعنا فيه، وعلى الأخص نحن المفكرين، التيارات الأصولية منيت بضربات لكنها مـ ا زالـ ت قويـ ة تعشش في مختلف المجالات، أنا لا أوافق على كثيـ ر مـ ن التوجهات السياسية للنظام، ولكن في المرحلة الحالية يوجد خصم أخطر منه بكثير، الأصولية لن تتوقف عـ ن سـ عيها للقفز على السلطة وهذا يجعل مسألة التعامل مع النظام في منتهي الحساسية.

يجب أن نحافظ على علاقتنا به، وبـ دعهما، نحـ ن على أبواب انتخابات جديدة، والسـ لطة حريصـ ـة علـ ى أن تحدث تغييرا، وأن تمنع الأصوليين من تحقيق مكاسب فيها " . صمت لحظة كأنه يحاول أن يرى أثر كلامه، سـ ـألته " أنت معي في هذا أليس كذلك؟ "

أحس بالتوتر يصعد فيه من جديد:

يا دكتور " أمين " استمعت إلى ما قلته، لكن مـ ـا دخل كل هذا بما عرضته عليك، أنا تحدثت معك عن بحـ ـث علمي مهم قمت به وأريد أن أحافظ على حقوقي فيه وعلى حقوق المركز الذي أنتمي إليه حتى يسـ ـتفيد منـ ـه أفضـ ـل استفادة ممكنة، لكنك أدخلتني في متاهات الحركة الأصولية، وعلاقتنا بالسلطة، وأشياء أخرى من هذا القبيل " .

زحفت على ابتسامته مسحة من التعالي كأنه يشفق عليه قال:

يا صديقي طوال عمرك شخص مثـ ـالي، لا تحسـ ـن التعامل مع الواقع، المسائل متداخلـ ـة متشـ ـابكة لا يمكـ ـن الفصل بينها، أنت رجل علم تدرك هذه الحقيقة، جوهر العلم

هو اكتشاف العلاقة بين الأشياء، وهي علاقة ديناميكية متغيرة على الدوام.

البحث الذي حدثتني عنه موضع اهتمام كبير في قمة السلطة، وليس من الحكمة أن نناطحها فيها، ثم ربما هناك أبعاد لا تدركها، الحزب لا يستطيع أن يجازف في مسألة تفصيلية مثل هذه خصوصا في هذا الوقت، فلا يستطيع أن يخاطر بما هو أهم بكثير من حقوق باحث علمي فرد، إننا نتحدث هنا عن مرشحين، وأصوات، عن مستقبل بلد بأكمله، عن ملايين من المواطنين رجالا ونساء يكدحون من أجل لقمة العيش، عن وضع مصر في الصراع، وفي التقدم العالمي، أنت يا دكتور " يوسف " انعزلت في معملك بعيدا عن الكفاح اليومي للجماهير، العزلة خطيرة تجعل الإنسان لا يرى إلا بزاوية ضيقة تتعلق بنفسه، الانكباب على العلم وحده لا يكفي، طوال عمري جاهدت حتى لا أنعزل في ركن.

أكاد أنوء تحت ثقل الأعباء الواقعة علي، ومع ذلك أرفض التخلي عن أي مجال أنا فيه، أجري هنا وهناك طوال النهار والليل حتى أحافظ على الروابط والعلاقات التي

أقمتها في المؤسسات والهيئات المختلفـ ـة وحتـ ـى أوفـ ـي بواجباتي فيها " .

أحس بالدماء تندفع إلى رأسه، بـ ـذل جهـ ـدا حتـ ـى يحتفظ بهدوئه:

السياسية التي تؤدي إلى التخلـ ـي عـ ـن مطالـ ـب، وحقوق الناس جردتنا من كل شـ ـيء مـ ـن القـ ـدرة علـ ـى المقاومة، والتغيير جردتنا حتى من الأمل، إذا تخليتـ ـا عـ ـن الناس لابد أن ينفضوا عنا. . لنصبح بلا قوة في مواجهـ ـة الذين يملكون كل شيء وفي مواجهة القوة الأصولية التـ ـي تستغل متاعب الناس لتعيدهم إلى التفكير والتصرف السلفي، البحث ليس إلا مثل واحد مما يجري في بلادنا كـ ـل يـ ـوم، المسألة مسألة موقف. . . هل نقاوم أم نستسلم.

سواء في البحث العلمي أو في غيره، أنت تدعوني إلى الاستسلام جاءت أيام فكرت فيه، لكن قررت انه لـ ـيس طريقي، ربما لذلك افترقنا منذ زمن بعيد.

تقلصت الابتسامة حتى كـ ـادت أن تختفـ ـي، عينـ ـاه الضيقتان تتذبذبان خلف الزجاج الكبير، وأصـ ـابعه تمـ ـزق قطعة من الورق إلى شرائط رفيعة.

قال:

أنا مثلك تماما، لست راضيا عن الطريق الذي سرنا فيه، ولا أتوقف عن بذل الجهود بالوسائل المتاحة لي، لكن ليس شرطا أن أتصرف مثلك يا أخي، نحن مختلفان ويجب أن نتعلم كيف نتعامل مع الآخرين. . . مع " الـ ديفرنس " كما يقول " فوكر " و " دريـ دا " . . بالمناسـ بة، هـ ل استمعت إليه عندما زار مصر:

إني أسألك . . . هل أنت على استعداد لعمل شيء في هذا الموضوع؟

مثلا؟

أن ننظم ندوة نطرح فيها القضية، ونتحـ دث عمـ ا يحدث في هذا البحث على وجه التحديد، وإن تتبنى جريـ دة الحزب هذا الموضوع؟ " .

لا بد أن أستشير رئيس الحزب قبل أن أرد عليك، لا أستطيع أن أتصرف وحدي.

ومتي ترد علي؟

في بحر أسبوع، لكن سمعت انـ ـه موجـ ـود فـ ـي " مارينا " الآن، فإذا اضطررت إلى انتظـ ـار عودتـ ـه ربمـ ـا احتجت إلى أكثر من أسبوع.

مد يده وسلم عليه، سار في الطرقة، وعبر القاعـ ـة الكبيرة، في " الكابينة " كان عامل " السويتش " لا يزال يغلق عينيه، هبط السلم تردد الوقع الخشن لخطواتـ ـه فـ ـي سكون الليل كأنها تهزأ به وبما أقدم عليه.

(٢٠)

جاءه صوت " إسماعيل " في التليفون كأنه يتحدث من الشارع:

أنا " إسماعيل " يا " يوسف "، أنا عند الميكانيكي السيارة تعطلت وإصلاحها يتطلب أن تبيت عنده في الورشة: أريد أن ألتقي بك اليوم ضروري، " الأسطى حسنين " سيوصلني بسيارته حتى مقر الاتحاد. يمكنك أن تمر على هناك. . في الليل؟ لا. . . أريدك قبل الساعة الرابعة بعد الظهر لنذهب سويا إلى البيت بسيارتك. باكرا. . . لا . . . اليوم. . . مسألة مهمة لا تقبل التأجيل. . . أنت عارف. . . عندما تأتي سأقول لك السبب. . . لا داعي للقلق صدقني.

منتظرك في الثالثة والنصف بعد الظهر . . لا تتأخر.

كان عنده موعد في الساعة الواحدة مع باحثين جديدين ألحقا بالفريق، ظل قلقا بسبب المكالمة التي تلقاها من " إسماعيل " وأحس بالراحة عندما رأى الشاب والشابة يدخلان من الباب.

فارق بين ملامحها المشرقة وبين وجهي الدكتور " عبد الفتاح " والدكتورة " عفاف " يقطعان الخميرة من البيت. كما كانت تقول جدته وهي تلقي برأسها إلى الوراء، وتضحك ملء شدقيها، في الثلاثينيات من عمرها، هو نحيل، أسمر، صامت قليلا يشعر أن في داخله وتر مشدود، وهي قمحية اللون، ممتلئة الجسم فيها مرح رغم الجدية التي تطل من عينيها السوداوين، لمحهما ينظران إلى بعضهما كأن بينهما سرا.

في البداية كانا يتصرفان معه بشيء من الاحترام المبالغ فيه لكن سرعان ما ذاب الجليد عندما أخذ يسألهما عن حياتهما، وعن أفكارهما حول العمل، وهما يشربان من القهوة ويأكلان من فطيرة الذرة، التي أعدها له " مبروك " قبل أن يغادر البيت.

انتهى اجتماعه بهما قرب الساعة الثانية فأخذهما معه للمرور على أقسام المعمل وتقديمهما لباقي العاملين ثم تركهما وتوجه إلى صالة الاختبارات الخاصة بأبحاث الفريق ليراجع مع مساعديه بعض الخطوات الخاصة بأبحاث العاملين، ثم تركهما وتوجه إلى صالة الاختبارات الخاصة

بأبحاث الفريق ليراجع مع مساعديه بعض الخطوات التـ ـي طلب منهم القيام بها، بعد أن اطمأن على طريقـ ـة تنفيـ ـذها عاد إلى مكتبه، خلع المعطف وارتدي سـ ـترته، ثـ ـم أخـ ـذ الحقيبة والترموس، وتوجه إلى المصعد، في الساعة الثالثة والثلث توقف بالسيارة في مساحة تركت خالية أمام العمارة رقم ٢٧ في شارع الترساوي، فوجئ بوجه أسمر يطل عليه من النافذة وبعين وحيدة ترمقه بيقظة.

سمع صوت الصبي يقول:

ألا تتذكرني يا بك. . . أنا محمـ ـوبك " عـ ـزوز " الشهير " بالوولف " .

فتح له الباب ليخرج منه، ثم أمسك بالأكرة وأدارها دورات سريعة ليرفع زجاج النافذة تاركـ ـا فتحـ ـة صـ ـغيرة أعلاها ليدخل منها الهواء، كان يرتـ ـدي عفريتـ ـة رماديـ ـة اللون، على رأسه " كاب " ارتداه بـ ـالعكس ومـ ـن جيـ ـب العفريتة تدلت فوطة صفراء اللون، رفع قامته وقال كأنـ ـه يرد على تساؤل لمحه في عينيه:

الأستاذ " إسماعيل " عينني حارسـا علـى مقـر الاتحاد، على سيارات الذين يجيئون إليه، هل أرشـها لـك بالخرطوم سأجعلها تلمع كأنها جديدة؟

ضحك:

لا مانع يا " وولف " خذ المفاتيح، ربما اسـتطعت أن تزيل التراب الذي تراكم داخلها.

كان " إسماعيل " جالسا خلف مكتبه فـي الغرفـة الصغيرة ومن حوله بعض المعاقين، سلم عليهم باليـد مـا عدا فتاة كانت جالسة على المقعد وحول يديها أربطة مـن الشاش، أشار إليها " إسماعيل " قائلا:

هذه " فتنة " أجريت لها عملية فـي يـديها حتـى تصبح قادرة على اسـتخدامها بعـد أن ولـدت وأصـابعها متلاصقة فكانت عاجزة عن تحريكا، بعـد أن تشـفي مـن العملية سندربها لكي تكتب على الكمبيوتر، وتقوم بأعمـال السكرتارية في الاتحاد، أو ربما تستطيع أن تدرس أشـياء أخرى.

هزت الفتاة رأسها في حماس؟ فرقصت ضـ فيرتاها المربوطتان بشريط أحمر، وأشرقت الابتسامة في وجههـ ـا، قال " إسماعيل ":

قبل أن تحضر كنا نناقش تنظـ يم مسـ يرة صـ امتة لمجلس الشعب لتقديم مطالب المعاقين، ربما اسـ تطعت أن تجمع لنا بعض التبرعات وأن تساعدنا على النشر عنها في صحيفة حزب الوفاق، بعض الزملاء يقترحـ ون أن نتقـ دم بمشرح من الاتحاد عن دائرة " البستية " في الانتخابـ ات المقبلة، فما رأيك؟

قال ضاحكا:

هذا الاقتراح مفصل على مقاسك يا " إسماعيل "

قال: لا يا دكتور " يوسف " نحتاج إلى شـ ـاب أو ربما شابة.

صمت لحظة، نظر إلى ساعته، ثم موجها كلامه إلى الجالسين قال:

" يا جماعة. . . أستأذنكم في أن أجلس قليلا مـ ـع الدكتور " يوسف " ولنتحـ دث فـ ـي موضـ وع خـ ـاص. . سأراكم باكر في موعدنا المعتاد "

انتظر حتى انسحبوا الواحد تلو الآخر ثم قال:

اغلق الباب حتى لا يدخل علينا أحد، آه قبل أن تغلقه ماذا تشرب؟

قال: لا شيء.

أغلق الباب وعاد إلى جلسته على الأريكة قال:

إسماعيل: هه كيف حالك؟ تبدو أكثر راحة من المرة السابقة.

رمقه بنظرة متسائلة، هل هناك جديد؟

قال: لا . . أبدا.

يا رجل!!! أعرفك منذ ثلاثين سنة خبزتك وعجنتك وبالمناسبة ما هي حكاية العشاء في فندق الأوبروى؟ سألتني من أين عرفت، المسئول عن الأمن هناك كان معنا في السجن.

في قضية سياسية؟

لا في قضية نصب لكنه بريء منها، وأعيد إلى الخدمة اسمه اللواء " محمد المنجد " . ربما لا تتذكره لكنه يعرفك. . . ألتقي به في النادي اليوناني بين الحين

والآخر، قال لي إنك كنت مع امرأة سد مراء، ف ي منته ي الجمال، وصفها بأنها تشبه ملكة أو إلهة في قديم الزمان. .

لم يعلق فاستطرد:

علي أية حال، لم أطلب منك أن تجيء، لنتحدث عن غرامياتك، هناك ما هوت أهم " حملق فيه ثم قال: نجوى " اتصلت بي، وطلبت مني أن أرتب لقاء بينك وبينها عن دي في البيت إن أمكن " .

دارت الغرفة دورة واحدة كاملة من حوله، أصبحت كل الأشياء عائمة كأنه يسبح في بحر من اللا إحساس ف لا يعرف هل يبكي أم يفرح، مرت سنة منذ أن رآها آخر مرة، كان على وشك الاتصال بها، والآن هيا لتي سعت إليه، يرى عينيها العسليتين ترمقانه في تسد اؤل، أخير را سد يراها. . أخيرا انتهت الليالي التي كان يقضيها وحده، ف ي الصد باح سيجدها راقدة إلى جواره، يكاد لا يصدق، شعر بموجة من الفرحة العارمة تزحف عليه، تحتويه، تقلب كيان ه رأس ا على عقب. . سأل بصوت فيه غصة:

متى اتصلت بك؟

بالأمس في ساعة متأخرة من الليل؟

صمت كأنه سرح في شيء.

ومتى يمكن أن نلتقي بها؟

اليوم إن أردت في الساعة الثامنة مساء، طلبت مني أن أتصل بها بعد الرابعة، لم تكن متأكـ ـدة أنـ ـك سـ ـتوافق، تملكه إحساس بالرضا، انه يريد أن يطير إليها، أمـ ـا هـ ـي فتركته ينتظر سنة.

يمكن أن يؤجل اللقاء بضعة أيام، رمقه " إسماعيل " كأنه يقرأ أفكاره قال:

قلت لها إنك لا شك ستفرح بلقائها.

لماذا يتطوع طوال عمره وهو متحيز لها، لا داعي لأن " يندلق " بسرعة، رأى " سـ ـلما باتشـ ـينو " تميـ ـل عليه، لمح العينين الزرقاوين في الوجه الأسمر واستنشـ ـق عطرها لحظة ثم اختفت صورتها لكـ ـن فـ ـي أعماقـ ـه ظـ ـل الإحساس البعيد بوجودها.

سأله " إسماعيل ": هه ماذا قلت؟

قال: طبعا موافق.

نطق الجملة ثم أحس فجأة بالتوجس، سأله:

ألم تقل لك شيئا عن الغرض من هذا اللقاء؟

قال: لا.

ولا كلمة تستطيع أن تستنتج منها شيئا.

قال: ولا كلمة، ستعرف عندما تلتقي بها.

أتريد شيئا آخر قبل أن اتصل بها؟

هتف في انزعاج:

هل ستكلمها الآن؟

طبعا ما الداعي للانتظار؟

قال: لا أعرف. . بعد كل هذه المـدة. . أكـاد لا أصدق، وفي الوقت نفسه أشـعر بـالقلق. . ربمـا هـي المفاجأة هل أكلمها أنا أيضا؟

أما أنت غريب!! هل يعقل ألا تكلمها، إلا إذا كانـت تريد أن أخفي عليها وجودك معي.

لا. . لم تخطر هذه الفكرة على بالي.

طلب الرقم، وانتظر، سمعه يقول:

" نجوى " أنا " إسماعيل " أين أنت؟ . . . فـي البيت. . " يوسف " موجود معي الآن. . وهـو يرحـب بأن تلتقيا عندي اليوم في الثامنة مساء ويريد أن يكلمك.

أعطاه المحمول قال:

" نجوى " ثم صمت، لم يسمع شيئا قـ ـال: " أنـ ـا يوسف " لا تتصوري كم أنا سعيد بأننا سنلتقي الليلة.

سمعها تقول: وأنا أيضا سعيدة يا " يوسف " . . . وحشتني.

بحث عن شيء يقوله فسألها:

هل أنت كما أنت أم تغيرت؟

بدا له أن ضحكاتها ترقص عبر الفضاء.

سترى عندما نلتقي

قال: في الثامنة مساء عند " إسماعيل "

قالت: نعم يا يوسف في الثامنة مساء.

قال: تصبحين على خير.

قالت ضاحكة: يا " يوسف " هـ ـذا لـ ـيس ميعـ ـاد نومي، ثم أنسيت أننا سنلتقي بعد ساعات؟

قال: إذن إلى اللقاء.

أعطى المحمول إلى " إسـ ـماعيل " قبـ ـل أن تـ ـرد عليه، قال " إسماعيل " .

اتفقنا يا نجوى سننتظرك عندي في البيت.

جلس على المقعد صامتا اخرج " إسماعيل " نوته من جيبه وأخذ يقرأ فيها، ثم قال:

سأذهب لأنهي بعض الأعمال، انتظرني حتى أعود.

ظل يحملق في الفراغ دون حركة، ثم قام ونزع ورقة من " بلوك نوت " ترك على المكتب وكتب عليها.

عزيزي " إسماعيل ": ذهبت لأتريض قليلا وسأعود في السابعة.

" يوسف " .

عندما هبط إلى الشارع وجد " الوولف " واقفا إلى جوار السيارة قال:

انظر. . . كأنها جديدة.

ثم مسح على الزجاج بالفوطة فأخرج من جيبه جنيهين وأعطاهما له قال:

سأتريض قليلا ثم أعود.

رمقه بنظرة من عينه، وسأله:

أتريد أي شيء.

قال: لا شكرا.

سار في الشارع دون أن يدري إلى أين، الأفكار تتزاحم في رأسه تائهة مثل خطواته في الشارع، ترى لماذا تريد أن تلتقي به؟ هل ترغب في أن يعودا كما كانا؟ لا بد أنها فكرت في هذا وإلا لما طلبت هذا اللقاء، لكن ربما هناك سبب آخر، قد تكون مريضة، لكن " إسماعيل " لم يقل له شيئا، لو كانت مريضة لما أخفي مرضها عنه، أو ربما تحتاج إلى نقود.

مستحيل تموت ولا تلجأ إليه لتطلب منه مالا.

ظل يجوب الشوارع ازدحمت بعربات الكارو، وسيارات النقل، والأدوات المرصوصة أمام وكالات البيع، وأعمال الحفر الجارية فيها، والمخلفات الملقاة على قارعة الطريق. على الجانبين ورش الخراطة، والنجارة والحدادة ومخازن الخشب، والحديد، ومواد البناء، والمواسير، عندما قاربت الساعة على السادسة والنصف سأل عاملا في أحد المقاهي ليتأكد من الطريق إلى المقر. وفي السابعة إلا خمس دقائق كان يصعد السلالم من جديد.

في السيارة تبادلا بضع كلمات ثم لاذ بالصمت، وانشغل بالطريق، وبعد قليل نام " إسماعيل " فأحس

بالراحة، كان الشغال ينتظرهما أمام البيت ليساعد " إسماعيل " على الصعود، استقرا في حجرة الجلوس، وبعده بدقائق دق جرس الباب فقفز قلبه تحت الضلوع، خرج " إسماعيل " ليستقبلها عند الباب، سمع صوتها وهي تقول:

يا " إسماعيل " كيف أحوالك، يبدو لي أنك تحسنت كثيرا.

لم يسمع رد " إسماعيل " رآها وهي تميل عليه، وتحتضنه، ثم توجهت إلى الحجرة التي كانت ينظر فيها، عندما رأته توقفت فوقف على قدميه، ظل كل منهما ينظر إلى الآخر دون أن يقول شيئا، لمح عينيها الواسعتين تتأملانه في هدوء، قال " إسماعيل ":

ما لكما كأنه حط على رأسيكما الطير؟ ما الذي تنتظرانه بعد كل هذه الشهور. . لا حضن، ولا قبلة، ولا أي شيء؟

تقدم نحوها خطوتين مد يده إليها فسلمت عليه، اقترب منها ولف ذراعه حولها فأحس بها تبتعد بجسمها عنه، قبلها على خدها قبلة سريعة، وتراجع عنها، تحركت

نحو المقعد القريب وجلست عليه، لا حظ أنها عندما جلست وضعت يدها على المسند وهي تهبط بجسمها.

تأملها، لم تتغير العينـان العسـليتان، مـا زالـت نظراتهما صافية كما كانت دائما. . والأنف ما زال يرتفـع طرفه في تحد تاركا مساحة لشفتيها الممتلئتـين، والشـعر الكستنائي ما زال يبرق في الضوء، لم تفقد شيئا من وجود المرأة الواثقة من نفسها، بدت أكثر استقرارا أو نضجا كأن السنة التي مضت أضافت إليها.

ومع ذلك هناك شيء، نوع من الصـفاء الحـزين، كأنها مرت بصعاب ارتفعت فوقها فأصبحت كالطائر يحلـق بعيدا، لاحظ أن جسمها امتلأ عند بطنها وأنها ترتدي ثوبـا فضفاضا واسعا يستتر فيها.

اختـرق " إسماعيل " الصمت قائلا:

سأبتاع علية من " الآيس كريم " مـاذا تفضـلان سادة أم مشكل؟. . وإذا كانت سادة ماذا تختـاران لـبن، شيكولاته، فراولة، أم مانجا؟

قالت ضاحكة:

" مستكة " نظرت إليه، وأنت يا " يوسف " ؟

بدا له أن صوتها أصبح له رنين أعمق.

قال: " مستكة. . مثل " نجوى " .

ابتسمت في سرور قال " إسماعيل ":

سأنسحب أنا، وأترككما لتتحدثان سويا، سـ يأتي " الآيس كريم " حالا. . أنا أفضل أن آكل " الآيس كـ ـريم " وحدي حتى لا يحاول أحد مشاركتي في نصيبي.

لمح ظهره وهو يخرج من الغرفة، أصبح عريضـ ـا تتحرك عضلاته بقوة تحت القميص مع كل دفعـ ـة يعطيهـ ـا لعجلتي المقعد، أصبحا وحدهما أخرج منديلا مـ ـن الـ ـورق ومسح نقاط العرق من على جبينه قال:

الغرفة مكتومة.

قالت: افتح النافذة .

فتحها وجلس:

تأملته لحظة ثم قالت: يا يوسـ ـف. . لا بـ ـد أنـ ـك تتساءل لماذا طلبت هذا اللقاء.

غاص قبله، هذه البداية توحي أنها جـ ـاءت بسـ ـبب غير الذي كان في ذهنه، ربمـ ـا تكـ ـون مرتبكـ ـة فتخفـ ـي

مشاعرها خلف هذه الطريقة في المخاطبة، ظل صامتا ينتظر قالت:

أنا جئت اليوم. . . بلعت ريقها " لأنني أريد أن توافق على الطلاق " .

لم ينطق. . ظل ينظر إليها كأنه لم يسمع، قالت:

يا يوسف أنا لا أريد أن أزيد من جرحك، أن أضيف إلى كل ما قد تكون عانيته طوال السنة الماضية، ما زلت " تعثر صوتها " أحبك. صدقني. . لا. . لا تنظر إلى هكذا، أنا لا أكذب عليك، ما زلت أنا المرأة التي اختارتك دون غيرك لأنك رجل نادر، وإنسان جميل. . . الحب يتغير، يصبح مختلفا، إنه مثل كل شيء آخر. تعثر صوتها من جديد يمكن أن يتبدل فيصبح له طابع غير الذي بدأ به.

تنظر إليه في يأس كأنها لمحت الصدمة في وجهه، أو كأنها لم تعد تحتمل صمته، بذل جهدا، سمعت يسأل في صوت خافت:

لماذا إذن تطلبين الطلاق مني؟

زحفت بجسمها إلى الأمام فوق المقعد كأنها تتأهب لمواجهة، رأى يدها الشاحبة تضغط على المسند، قالت:

لأنني حامل.

بهت. . نظر إليها كالضائع، كأنه لم يعد يدرك ماذا يحدث له، قال في صوت نبرته ميتة:

حامل؟ كيف؟

أخذت نفسا عميقا.

كانت لي علاقة مع رجل.

أحس بالدماء تندفع إلى رأسه قفز إلى ذهنه السؤال سأل في غضب:

علاقة مع رجل وأنت معي؟

توقفت الكلمات في حلقه، كأن سيختنق مـ ـن شد ـدة الغضب ثم خرجت متحشرجة:

لذلك. . . لذلك طلبت أن ننفصـ ـل حتـ ـى تـ ـذهبي إليه. . . لم تفكري إلا في إشباع رغباتك، وضربت عرض الحائط بكل ما عشناه مع بعضنا.

نظرت في عينيه طويلا ثم قالت:

لا يا " يوسف " . . نشأت علاقتي بـ ـه بعـ ـد أن قررنا الانفصال، وإلا لطلبت الطلاق من وقتها، فـ ـي ذلـ ـك

الوقت كنت أريد أن يعيش كل منا بعيدا عن الآخـ ـر حتـ ـى نقرر بعدها ماذا يجب أن نفعله بزواجنا.

أحس كأن رأسه ستنفجر . ضغط عليـ ـه بيديـ ـه. . ألقى إليها بنظرة حانقة وسألها:

ومن عشيقك هذا المحترم؟

عيناها تصرخان لماذا لا تتركني لحـ ـالي، تمالكـ ـت نفسها، لا داعي لأن يعرف لا داعي لتغرس السـ ـكين فـ ـي جرحه. . رمقها جالسة في صمت تتشابك أصـ ـابعها فـ ـي عصبية، أصبح وجهها في بياض الثوب الذي ترتديه.

" أين الصراحة التي كنت تدعينها طوال عمـ ـرك؟ لماذا تتسترين عليه طالما وصلنا إلى ما وصلنا إليه؟ لا بـ ـد أن أعرف وإن لم تقولي لي من هم سأظل أبحث، لن تنجحي في إخفائه عني.

قالت: اسمه عصام.

عصام؟

نعم عصام، قالت في توتر هـ ـل أصـ ـبحت أطـ ـرش أيضا؟

حملق فيها فقد النطق. . يداه ترتعشان، بعد كل ما فعلته تتجرأ عليه، قام وخطا نحوها خطوة كأنـ ـه سـ يهجم عليها لكنه توقف، ثم أخذ يخط ـو فـ ـي الغرفـ ـة، سيسـ ـبب فضيحة في بيت ليس بيته " قال:

" عصام " . . أليس هو الشاب الذي قابلناه فـ ـي الشهر العقاري؟ هذا الصعلوك الشحاذ الذي لا يساوي شيئا، أهذا هو العشيق الذي صرت متيمة به؟ أهذا هـ ـو الإمعـ ـة الذي تركته يمتطيك ويدس عضوه بين ساقيك " .

صرخت:

" ليس من حقك أن تخاطبني بهذا الأسلوب البذيء أنت الإمعة الذي تحملته سنين من عمري، ضيعت شـ ـبابي مع رجل عاجز عن معاشرة امرأة مثلي، هذا الرجل الـ ـذي تتحدث عنه بهذه السوقية يساوي عشرة من أمثالك، إنسان فيه فن، ورقة شاعر يكتب أجمل ما سـ ـمعته بينمـ ـا أنـ ـت أصبحت فاقد النطق وفوق هذا شاب وسيم، وليس عجـ ـوزا متهاويا مثلك.

زعق: وأنا أيضا لا أسمح لك أن تخـ ـاطبيني بهـ ـذه اللهجة.

اذهبي إلى عشيقك، إلى الرجل الذي خنتني من أجله، لن أطلقك تريدين مني أن أطلقك حتى تتزوجي منه وهذا لن يحدث، أتسمعينني لن يحدث " .

رفعت رأسها وظلت تنظر إليه دون أن تقول شيئا، قال: أليس رجلا؟ لماذا يستتر من ورائك؟ لماذا لم يأت معك ليواجهني، هذا الفارس الجميل ذو العينين الزرقاوين ابن السفاح هو أيضا.

لمح الدموع تسقط من عينيها. . أخرجت منديلا ومسحتها قال:

هه لماذا لا تقولين شيئا؟ لماذا هذا الصمت الآن بعد كل ما نطقت به، إذا أردت أن أوافق على الطلاق لا بد أن يحضر هو معك ويواجهني . . هذا شرطي.

قالت:

إنه لا يستطيع أن يأتي.

نظر إليها في سخرية:

لماذا. . . لأنه جبان، رعديد لا يستطيع أن يقف أمامي. خائن مثلك.

قالت:

لا . . لأنه مات.

تراجع فجأة، وانهار بجسمه فوق المقعد، رفعت رأسها المحنية نحو الأرض، عادت الدموع تنهمر من عينيها كأنها لن تتوقف، لم تتحرك في المقعد، أو تخرج منديلا لتجففها، تركتها تسقط دون أن يصدر عنها صوت، وظل هو جالسا في المقعد ينظر إليها.

(٢١)

في الليل عندما يغلق عينيه يراها في أحضان الشاب، تنظر في عينيه الزرقاوين، تقبله، تلف ساقيها حوله، تشهق " يا حبيبي " ويتنفض جسمها، لا تشبع منه أبدا، ترقد فوقه، وتأخذه إليها، تعلو وتهبط فوق جسمه، تتلوى تعضه في كتفه، وتصرخ " أحبك "، ويظلان هكذا يتبادلان الأوضاع في بحث محموم عن قمة اللذة.

يبقى نصف نائم، نصف مستيقظ، والصور تتوالى في ذهنه، يرتدي ملابسه، ويهبط إلى الشارع في ساعة متأخرة من الليل، يمر أمام الحارس فيرمقه بنظرة فيها شك، يسير مسافات إلى جوار النيل، يجتاز الكباري ليعود من حيث جاء، يجد نفسه قرب عوامة تأتي منها أصداء الموسيقى، ودقات الطبل، ورنين الصاجات، تصعد منها الراقصات قرب الفجر، تتفرس إحداهن في وجهه بحثا عن صيد تختتم به السهرة، قبل أن تذهب إلى الفراش لتنام حتى غروب الشمس، يخطر على باله، أن يذهب معها ففي دمائه حريق ربما استطاع أن يطفئه في جسدها، لكن عندما يقترب منها يتردد، لم يضاجع مومسا إلا في شبابه أثناء

رحلة إلى اليونـ ـان، يتـ ـذكر شـ ـعرها الأحمـ ـر، وعينيهـ ـا الخضراوين وهي تميل عليه، يتذكر كل امرأة رغب فيهـ ـا ولم يرتو منها كأنه يضاعف الإحباط الذي يعاني منه ويوغل صدره ضدها، يتصور نفسه وهو يضاجعها غصـ ـبا عنهـ ـا، والشاب يشاهدهما في هذا الوضع، وتتكرر الصـ ـورة فـ ـي ذهنه المرة بعد المرة كأنه عاجز عن إيقافها، عـ ـاجز عـ ـن إطفاء رغبة للانتقام تغلغلت إليه.

في لحظات يشفق على نفسه من الماجور الذي هبط فيه، من الفساد يأكل في لحمه مثل الدود في المش، لكـ ـن الصور تقحم نفسها عليه.

توقف عن تناول الطعام الذي كان يعده له " مبروك " يضع الأطباق أمامه، وعندما يأتي ليحملها إلى المطـ ـبخ يجدها كما هي كأنه لم يمد يده إليها، يتأملها فـ ـي حـ ـزن، يحملها على الصينية وقبل أن ينصرف يلقي إليـ ـه بنظـ ـرة تقول " لو كنت أستطيع أن أنطق بشيء يخفف عنك " .

في الصباح يرتدي ملابسه، ثم يخلعها ويظل جالسا في حجرته، لا يريد أن يذهب إلى العمـ ـل أو يفعـ ـل شـ ـيئا، رائحة الخيانة في كل مكان مثل سحب التلوث الرابضة على

المدينة تخنقها، مر ما يقرب من أسبوع دون أن يهبط مـ ـن البيت إلا في جولاته الليلة يدور فيها في الشوارع كأنه يريد أن يرهق نفسه لعله يستطيع أن يختطف ساعة أو ساعتين من النوم قرب الفجر، أو كأنه ما زال يبحـ ـث عـ ـن امـ ـرأة مجهولة يطفئ فيها الحريق المشتعل في جسمه، قرب آخر الأسبوع استيقظ في الصباح بد سـ ـاعات مـ ـن النـ ـوم، دار بعينيه حول الغرفة كأنه لم يرها من قبل، أحس بنوع مـ ـن الهدوء عاد إليه، قام إلى الحمام، وحلق ذقنه، أخذ حمامـ ـا ساخنا وارتدى ملابسه، ثم توجه إلى غرفة المعيشة ليتناول إفطاره، لمح الابتسـ ـامة عـ ـادت إلـ ـى وجـ ـه " مبـ ـروك " وهويضع طاسة البيض المقلي أمامه كأنه يغريه بـ ـالخروج ولو مرة عن عاداته الغذائية الصارمة.

انتهى من إفطاره وقبل أن يقوم كتب له ورقة تقول:

عزيزي مبروك. . . شكرا على البـ ـيض المقلـ ـي، كنت في حاجة إليه، سأذهب إلى المعمـ ـل ثـ ـم إلـ ـى حمـ ـام السباحة في النادي لذلك لا أعرف متى أعود، تركـ ـت لـ ـك قميصين سقطت أزرارهما أرجو أن تخيطها، وتثبتها جيـ ـدا، عندما تذهب إلى السوق اشتر بطيخة، ومانجة " الفونس "

يمكنك أن تنصرف عندما تنتهي من أعمال اليوم، سـ ـأكتفي بوجبة خفيفة عندما أعود " .

وصل إلى مكتبه بعد التاسعة بقليل، وجد كومة مـ ـن الأوراق، والبريد إلى مكتبه قرأها ثم وضعها جانبا عـ ـادت الصور تتوالى في ذهنه، فبذل جهدا ليتخلص منهـ ـا، صـ ـب لنفسه قدحا من القهوة، وعاد إلى البريد من جديد، راجعـ ـه مرة أخرى خوفا من وجود أشياء فيها فاتت عليه، أحس أن عقله شارد. رأى " نجوى " تنظر إليه وتقول: " عصـ ـام شاب فنان، وأشعاره جميلة، ليس عجوزا فاقد النطق " .

أزاح الأوراق من أمامه، ارتدى المعطف الأبـ ـيض وخرج من الغرفة مغلقـ ـا البـ ـاب وراءه بعنـ ـف فانتفضـ ـت الفراشة التي كانت تلمع نحاس الأكر وتتبعته وهو يتجه إلى صالة الاختبارات كأنها تتوقع أن يحدث شيء.

عندما دخل كان الباحثان الجديـ ـدان جالسـ ـين إلـ ـى جوار النافذة مستغرقين في الحديث، فوجئا به واقفا يحملق فيهما، فانتفضا واقفين في حركة واحدة، قال:

صباح الخير المعمل ليس مكانا للثرثـ ـرة لمـ ـاذا لا تباشران العمل الذي طلبته منكما؟

ردت الفتاة:

انتهينا منه منذ ثلاثة أيام، وكنا ننتظر حتى تراجع معنا النتائج، وتحدد لنا ما يجب أن نقوم به بعد ذلك، لكنك كنت غائبا طوال الأسبوع " .

حملق فيها بشيء من الغيظ،قال موجها كلامه إليها:

أعطني الجدول.

أخرجت ملفا من البلاستيك الأخضر من درج في المنضدة وأعطته له.

قال: اجلسا.

أسند جسمه على المنضدة سأل: أين دفتر الملاحظات؟.

قام الشاب وسحب دفترا من بين دفاتر أخرى موضوعة على رف أعلى رأسه، أخذه منه وجلس، شد قلمه من الجيب العلوي للمعطف وأخذ يقرأ في الملف، ويسجل أرقاما في الدفتر.

بعد أن انتهى التفت إليهما.

لا بأس ليست لي ملاحظات، لكن هناك ظاهرة أريد أن تتبعها هي منحنى الحرارة في علاقته بسرعة تلاحم

الذرات عند الدرجات العليا، لماذا هذه القفزات الغريبة فـ ـي المنحنى؟

أشار إليهما ليقتربا، فقاما وانحنيـ ـا فـ ـوق الرسـ ـم البياني علم عليه باللون الأحمر.

يجب أن نعيد التجربة لنرى إن كانت هذه الظـ ـاهرة ستبقى ثابتة أو تتغير، وهذا يتطلب ألا تتغيبا حتى في أيـ ـام الأجازات، يمكن أن نعوضها لكما فيما بعد.

قال الشاب:

لا يهمنا أن نعوض الأجازات؟ نظر إلى الفتاة فهزت رأسها، لكن بالنسبة إلى يوم الجمعة هناك مشكلة؟

مشكلة؟

نعم يوم الجمعة أنا " وصفية " سنتزوج.

نظر إليهما ملامحهما تضيء بسعادة مشرقة، عدلت الفتاة من جلستها على المقعد فبدا له أن بطنهـ ـا منتفخـ ـة، تذكر " نجوى " وهي جالسة في جلبابها الواسع وقد امتلأ خصرها من تحته، هل أصابه نوع من الهوس جعله يـ ـرى حملا في بطن كل امرأة يصادفها. . سرح لحظة ثم قال:

" مبروك. . لكن أنت يا " تامر "، وأنـ ـت يـ ـا "
صفية " أرجو ألا تسمحا لهذه العلاقة أن تؤثر على العمل،
هذه المرة سماح، يمكن أن نؤجل التجربة إلـ ـى الأسـ ـبوع
القادم لكن بعد ذلك. .

قاطعه " تامر " في حماس:

نحن حريصان على ألا يحدث أي تأثير لهـ ـا علـ ـى
العمل.

بالعكس و جودنا سويا يمكن أن يزيد ارتباطنا به.

نظر إلى " صفية " فأومأت برأسها موافقة قالت:

أنا بالذات سأكون حريصة على ذلك حتـ ـى لا يقـ ـال
إنني أعتمد على زوجي في العمل، كنت متفوقة عليـ ـه فـ ـي
الكلية، كنت أنا الأولى دائما بينما هو الخامس أو السادس.

تدخل " تامر " قائلا:

الثالث أو الرابع يا " صفية " .

ضحك نظر إلى الوجهين النضرين كست ملامحهمـ ـا
حمرة الحماس، وللحظة حسدهما قال:

أتمنى لكما السعادة والنجاح.

قالت " صفية ":

نريدك يا دكتور " يوسف " أن تحضر فرحنا، سيكون بسيطا، بعض الأهل والأصدقاء فقط.

قال:

لا أستطيع أن أعدكما بالحضور، فربما أكون مسافرا لكن سآخذ منكما العنوان " .

فتح " تامر " حقيبته وأخرج منها مظروفا قال:

هذه بطاقة الدعوة.

قال:شكرا والآن إلى العمل.

عاد إلى مكتبه، جلس على الأريكة وسرح، عينا الفتاة مثل عينيها عسليتين. . . أحس بضميره يؤنبه، لم يهتم بها. . لم يسألها شيئا، لم يسألها ماذا ستفعل في ظروفها، حامل، و وحدها بعد أن مات الرجل، لم ينشغل إلا بنفسه، بالغيرة أكلت قلبه، بصورتها بين ذراعيه والآن مات، هل يستطيع الإنسان أن يغار من رجل مات في عنفوان شبابه؟ والطفل ماذا سيحدث له؟

تصرف مثل أي وغد إحساس له، مثل أي رجل أكلته الغيرة ففقد صوابه، لكن لم يعد أمامه حل سوى أن يطلقها ويتركها لحالها، تعدت كل الحدود. . امرأة بلا خلق،

سيضطر إلى الاتصال بها. . أم يتركها هي تتصل به؟ وإن لم تتصل ماذا يفعل؟ . . الأفضل ا ن يأخذ ه و المب ادرة ليتخلص من هذه المشكلة، إنه لم يسيء إليها.

على العكس هي التي أساءت إليه على طول الخط.

أغلق جفونه. . رآها جالسة على المقعد تبك ي. . تسلل إليه إحساس بالإشفاق عليها. . . ماذا ستفعل؟ إنه ا قوية. . ستتصرف الأفضل أن ينتبه لحاله. . لكن. .

قام وأخذ يذرع الحجرة لا بد أن ينتزع نفس ه م ن هذا التخيل المستمر لما جرى، من هذه الحلق ة الجهنمي ة التي ستفقده عقله، أصبح ضعيفا، مهزوزا عاجزا عن عمل شيء، الأفكار تتأرجح به هنا، وهناك. . خل ع المعط ف وألقى به على المقعد.

الأفضل أن يترك المعمل، لك ن أي ن س يذهب؟ لا يستطيع أن يلجأ إلى " إسماعيل " أن يجري إلي ه كلم ا واجه مشكلة.

تذكر أنه في الصباح قرر أن ي ذهب إل ى حم ام السباحة بعد أن ينتهي من المعم ل، لك ن إذا ذه ب الآن سينتهي مبكرا، وبعد ذلك ليس أمامه س وى الع ودة إل ى

البيت، بحث في ذهنه عن وسيلة لملء الفراغ، يمكن أن يذهب إلى مكتبة الجامعة الأمريكية ليطلع على المجلات ويجدد بطاقته السنوية في ميعادها، بعد ذلك سيتجول بين المكتبات ليبتاع بعض الروايات التي صدرت أخيرا ثم هو في حاجة إلى بدلة للسباحة، في المرة الأخيرة سقطت البدلة من على جسمه بعد أن ذاب حزام المطاط الذي يربطها حول خصره، لحسن الحظ استطاع أن يغطس ويستردها من قاع الحمام ليرتديها بسرعة ويخرج ممسكا بها أعلى بطنه.

وصل إلى النادي قبل غروب الشمس بساعة، في الجو لسعة برد خفيفة، الحمام ليس فيه إلا قلة تعودت السباحة في هذه الفترة. وقف عند حافة الحمام ليهبط إليه على السلم، لم يسبح منذ مدة، تأمل المياه ذابت فيها ألوان الشمس الغاربة، وأوراق الشجر تهتز في الريح فوق رأسه، أحس بالهواء البارد قليلا يلفح جسمه.

لماذا يظل يحمل الهموم كأنه يعاني في العالم وحده؟ لماذا لا يعيش في اللحظة حتى لا يضيع ما تبقى له من عمر، سنه قارب على الأربعة والخمسين، أمامه ربما عشرين سنة على الأكثر.

أمه ماتت صغيرة لكن جدته تعدت التسعين قبل أن تدفن في قبر الأسرة، لم تخرج من القرية طوال حياتها.

رفع عينيه إلى السماء انتشرت سحب خفيفة، وردية اللون في عمقها الأزرق، قفز برأسه في المياه، وعاد إلى السطح بعد مسافة عند الناحية التي قفز منها ثم بدأ يسبح، وفجأة أحس بأصابع تلمس الجزء الأصلع من رأسه التفت فوق كتفه فلمح وجهها الأسمر تلمع فيه أسنانها البيض، سمع ضحكاتها ترن في الفضاء بسعادة الطائر المحلق قالت:

يا " يوسف " أنت صديق خائن، لماذا لم تسأل عني، كنت سأتصل بك ثم قلت لنفسي سأنتظر لأرى ماذا سيفعل، هل نسيت أنك مدين لي بدعوة على العشاء؟

ارتبك فبلع قليلا من الماء، وأخذ يشهق فعلت ضحكاتها، قالت:

لا داعي لأن تغرق لأني ذكرت بالدين الذي لا يزال عليك، لم أكن أعرف أنك بخيل إلى هذه الدرجة، يا صديقي لا تنزعج، تنازلت عن الدعوة رغم أن أبي كان من سلالة التجار الإيطاليين اليهود في عصر النهضة.

كانت ترتدي " مايوه " صغير الحجم يكاد جسمها القوي يتفجر منه، رمقه بسرعة، اكتسحته موجة من الرغبة، تأملته بنظرة جادة سألها:

ماذا تفعلين هنا؟

يا " يوسف " ماذا أفعل هنا؟ أسبح طبعا، كنت على وشك الغطس هل تسابقني؟

قال: لست مستعدا لأن أهزم، يبدو أنك تمارسين السباحة منذ مدة.

قالت: وأنت . . . . لماذا تحضر إلى النادي إذن؟ اندهش للناس الذين أراهم هنا. يجلسون حول الموائد ويأكلون ويثرثرون قلة هم الذين يسبحون، أو يمارسون رياضة من أي نوع، إن واظبت معي أنا مستعدة أن أجعل جسمك مثل السهم البرونزي، اخرج من الحمام حتى أفحص قوامك.

رفع نفسه على الحافة وجلس إلى جوارها، وضعت ذراعها حوله وقالت:

وحشتني . . قف حتى أراك.

وقف رفعت ساقيها مدتها على حافة الحمام، ومالت إلى الوراء لتفحصه. . أخذ نفسا عميقا وقال:

أنت جميلة فعلا. .

قالت: وأنت أيضا لم تترك نفسك تتدهور وتربي " كرشا " .

أرعشت كتفيها في حركة تنم عن التأفف، " لا أطيق الرجل الذي له " كرش "، لماذا لا تأتي إلى النادي بانتظام لنمارس الرياضة سويا؟ ستري التغيير الذي سيحدث لك بعد شهرين على الأكثر.

وهل ستبقين هنا لهذه المدة؟

سرحت لحظة ثم قالت: يتوقف عليك.

قال في دهشة: على أنا؟

ضحكت: لا تأخذ كل ما أقوله مأخذ الجد.

صمت. . ثم قال: لم أكن أعرف أنك يهودية.

حملقت في وجهه: وهل هذا يغير شيئا بالنسبة إليك.

قال: لا . . لكني ضد ما تفعله إسرائيل في المنطقة وعلي الأخص في سلبها حقوق " الفلسطينيين " .

قالت: وأنا أيضا. . لكن عندما يعرف الناس أنني يهودية أشعر بجو غير طبيعي. . بعضهم يقبل علي كأنهم وقعوا على كنز.

وآخرون يعاملونني بلطف لكني أشعر أنهم يتشككون في، وفي الأغراض التي جاءت بي إلى بلادهم. . في كلتي الحالتين أشعر بالضيق، هذا فضلا عن الرجال الذي يريدون أن يأخذوني إلى فراشهم، نادرا ما التقيت برجل يتعامل معي بطبيعية.

قال:

كل علة ولها سبب.

قالت: ربما مع ذلك الجو يعكر مزاجي.

قال: ألن نسبح.

ابتسمت. . أسقطت نفسها في المياه، فتبعها، كادت الشمس أن تغرب فسبحا لمدة قصيرة، ثم خرجا ليرتديا ملابسهما، وليجلسا على منضدة أمام ملعب الكرة، كانت تبدو عليها السعادة أما هو فأحس وكأنه غسل متاعب الأيام الماضية.

سألته: والآن ماذا نفعل؟

قال: هل عندك اقتراح؟

قالت: نعم في الدور الأخيـر لفنـدق " رمسـيس هيلتون " يوجد بار واجهته من الزجاج تطل على المدينة، كما أن في البار عازف للساكسافون أعشقه؟

تعشقينه؟ ولماذا أحضر معك إذن؟

ألست صديقي ما أجمل أن يجتمـع نـاس يحبـون بعضهم، أم أنك غيور؟

قال: لا . . أبدا.

ألقت إليه بنظرة فاحصة: على أي حـال. . أنـا لا أعشقه، لكن أعشق موسيقاه وأحيانا يصعب التمييـز بـين الاثنين، أليس الإنسان هو ما يبدعه. . ألحانه تحلـق بـي بعيدا. . وأحيانا. صمتت لحظة طويلـة . . " تقتلنـي " سألته:

هل ذهبت إلى هذا البار؟

قال: لا.

إذن فلنذهب. . مرة أخرى سأريك مكانا لم تره من قبل، فما رأيك؟

قال: لو كنت وحدي لما ذهبت. . جو هذه الأماكن لا يعجبني، ثم سندفع مبالغ كبيرة مقابل لا شيء. ما عدا لاعب الساكسافون بالطبع.

كل هذه الحجج لأن الدور جاء عليك، ألم أقل لك إنك بخيل؟

قال متأرجحا بين الضحك والاحتجاج:

أبدا والله أسرتي كانت فقيرة وتعلمت ألا أصرف القرش إلا في موضعه، ربما هي الطفولة تبقى مشاعرها حية حتى آخر العمر.

ربتت على يده وابتسمت:

لا أريد أن أفرض عليك عشيقي عازف الساكسافون. عندي فكرة ما رأيك في أن نمر على " السوبر ماركت " ونشتري ما نريده ثم نصعد به إلى شقتي. . . عندي نبيذ أسباني ممتاز روخاس ١٩٩٤، وعندي موسيقى ساكسافون تسجيلات لأشهر العازفين، هكذا لن ينقصنا شيء فالمنظر عندي أجمل من أعلى " الهيلتون رمسيس " .

قال: على شرط أن أدعوك عندي في البيت المرة القادمة، عندي طباخ ماهر سيطهو لنا أكلات مصرية صميمة، حمام بالفريك، وفطيرا مشتلتتا، أو براما من الأرز بالبط ومعها ملوخية.

لم أسمع عن هذه الأصناف لا بد أنها لذيذة وقاتلة في الوقت نفسه.

ضحك: بالضبط.

أحس بعينيها تستقران في عينيه، قالت: وهل تريد أن تقتلني؟

أحس بريقه يجف، تهرب قائلا: رغبة تنتابنا جميعا في لحظات من الحياة.

قالت: ربما تتاح لك فرصة الليلة.

قال: لم أعد قادرا على القتل.

قالت: من يعلم؟

قال: هل سيارتك في النادي؟

نعم.

أقترح أن نذهب إلى " السوبر ماركت " بسيارتي ثم نعود ونصعد بالسيارتين إلى شقتك.

انتهيا من المشتروات وهبطا السلالم من " السوبر ماركت " محملين بأكياس المأكولات، وضعاها على المقعد الخلفي، قالت:

لا بد من الورد. . ورد بلدي أحمر، قصير العمـ ـر لكن له عطر.

قال: سأذهب أنا. .

اجتاز الشارع وبعد قليل عاد حاملا باقة كبيرة مـ ـن الورد الأحمر وضعها مع الأكياس. . جلسا فـ ـي السـ ـيارة. أدار المحرك وسار متجها إلى كوبري ستة أكتوبر قالت:

لا داعي لان نلتقط السيارة من النادي. . سأرسـ ـل السائق باكرا صباحا ليحضرها، أنت معك سيارتك تسـ ـتطيع أن تهبط في أي وقت.

كانت الساعة المعلقة على الجدار في صالة المعيشة الكبيرة تدق التاسعة برنينها الفضي عندما وضعت مفتاحها في الباب، أضاءت الأنوار واتجها إلى المطـ ـبخ بالأكيـ ـاس والورد، ثم تركته في الصالة لتذهب إلى حجرتهـ ـا وتغيـ ـر ملابسها، عادت مرتدية جلبابا واسعا منسوجا بألوان زاهية، لمحها تدخل إلى المطبخ حافية القدمين، سائرة بخطواتهـ ـا

الواثبة فوق البلاط فخرج إلى الشرفة ليطل على المدينـة، أحس أنه يريد أن يبقى وحده، مر الوقت ثم سمعها تنـادي عليه:

يا "يوسف" . . . كل شيء جـاهز، أريـدك أن تساعدني في حمل المأكولات إلى الشرفة.

توجه إلى المطبخ لما رأته سـألته: أم تفضـل أن نجلس في الداخل؟ هناك في الركن الزجـاجي نسـتطيع أن نرى المدينة بأكملها.

قال: الداخل أفضل. . . هنـاك لسـعة بـرد فـي الشرفة؟

رصـت المـأكولات علـى المنضـدة الزجاجيـة التوركوازية اللون. أضاءت شـمعتين و وضـعتهما فـي حاملين من الفضة، قالت: لا يوجد أجمل من ضوء الشموع، مريح بعد يوم من العمل الشاق، الأشياء الصـغيرة عنـدكم تستنفذ الجهد. . آه. . . لم يبق إلا الورد. افتح زجاجـة النبيذ حتى أحضره، عادت حاملة آنية شفافة من الزجـاج، لمح السيقان الخضراء طويلة ورشـيقة ترفـع الـرؤوس

الحمراء الجميلة في الهواء، استنشقتها بعمق قبل أن تضعها عند طرف المنضدة. . قالت:

الآن كل شيء معد. . أين كأسي؟

سألها:

أين موسيقى الساكسافون؟

جرت بخفة حتى الطرف الآخر من الصالة، بحثت في المكتبة وأخرجت " دسكا " وضعته في المسجل، تسلل صوت الساكسافون يملأ الحجرة بأنغامه السائلة، أخذ نفسا عميقا. . . قالت:

ما رأيك؟

جميل. . فيه حنين إلى المسافات.

قالت: إذن فليكن أول نخب نشربه للحرية؟

قال: الحرية. . . و " سلما باتشينو " .

رفعا كأسيهما وشربا. . . سال النبيذ في حلقه ناعما كالقطيفة. قالت:

عيناك بدأت تبرق، حلو أليس كذلك؟

جدا. .

" النخب الثاني " رفعت كأسها فتبعها.

من أجل مستقبلك ومستقبل الاكتشاف الهـام الـذي توصلت اليه.

زحف الوجوم على وجهه. . تردد لحظة ثم ارتشف من النبيذ.

قالت: مالك. . . ألست سعيدا بهذه الأمنية؟

قال: حتى الآن لم يجلب إلي هذا الاكتشاف سـوى المتاعب.

قالت: يا " يوسف " . . إنه سيفتح أمامك آفافا لم تحلم بها؟

قامت وجلست إلى جواره، أحس بساقها دافئة تحت الجلباب.

قال: كيف والجميع يتقاتلون ليحرموني من ثمارها، بما فيها الشركة التي أنت مندوبة عنها.

ابتعدت عنه حملقت في وجهه لمح عينيها أصبحت زرقتهما داكنة قالت في بطء:

الشركة التي أمثلها أنا عرضـت علـيكم اتفاقيـة رفضتها أنت ورئيس المركز الذي تعمل عنده، لو وافقتمـا عليها لعادت عليكم فيما بعد بمكاسب لا حصر لها " .

فيما بعد؟ أرادت أن تأخذ دون أن تقدم شيئا، أن تحرمنا من السيطرة على ما هو ملكنا، والتصرف فيه وفقا لمصالح البلد الذي ننتمي إليه.

البلد الذي تنتمي إليه، وهل تظن أنه في بلدك هذا يوجد ما يمكنكم من الاستفادة فعلا من هذا الاكتشاف، يبدو أنك لا تدرك الآفاق التي يمكن أن يفتحها أمام التصنيع الكيماوي، إنك تعيش في حجر، في بلد محاصر بالتخلف وضيق الأفق، والجهل، ولا ترى ما يدور في العالم، نحن نعيش في عصر لم تحلم به البشرية، وفي كل يوم، بل في كل ساعة، يصنع العلم إمكانيات جديدة إن وتيرة التطور مذهلة أنتم تعيشون هناك في عصر مضى، وتتخلفون يوما بعد يوما.

توقفت كأنها تحاول أن تسترد الهدوء الذي طار منها قال:

طالما أنكم وصلتم إلى كل هذا لماذا تريدون أن تسرقوا منا ما وصلنا إليه؟ لماذا لا تكتفون بما تصنعونه أنتم بدلا من السطو الذي تمارسونه علينا؟

وقفت على قدميها فـ ـي عينيهـ ـا شـ ـيء كالشـ ـرر الأصفر.

صرخت:

سطو؟ أين هو السطو؟ لم نفـ ـرض علـ ـيكم شـ ـيئا عرضنا اقتراحاتنا وعندما اعترضتم عليها صمتنا.

نظر إليها في سخرية:

هذا كذب! سلطتم أعوانكم علينا، ليهددوا كل من لا يوافق على الشروط التي تقدمتم بها، لـ ـم تتورعـ ـوا فـ ـي استخدام أحط الأساليب لترويع من لهم صلة بالبحث، وأنت جزء من هذا، أنت اليد الناعمة الجذابة التـ ـي تمتـ ـد إلينـ ـا بالطعم، وغيرك يقوم بعمليات التهديد، ومحاولات السـ ـطو، ولا أحد يعلم ما الذي سيلجأون إليه في الغد. إنه تقسـ ـيم للعمل جيد أهنئكم عليه.

تسلل إلى سمار وجهها شحوب مخيف.

قالت بصوت فيه استجداء:

يا " يوسف " أرجوك. . . ما هذا الـ ـذي تقولـ ـه، أنت تتصور أشياء لم تحدث. . أنت بدأت تهذي، ما الـ ـذي جرى لك.

قال: أنا لا أهذي. . هناك جهات في قمة السلطة اتصلت " بفاروق الدجوي " والدكتور " عبد الفتاح " والدكتورة " عفاف " عن طريق أحد الوسطاء، وهددتهم إن لم تسلم لها صورة كاملة من أوراق البحث لأنها مهتمة بإنجاز الاتفاقية مع " تكنوسبايس كيميكالز " في أقرب وقت.

نظرت إليه كأنه صفعها على وجهها:

يا " يوسف " أرجوك. . هل أنت متأكد مما تقوله.

أخذ نفسا عميقا.

مثل تأكدي من أنك في هذه اللحظة تجلسين أمامي. . . وأنك تمثلين بالنسبة إلى إنسانة أصبحت لها عندي مكانة خاصة، إنسانة أثق فيها وأفكر مائة مرة قبل أن أقول أو أفعل شيئا يمكن أن يسبب لها أي ضيق " .

قالت: ما هذا الذي وقعت فيه. . ارتعشت. .

احتضنّي أشعر بالبرد.

قال: هل أغلق النافذة؟

قالت: لا احتضني فقط. . حملقت أمامهـا لحظـة طويلة في صمت ثم قالت: أريد أن أعرف كل شيء " .

فكت ذراعه من حولها، وقامت، صـبت لـه مـن زجاجة النبيذ في كأسه، مدت يدها به إليه فأخـذها منهـا، ملأت كأسها وجلست في المقعد أمامه قالت:

" احك. . ولا تخف عني شيئا " . .

أخذ رشفة من كأسه ثم بدأ يحكي ببطء كأنه يحاول أن يتذكر. حكى لها عن " فـاروق الـدجوي " وعـم " سليمان " وضياع الحقيبة وفيها إيصال خزينة البنك، عـن " الدكتور عبد الفتاح " والدكتورة " عفاف " و " محمود " الشغال الذي ترك خدمتـه وإحساسـه المفـاجئ بقـرب الموت، عن " نينا " و " نبيل القرنفلي " حكى لهـا أدق التفاصيل كأنه اختزن قصته وقرر أن يسجلها حتى لا تضيع منه، أو كأنه كتم في نفسه طويلا ثم أفلتت منه غصبا عنه، أو لأنه كان يريد أن يحكي لها بالذات لسبب مـا زال هـو نفسه يجهله.

ظلت تسمعه دون أن ترفع عنـه عينيهـا، دون أن تتحرك إلا لكي ترفع كأسها إلى شـفتيها، أو تصـب مـن

الزجاجة، ظل يحكي إلى أن فرغت الزجاجة مما فيها فقامت لتحضر غيرها. أحس أنه يريد أن يبقى هكذا جالسا أمامها ينظر فـ ي عينيهـ ا، ويحكـ ي قصـ ته بكـ ل الأحاسـ يس، والانطباعات التي حركت أعماقه، بكل الاضطراب الذي عانى منه، أن يترك النبيذ يتسلل إليه بهذا الخدر اللذيذ يجعله يحيا التفاصيل بحدة غريبة، أن يتتبع قوامها وهي تنحني لـ تملأ الكأس بالسائل القطيفي الأحمر يتسلل في شرايينه.

عندما انتهى ظلت جالسة في صمت كأنها عـ اجزة عن رد الفعل. . . اليد التي ترتفع بالكأس فيهـ ا رعشـ ـة، وعيناها تتفاديان النظر إليه كأنها تشعر بالـ ذنب. . لمـ ح الشحوب المخيف في وجهها، قال:

لا ذنب لك يا " سلما " . . . أنت لم تكوني طرفا في أي شيء مما قصصته عليك، قلت لك كلاما جارحا فـ ي لحظة غضب، لكنني أسحبه، وأعتذر عنه.

أخذت نفسا عميقا. . قالت. .

أريد أن أدخن. . هل عندك مانع.

قال: لا . . أبدا.

غابت ثم عادت ومعها علبة خشبية فيها سيجار فتحتها ومدتها إليه. . قالت:

هو ذات النوع الذي أعطيت لك منه في أول لقاء.

قال: لا شكرا. . . لا أدخن حتى السيجار.

أشعلت سيجارتها بعود من الثقاب . . أخذت منها نفسا عميقا وأخرجت الدخان من أنفها ببطء كأنها تفرغ بقايا التوتر من جسمها. . ثم التفتت إليه.

عندي سؤال. . هل أنت واثق في " نينا القرنفلي " ؟ ربما تكون مصارحتها لك بما يجري نوعا من الطعم حتى تبوح أنت إليها بمعلومات يريد " نبيل القرنفلي " أن يصل إليها. .

قال: فكرت في هذا الاحتمال لكن الدلائل ضده، لم تبذل أية محاولة لمعرفة شيء مني، ولم تعد تتصل بي من يوم أن صارحتني بما يجري، أضيف إلى ذلك الحاسة السادسة، ما سميته أنت " بالجات فيلنج " .

حركت شفتيها في ابتسامة مبتسرة.

يبدو أنك معجب بها إنها امرأة جميلة على أية حال.

قال: نعم جميلة، وغير عادية، كانت تستحق مصيرا أفضل من الحياة مع مجرم مثل " نبيل القرنفلي " الذي إلى جانب كل العلل التي توجد فيه كان يضربها بالكرباج قبل أن يضاجعها . قطب جبينه كأنه يتأمل. . . أورتني ظهرها.

طبعا. . لكن هناك نساء يعشقن هذا النـوع مـن الرجال.

نظر إليها في استنكار ضغط بأصابعها على جبينها.

أنا آسفة. . هذه الليلة كانت صعبة.

حملقت في وجهه:

بقي شيء واحد.

نظر إليها في تساؤل.

قالت: " نجوى " .

قال: لماذا هذا السؤال؟

لأنني امرأة وعندي حاسة سابعة ولأنه يهمنـي أن أعرف، لكن إذا لم ترد أن تجبني فلا حـرج عليـك، نحـن أصدقاء في كل الأحوال، وأنا أيضا أكن لك مشاعر خاصة.

تردد لحظة. . . نظر في عينيها الزرقاوين، وقـرأ فيهما شيئا كاللهفة. . قال:

عشقت رجلا أخر، وحملت منه.

قامت وصبت من الزجاجة في الكأسين الفارغين سألته:

ألن تأكل ابتسمت. . ما زال عندي كافيار من المرة السابقة.

قال: ربما بعد قليل.

مد يده إلى كوب من الماء وأفرغه برشفات سريعة، ثم صب لنفسه كوبا ثانيا شربه أيضا.

سألته:

وهل ما زلت تحبها؟

نظر إليها طويلا. . . . ضغط بيده على رأسه.

لم أعد أعرف، أحيانا أحبها، وأحيانا أحقد عليها إلى حد الموت، المسائل اختلطت علي.

قالت: إنها الغيرة تقتل. . . غدا ستتغير. . الحب يتغير. يصبح شيئا آخر.

قال: أحيانا أنسى. . وأحيانا الغيرة تقتلني.

قالت: ألهذا أصبحت ترغب في؟

أحس بصدمة، حملق في وجهها.

قالت: قل لي الحقيقة يا " يوسف " . . لا تكذب علي.

قال: ربما اليوم لما التقيت بك كنت في حاجة إليك؟

قالت: أو إلى امرأة.

قال: نعم إلى امرأة. . . ومع ذلك أقول إليك أنت بالذات.

سألت: وقبل اليوم؟

قبل اليوم كنت أشعر أنني أريد أن أراك، أن في قلبي شيئا ينمو. . . صداقة. . . بداية حب لا أعرف. تردد لحظة.

قالت: لا تفسد هذا اللقاء بغير الحقيقة؟

قال: لأنك جميلة. . إلى حد يصعب معه ألا أنجذب إليك.

تقصد أنك تريد جسمي؟.

أريده بالطبع. . وأحيانا تطغى هذه الرغبة علي، لكن ليس هذا هو المهم. . . لم أقابل امرأة مثلك، فأنت إنسانة لا بد أن تحب. وعلى أية حال الجنس بالنسبة إلي. .

قالت: سألتك لكي أعرف، لكن ليس لكل هذا أهميـة كبيرة عندي.

ما هو المهم إذن؟

قالت: هو أنني . . . أحبك. .

نظر إليها مشدوها كأنه لا يعرف ماذا يقول. . سألته وهي تضحك:

الآن ربما تستطيع أن تأكل.

قال: لا. . . وأنت. .

لمح في عينيها نظرة بعيدة، قالت في صوت خافت: ولا أنا. .

طال الصمت. . قال: إذن سأبقى عشر دقائق ثم أنصرف، الساعة قاربت على الثالثة إلا ربع صباحا.

نظرت إليه ثم انفجرت ضاحكة:

لم أقابل رجل مثلك في حياتي، أقول لك إنني أحبك فتقول لي إذن سأنصرف بعد عشر دقائق.

قامت من مقعدها ومالت عليه " لفت ذراعيها حوله، وقبلته، أحس بها تفك أزرار قميصه بأصابعها

تلمسه، بشفتيها تنتقلان فوق جسمه تعيد إليه قـ درة علـ ى الحياة ضاعت منه.

خلعت جلبابها . . أصبحت عارية أمامه احتوته في أعماقها أحس بنهر ساخن يهبط إلى بطنه ثم يصـ عد إلـ ى رأسه.

بأمواج ترفعه فوق قمة وتتركه هناك لحظة طويلـ ـة غارقا فيه هلام الشهوة. . . صرخ " أحبك " كأنه يتخلص من العذاب المختزن فيه كأنه يصرخ من ألم اللذة ثم سـ قط في هوة عميقة.

مرت اللحظات وعاد إليه الوعي بجسمه جزءا بعـ د جزء.

مالت عليه حملقت في وجهه، قـ رأ الفرحـ ـة فـ ي عينيها فابتسم في سعادة قالت ضاحكة:

الساعة الرابعة إلا ربع، هل سـ تهبط بعـ د عشـ ر دقائق؟

قال: لا . . وضمها إليه.

(٢٢)

٢٠ أكتوبر ٢٠٠٠

من الصعب أن أكتب عن " سد لما باتشد ينو "، أن أعبر عن تأثيرها علي، معها اكتشفت أن الدنيا مـ ا زالـ ت جميلة ي الصباح عندما استيقظ أقفز من السرير، وأسـ رع إلى الحمام لأبدأ اليوم الجديد، أتناول إفطاري وأثناءه أتحدث مع " مبروك " بالإشارات.

تعلمت منه لغة جديدة ممتعة تشبه البـ انتوميم فـ ي بعض نواحيها.

أرتدي ملابسي وأندفع هابطا على السلالم، لم أعـ د أحترس من الدرجات المكسورة أحيي حارس الأمـ ن فيـ رد على بابتسامة عريضة قائلا " صباح الفل يا بك " . اجلس خلف عجلة القيادة أدير المحـ رك وأفـ تح المـ ذياع علـ ى البرنامج الجديد المخصص للأغاني، استمع إليهـ ا كـ أنني عدت طالبا يتجه إلى الكلية كست مبانيهـ ا ألـ وان زاهيـ ة، أرتفع في المصعد الزجاجي كالطائر الملق في الفضاء يطـ ل على المساحات الخضراء، والنيـ ل، والبـ واخر المزدحمـ ة بالشباب والشابات يغنون، ويرقصون علـ ى قـ رع الطبـ ل،

والموسيقى، أدخل إلى مكتبي مندفعا كـ أن هنـ ـاك معجـ ـزة تنتظرني خلف بابه، أستغرق في العمل، وأنسى نفسي فيـ ـه تماما، أصبح البحث يعطيني متعة، وشحنة افتقـ ـدتهما فـ ـي الشهور الأخيرة، وطوال الوقت يظل وجهها يروح ويجـ ـيء في خيالي.

أتعجب للتغير الذي حدث لي، كأنها أعادت الحيـ ـاة إليّ .

لمست كل الأشياء فيها بعصـ ـاة سـ ـحرية فتفتحـ ـت كالزهور الندية في الصباح لتطلق رحيقها، أنـ ـدهش كيـ ـف تركتي نفسي لموجات اليأس خلال شـ ـهور طويلـ ـة، كيـ ـف تخلصت منها، وألقيت بها بعيدا، لم يتغير شيء ومع ذلـ ـك كل الأشياء تغيرت بالنسبة إليّ، فما الذي حول إنسانا مثلي في مدة قصيرة من كائن كان يعيش مـ ـدفوعا بنـ ـوع مـ ـن القصور الذاتي، بحركة تكاد تكون آلية نابعة من العادة، أو التربية، من إصرار أو ضمير متقوقعين فيه إلى كائن ينبض بالتفاؤل والحيوية.

تعود ذاكرتي إلى اليوم الذي ذهبت فيـ ـه لألتقـ ـي " بأسعد خلدون " في كلية الآداب فوجدت " نجوى " جالسة

في مكتبه، حدث لي بعدها شيء يشبه ما يحدث لي الآن، هذا التأجج للأحاسيس والحماس لكل شيء مهما كان صغيرا، هذه السعادة التي تضفي رونقها حتى على اللحظات العادية التي كانت تمر على دون أن أتنبه إليها، أهو وهم أعيشه مرة أخرى نسميه الحب؟ وما هو الوهم؟ أليست الأوهام جزءا من واقع حياتي، لا تنفصل عنه، وإلا غابت الحقيقة؟. . إذا لم تتواجد في الحياة نتحرك فيها كالأشباح، بلا روح، بلا عزيمة.

أحببت " نجوى " وظللت أحبها طوال السنين، هل ما زالت تسكن في قلبي، وتحتل مكانا فيه؟ ما الفارق بين العلاقة التي ربطت بينها، وبيني، وتلك التي تربطني " بسلما باتشينو " إنه سؤال أجد صعوبة في الإجابة عليه.

جاءت " سلما باتشينو " من عالم آخر، فجعلتني أرى أشياء جديدة، قابلتها في وقت نضجت، ونضجت هي فيه، شخصيتها كانت مختلفة قوية، ومدركة لأشياء كثيرة، بيني وبينها صراعات لكنها قليلة، تعطيني الإحساس بأنني متفوق عليها، أما " نجوى " فكانت حريصة على أن تثبت أنها تعرف ما لا أعرفه، قادرة على ما لا أقدر عليه، كنت

أقتنع أحيانا، وأحيانا أستسلم حتى لا تتوتر العلاقات بينهـ ـا وبيني، ولأن المجتمع ظل لا يعترف بي رغم اقتناعي بأن ما قمت به له قيمة كبيرة، بقيت محاصرا في ركني الصـ ـغيرة بينما أخذت هي تتحرك بحرية، وتوسع النطاق الذي تنشـ ـط فيه، ربما لم تكن تدرك أهمية الاكتشاف الذي وصلت إليه.

أما " سلما باتشينو " فساعدتني على استعادة ثقتي في نفسي، أقنعتني أنني عظيم، أن هناك آفاقا واسعة ستفتح أمامي. . ساعدتني في التغلب على العجز الذي كنت أعاني منه. . كانت هي كيميائية مثلي فأدركت قيمة العمل الـ ـذي أقوم به. عاشت تجارب كثيـ ـرة وسـ ـافرت فـ ـي العـ ـالم، وتزوجت وأنجبت بنتا ثم انفصلت عن زوجها.

" نجوى " كانت صغيرة، منشغلة بشق طريقهـ ـا، عنيدة، تطلب مني أكثر مما أستطيع أن أعطيه، بيننا حوار، وتجارب، وتبادل فكري لكنها كانت راكبة قطارها المستقل لا يهمها إن تباعدت الاتجاهات التي نسير فيها، ربمـ ـا كانـ ـت على حق وإلا فقدت ما كانت تريد أن تبنيه، كانـ ـت عنـ ـدي تركيبة يصعب تغييرها، سرت جزءا من الطريق معها لكـ ـن

عجزت عن الوصول إلى نهايته حتى أتعامل مع ما كانت تسميها هي " الأنوثة الجديدة " .

" سلما " عاشت حياة تختلف عن تلك التي عشتها، فأثارت عندي تساؤلات جديدة وجعلتني أعيد النظر في أشياء تتعلق بحياتي وبالمجتمع الذي أحيا فيه، أتذكر أنتها في إحدى الليالي كانت راقدة إلى جواري، كنا نتحدث عن الحب فأشارت إلى جسمها قائلة: هذا هو الحب، تستطيع أن تلمسه، أن تحتضنه، أن تتوغل في عالمه وتضيع، ثم تعود منه حرا، بلا التزامات، بلا قيود، تنتفض معه بلذة لا يوجد أقوى، ولا أجمل منها صنعتها الطبيعة من أجل الحياة، ربما لا تدوم لكن يمكن تجديدها، وهل توجد حياة بلا تجديد؟ جسمي هذا ليس وهما بل حقيقة محسوسة، طالما أنك قادر عليه يعطيك بالقدر الذي تعطيني، هذا هو الرباط الأول والأقوى للحب الذي نشأ بيننا، يجعلني ممتنة لك، وفية وسعيدة، ويمكننا من أن نبني حياتنا بالعاطفة والعقل، والتبادل اليومي. . . الجنس يجعلني مرتبطة بك، راغبة في الإبقاء عليك.

لكن عندما تعجز عن إرضائي أبحث عن غيرك، فما الذي يجبرني على التضحية بقوة الحياة، ومنبعها الخصب، بلا جنس يوجد شيء آخر، توجد صداقة وهي شيء نـ ـادر، وثمين، ويمكن أن تبقى مدى الحياة، إنها لا تموت بسـ ـرعة مثل الحب، هي حب من نوع آخر، الزواج الناضج صـ ـداقة وتفاهم يسمح بالحرية.

لكن الحب أحادي لا يقبل حب غيره.

أصبحنا نلتقي كل يوم، أذهب إلى النادي في الساعة الرابعة بعد الظهر، أعرف أنها لن تحضـ ـر قبـ ـل الرابعـ ـة والربع اجلس في الحمام، اختار الجزء الخالي منه، استمع إلى همس الريح، أتطمع في الشمس، انتظرها فـ ـي خلايـ ـا جسمي ذبذبة جديدة، لهفة إلى اللحظـ ـات الآتيـ ـة، شـ ـحنة، شوق، في لحظة التفت. . شيء يقول لي إنها جاءت فأرفع عيني، أراها تخط طريقها بين الناس، تبتسم، ألمح أسنانها البيضاء، وذارعها ترتفع في الهواء كأنها تستعجل اللقـ ـاء ولا تطيق تأجيله، أشعر بتيار كهربائي يأتيني منها، ويجتاز الفضاء فوق الناس، فوق المقاعـ ـد، والمناضـ ـد، ورؤوس

الجالسين، ويحدثني عن شيء كاللغم سينفجر في عند أقل تلامس.

نسبح لمدة ساعة، نخرج من حوض السباحة ونرتدي ملابسنا، نجلس في الحديقة لنشاهد غروب الشمس، ثم نغادر النادي إلى شقتها في المقطم، أو شقتي قرب كوبري الجيزة.

ينتظرنا " مبروك " فمنذ أن تعرف عليها أصبح ينتظرنا ليقدم لنا العشاء ويسهر على راحتنا، تقضي معه بعض الوقت لتتدرب على لغة الخرس، أصبحت مثلي مغرمة بالتحدث إليه، نجلس سويا ونتبادل الإشارات، وننفجر بالضحك كلما استعصى علينا الفهم فيبدو عليه الإحباط ويشير إلينا بحركة من يديه عند الرأس تقول إننا بطيئا الفهم.

أنا وهي كالمسافرين في باخرة التقيا صدفة في البحر ولا يعرفان متى تنتهي رحلتهما، لا نفكر في الماضي فليس لدينا ماض نعود إليه، ولا نفكر في المستقبل لأننا نعرف أن الفراق لابد منه، إننا في يوم سنصل إلى ميناء ونهبط فوق الأرض.

نحيا بلا أسئلة، لا يطالب أحد الآخر بشيء سوى أن نستمتع بكل لحظة أن نمتص منها كل ما يمكن أن تعطيه إلينا بيننا حوار، وحنان، وساعات من العشق، كالطائرين يطيران لأول مرة في الحياة، فما أجمل هذا الطيران الحر، وما أسعدنا بالتحليق فوق الأرض.

ربما في الأعماق حزن بعيد لكنه يكاد لا يحس، حزن الفراق لا بد منه، لكنه لا يفسد علينا شيئا، على العكس يضيف لكل لحظة قيمة خاصة، كالشيء الثمين الرقيق نحافظ عليه.

سألتني مرة و "نجوى" أين هي؟ قلت: لا أعرف.

ألقت إلى بنظرة لم أفهم مغزاها، لكنها لم تقل شيئا، وبعد أيام طلبت "نجوى" في التليفون، تردد الجرس دون أن يرد أحد علي. عاودت المحاولة عدة مرات دون جدوى، أسمع صدى الجرس كأنه يرن في شقة خالية، لا أحد يسكنها، احترت وتملكني الضيق.

ما الذي أستطيع أن أفعله؟ هل هذا الغياب بمثابة خطة منها، يولد طفلها، وأبقى أنا عاجزا عن فعل شيء؟

ليس أمامي سوى أن أرفع قضية طلاق لأن طفلهـا لـيس مني. . لكن ما أقبح هذا الحل.

باءت كل محاولاتي للاهتداء إلى مكانهـا بالفشـل، فلما سألتني " سلما " عنها مرة أخرى حكيت لهـا أنـي عجزت عن العثور عليها قالت: " أتركها ستجدان حلا فيما بعد. . أليس هناك طفل؟ لم أفهم ما تقصده، كنا راقدين في الفراش، ضمتني إليها فنسيت وفي الصـباح انشـغلت، أو ربما قلت في أعماقي لا تفسد على نفسـك اللحظـة التـي تعيشها. . بعد ذلك سيفعل الزمن ما يجب أن يفعله.

بالأمس كنت في المعمل عندما دق التليفون، رفع " تامر " السماعة وقال " سيدة أجنبية تريدك " اسـمها " سلما باتشينو "، فاندهشت، لم تكن تتصل بي في المعمـل، أمسكت بالسماعة لأرد عليها، أحسست في صوتها بـرنين الفرح، قالت: يا " يوسف " عندي نبأ ستسعد به جـدا، لا أستطيع أن انتظر ثلاث ساعات لأقوله لك، ما رأيك فـي أن نلتقي على وجبة سريعة قرب مكتبي؟ قلت: لماذا لا تنبئيني به الآن؟ قالت: لا ليس في التليفون. لن تحدث كارثـة إن تركت العمل مبكرا، هل تعرف كافيتريا " شيزا " في شارع

عدلي: قلت " لا " . . قالت: لا يوجد أحد في القاهرة مـ ـن معارفنا إلا ومر عليه. . سأنتظرك عنـ ـد تقـ ـاطع شـ ـريف وعدلي في الساعة الواحدة والنصف. . سـ تجدني واقفـ ـة أمام فندق اسمه " نيو هوتيل " قلت: هـ ـذا أعرفـ ـه " . . ضحكت " طبعا لأن لا أحد يذهب إليه خذ سيارة أجرة، لـ ـن تجد مكانا للركن، بعد ذلك سأوصلك وجـ ـدتها واقفـ ـة مثـ ـل الرمح الأسمر أمام باب " النيو هوتيـ ـل " بـ ـدت سـ ـعيدة، ومضطربة في الوقت نفسه، أمسكت بذراعي وسارت بـ ـي خطوات ثم أدخلتني من باب داكن اللون يقود إلـ ـى صـ ـالة طويلة، عند بدايتها خزانة من الزجاج فيها أنـ ـواع الكعـ ـك، والفطير، والحلويات، والخبز وبعدها صفان مـ ـن المناضـ ـد تتدلي فوقها مصابيح برتقالية اللون، اختارت منضدة قـ ـرب آخر الصالة فجلسنا، كانت ترتدي قميصا، وبنطالا وترفـ ـع شعرها فوق رأسها بمشبك أزرق اللون يخاطب لون عينيها، الإشراق يشع منها كأنها قطعة من الشمس انفصلت عنهـ ـا، وسبحت في الفضاء لتصل إلي.

جاء النادل فطلبنا سـ ـاندويتش بـ ـالجبن، وسـ ـلاطة وقهوة لكل منا، ثم سألتها عن النبأ الذي جعلها تصر على هبوطي من العمل قبل أن أنتهى منه.

ربما أكتب ما أكتبه فـ ـي محاولـ ـة للتغلـ ـب علـ ـى الاضطراب الذي استولى علىّ منذ سمعت الكلام الذي قالته لي، وأنا جالس أمامها صامتا أستمع إليها، قالت إنها منـ ـذ تعرفت علي أحست أني إنسان موهوب، جـ ـدير بـ ـالاحترام، والحب، وأن الاكتشاف الذي توصلت إليه يدل على قـ ـدرات نادرة في الإبداع العلمي، أن الطريق الذي سرت فيه يفـ ـتح آفاقا ربما لا أتخيلها لأن لا أحد نبهني إلى إمكانيـ ـاتي فـ ـي المجال الذي اخترت أن أبحث فيه خصوصا إذا توافرت لـ ـي الظروف المواتية، أحيا في بلد لا يلتفت فيه المسئولون إلى أمثالي من الناس يعملون بلا ضجة لأنهم يحترمون أنفسهم، ويرفضون النفاق والتزلف لأصحاب النفوذ، في بلـ ـد تعـ ـود الناس فيه على القهر حتى أصبحوا يعيشونه كجـ ـزء مـ ـن حياتهم اليومية دون أن يتمردوا، أو يثوروا عليه.

قالت إن هذه الأحاسيس جاءتها حتى قبل أن ينشـ ـأ بيننا الحب، لكن بعد أن أحبتني زاد الغضب الذي تشعر بـ ـه

من الحصار ومن المعاملة السيئة التي أعاني منها، أنها تريد أن تصرخ بأعلى صوتها في وجه من يفرضون على هذا الوضع.

لكنها أجنبية لا تعرف من هم، ولا كيف تصل إليهم، تظل في بعض الليالي عاجزة عن النوم، تفكر في الوضع، وفيما يمكن أن تفعله من أجلي، بل أحيانا تتملكني رغبة في أن تصرخ في وجهي أنا لأنني أتقبل ما يفرض على دون أن أفعل شيئا، أصمد أمام الضربات التي توجه إلى سلبها مني، أنني كالقنفذ ألتف حول نفسي وأخرج أشواكي حتى لا يقترب أحد مني، لكني أكتفي بهذا.

لذلك بعد تفكير قررت أن تقدم على خطوة قد تفتح أمامي الفرصة للخروج من هذه المأزق، فأرسلت خطابا إلى " تكنو سبايس كيميكالز كوربوراشون " تقترح فيه أن يعرضوا علي عقدا للعمل في الأبحاث الكيميائية كرئيس لأحد أقسامها، وأن يحصلوا مني على براءة الاختراع الخاص بالاكتشاف الذي توصلت إليه مقابل تعويض مادي مناسب بالنسبة إلي.

توقفت، تنفست بعمق ومسحت بمنديل على شفتيها، سمار وجهها أصبح مشوبا بالاحمرار كأن الدم صعد إليه، كأن نارا هادئة داكنة تشتعل تحت الجلد، يداها ترتعشان وهي تفتح المظروف الذي وضعته أمامي، أخرجت منه خطابا ومدته بيدها إلى لمحت عينيها فيها بريق من السعادة يخترقني وشعرت بسحابة من القلق تمر على ملامحها كأن السعادة التي تملكتها كانت أكثر مما تحملتها.

أخذت منها الخطاب، تتبعتني وأنا أقرأ كأنها ترصد التغيرات في وجهي، كأنها معلقة على حركة من شفتي، على كلمة ستخرج من بينهما لتحدد مصيرا تنتظره، كان نص الخطاب يقول:

عزيزي الدكتور يوسف صفوان:

بناء على الاقتراح الذي تقدمت به الدكتورة سلما باتشينو يسرنا أن نعرض عليكم استعداد تكنو سبايس كيميكالز كوربوراشون للاتفاق معكم مبدئيا على ما يلي:

إبرام عقد عمل لمدة خمس سنوات قابل للتجديد بينكم وبينها، على أن تكون الوظيفة التي ستشغلونها هي نائب رئيس قسم الأبحاث الالكتروماغناطيسية المتعلقة

بتخليق وتفتيت المواد الكيماوية وهذا بمرتب يجري التفاوض عليه بعد موافقتكم على هذا العرض.

شراء براءة الاختراع الخاصة بالاكتشاف الكيماوي الكترون ١٠٧ الذي توصلت إليه وهذا بمبلغ يتم التفاوض عليه بينك وبين الشركة، علما بأن المسئولين بالشركة مدركون تماما لأهمية هذا الاكتشاف المتعلق بآليات تكوين المواد الكيماوية العضوية، وغير العضوية، وعلى استعداد لدفع المبلغ الذي يستحقه وفقا للقواعد المرعية في هذا الشأن.

ونحن نقترح أن تقوم بزيارة إلى مدينة نيويورك لمناقشة التفاصيل مع المسئولين في الشركة، والي شيكاغو لتفقد معاملنا الخاصة بالأبحاث الكيمياوية، وستتكفل الشركة بجميع مصاريف السفر والإقامة طوال الزيارة التي نقترح أن تكون لمدة أسبوع.

ويسرنا في الختام أن نؤكد لكم مدى تقديرنا لمكانتكم العلمية والسعادة التي ستشعر بها إذا ما وفقنا في إتمام هذا الاتفاق بشكل نهائي.

مع خالص التحية

جون ماكينون

رئيس شئون الأبحاث الكيماوية

كلمات الخطاب ما زالت ترقص أمام عيني " يسرنا أن نؤكد لكم مدى تقديرنا لمكانتكم العلمية، والسعادة التي ستشعر بها إذا ما وفقنا في إتمام هذا الاتفاق بشكل نهائي.

لم أتعود أن أسمع كلاما مثل هذا يوجه إلي، كلاما فيه تقدير ومن أناس يقفون على قمة الصناعة العالمية، ويتعاملون بالبلايين، مرتب عال لمدة خمس سنوات، ومبلغ كبير مقابل براءة الاختراع، ومعامل تتوفر فيها كل إمكانيات البحث العلمي أري نفسي واقفا فيها مرتديا معطفي الأبيض.

الصور تتوالي في ذهني، جالسا في الطائرة ترتفع بي في السماء فأرى مدينة القاهرة تتقلص لتصبح نقطة صغيرة.

أترك همومي ورائي في المدينة واستنشق رائحة الحرية، أو واقفا في صالة ضخمة مزدحمة بالناس، عيونهم مرفوعة إلي، والتصفيق يتردد عاليا في أذني. . من يعلم. . ربما حصلت على جائزة نوبل، ألم يحصل عليها

زويل، تمر أمامي حياتي كلها كأنني أعيش لحظة النهاي ـة يرى فيها الإنسان كل ما مر عليه.

تكتسحني سعادة طاغية أحس بأنني أخيرا سـ ـأفلت من الخية، وفي الوقت نفسه أشعر بالقلق، أصـ ـبحت مثـ ـل الكرة تتلقفني الأفكار مثل أيدي الأطفال، إنه شيء لم أكـ ـن أتوقعه حتى في الخيال، حلم سِأفيق منه لأعود إلى الواقـ ـع عشته منذ أن سرت بقدمي الحافيتين فوق التراب، أقف في مفترق الطرق، ولا أعرف أين اتجه، قلبي يـ ـدق بالفرحـ ـة، وعقلي يقول لي اهدأ، هذا القرار يحتاج إلى تفكير إلى تقلبه وتفحصه جيدا، فمعناه أن تلقي بنفسك في خضم لم تتعـ ـود السباحة فيه بعد أن وصل سنك إلى ثلاثة وخمسين سنة.

يعني أن تقطع الصلة بالحياة التي عشتها، وبالمسار الذي تعودته، أن تتنازل عن أشياء، وأفكار، وأماكن، وناس ارتبطت بهم، معناه أن تعيش في بلاد يصفون أمثالك فيها " بالإليان " ، بالغرباء، ويكتبـ ـون هـ ـذا فـ ـي خانـ ـة خاصـ ـة بأوراقهم، لكن معناه أيضا الراحة ورغد العيش وإمكانيـ ـات للعمل والمتعة لم تعرف مثلها، معناه إلا تفترق مـ ـع هـ ـذه

المرأة المنتفضة ذكاء، وحيوية، هذه المرأة التي عاشـ رتها وعرفت معها ليالي من الحب جارفة.

قالت: لم تقل شيئا.

قلت: أكاد أطير من الفرحة لكنه موضوع يحتاج إلى تفكير.

أحسست بها تبذل جهدا حتى تبقى هادئة.

قالت: طبعا. . . لكن إلى متي، يمكنك على الأقـ ل أن توافق على دعوتهم لزيارة الشركة للمناقشـ ـة، وزيـ ـارة المعامل، المدة القصيرة والزيارة لا تلزمك بشيء " .

قلت: تلزمني، ولا تلزمـ ـي، إنهـ ـا خطـ ـوة مـ ـن المفروض أن يكون لها ما بعدها، إنهم أناس يفكرون جيدا.

قالت: إنك تشك أكثر من اللازم.

سألتها: لماذا لم تقولي لي شيئا قل أن تقدمي على مراسلتهم؟

قالت: لو فرض أنني عرضت عليك الفكرة فقبلتها، ثم أرسلت إليهم فقوبل اقتراحي بالرفض، أليس فـ ـي هـ ـذا إحراج لك. . وضعت نفسي مكانك وأردت أن أبـ ـدأ بجـ ـس نبضهم، وفوجئت برد فعلهم.

قمت وجلست إلى جوارها احتضنتها ثم قالت:

لن أنسى أبدا ما أقدمت عليه من أجلي، دخلت إلـ ـى قلبي، ولن تخرجي، أهم شيء في السفر هـ ـو ألا نفتـ ـرق، قالت: هذا هو ما أحلم به.

ترددت كلمة أحلم به في أذني، قلت يا ترى. . هل ولدت الأحلام حتى تتبدد؟ قاومت هذا الإحساس كما قاومته في كل المرات السابقة.

(٢٣)

جاءه صوت كرنين الجرس يخترق طبقات الغيـوم الثقيلة التي أحاطت بعقله، فتح عينيه ليجد نفسه غارقا في ظلام دامس صامت، لا يرى شيئا، ولا يسمع صوتا، حتـى صوت أنفاسه.

السكون من حوله مطلق، تملكه إحساس بالرعـب، هل دفن تحت الأرض؟ هل ما زال حيا، أم مات؟

كان جالسا في الطائرة، وكانت هي إلـى جـواره، ينظر في عينيها الزرقاوين المضيئين ويستمع إلـى رنـين صوتها في أذنيه، تتحدث إليه عن بيتها في " تشابيل هيل " بـ " نورث كارولينا " .

له حديقة زرعت فيها الـورود سـ يقتطفانها فـي الصباح وما زال الندى عالقا بأوراقها، أحس كأن مفاصـل الطائرة تئن، كأنها تتعرض لضغط لا يطاق، ولا بد أن يحدث شيء، اختلط الأنين بكلماتها تجيئه متقطعة غامضـة مـن أعماقه، هل هو خوف قديم من الطائرات لم يشـف منـه؟ المضيفة تميل عليه بصينية عليها كاسـات مـن عصـير البرتقال تهتز بعنف فيسمع صـوت احتكاكهـا، و تتحـول

الشابة فجأة إلى امرأة تشبه الدكتورة " عفاف " لها مخالب تغرسها في عنقه، يشعر بهزة هائلة في الطائرة كأنها اصطدمت بجدار من الصلب طارت " سلما " من مقعدها، واختفت، وتطايرت كل الأشياء من حوله فلمح الذعر في وجوه الناس انفصلت عن أجسامهم، وعلت الصرخات، أحس بالمقعد يهوي من تحته، وأصبح معلقا في الهواء، منقلبا برأسه إلى أسفل، وطارت ساقيه، ليصبح جذعا بلا ساقين يهوي، ويهوي في فضاء لا نهائي كأن لا شيء يمكن أن يوقفه ثم أحس بأنه توقف عن السقوط ففتح عينيه.

جاءه صوت الجرس مرة ثانية فبذل جهدا ليحرك ساقيه.

يشعر أنه مثل ذبابة وقعت في وعاء من العسل الأسود، قام من السرير، و وقف على قدميه، خطا في الظلام فتعثر في المنضدة الصغيرة وضع عليها بعض المجلات ليقرأ فيها قبل أن ينام.

أضاء المصباح، وخرج إلى الصالة، توقف وأرهف أذنيه، لم يسمع شيئا فاجتازها و وقف خلف الباب سأل " من يدق " ؟ جاءه صوت امرأة كتمه خشب الباب:

" أنا نينا " " نينا القرنفلي " افتح يا " يوسف " .

فتح الباب كانت واقفة على العتبة تحت ضوء مصباح السلم الضعيف، فوجئ بمنظرها شعثاء الشعر تبدو نحيفة للغاية، كأنها فقدت كثيرا من وزنها، ترتدي ثوبا قديما داكن اللون، وحذاء يشبه الخف، أصبحت عظام وجهها بارزة، واتسعت عيناها بشكل مخيف.

لم يتنبه إلى أنه ظل واقفا دون أن يدعوها للدخول، ألقت إليه بنظرة اختلط فيها الغضب باليأس، قالت في عصبية:

هل ستتركني واقفة على بابك إلى الأبد؟!

نطق بسرعة " آسف " وأفسح لها الطريق، اجتازت الطرقة القصيرة، وخطت داخل الصالة وهي تنظر حولها كأنها تبحث عن مكان تستقر فيه، فأمسك بيدها وقادها إلى حجرة المعيشة.

ألقت بنفسها في المقعد وظلت تنظر أمامها دون أن تقول شيئا. بدت منكمشة ضئيلة في المقعد الواسع.

ألقى المصباح الذي نسي أن يطفئه قبـ ـل أن يـ ـأوي إلى الفراش ضوءا نصف معتم على أثاث الغرفـ ـة، وعلـ ـي رفوف الكتب ترتفع حتى السقف في صفوف داكنة، وعلـ ـي رفوف الكتب ترتفع حتى السقف في صفوف داكنة، اجتازتها رعشة، تحركت كأنها تحاول أن تدفن جسـ ـمها فـ المقعـ ـد، كان الشارع صامتا ما عدا صوت سيارة وحيدة مرت فيـ ـه بسرعة كأنها هاربة من وطأة السكون الثقيل الرابض على الحي ينتظر وقوع كارثة.

المرأة الجالسة في المقعد الكبير شاحبة، ضئيلة في ثوبها الداكن، تبدو له كأنتها خرجت من حطام الطائرة الذي كان يحلم أنها انفجرت به قبل أن ينتزعه رنين الجرس من سقوطه المتهاوي. جلس على المقعد أمامها صامتا، قالت فجأة:

" مالك تتفرس في هكـ ـذا دون أن تقـ ـول شـ ـيئا، أزعجتك وأنت مستمتع بساعات من النوم المريح؟ انتزعتك من أحلامك الجميلة؟ جئت مثل نذير شؤم انقـ ـض عليـ ـك؟

لماذا تنظر إلى كأنني عجوز شمطاء أفسدت عليك راحتـك في جوف الليل؟ اطردني، فأنت لست في حاجة إلـى، أنـا جزء من المشاكل التي تحيط بك.

زوجة " نبيل القرنفلي " الذي ينتظر وقوعك فـي فخه الجديد.

امرأة مومس سكيرة لا تساوي شيئا، لماذا لا تنطق بالأفكار التي تمر في ذهنك بدلا من أن تظل تحملـق فـي ببلاهة كأنك ساذج، بريء لا تفهم ما الذي يدفعني إلى قول ما أقوله لك؟

فوجئ بسيل الكلمات المنفعلة تنطلق من بين شفتيها كأنها تتقيأ ما تراكم في جوفها منذ زمن بعيد، في نظرتهـا شيء يكذب الكلمات الجارحة التي أطلقتها عليـه، شـيء كالرجاء الغامض.

دعاء أخرس يتساءل متى تفهم لماذا ألجـا إليـك ؟ ترى ما الذي دفعها إلى أن تطرق بابه فـي هـذه السـاعة المتأخرة من الليل. قال:

أبدا يا " نينا " أنت تعرفين أنك ضيفة عزيزة ومرغوبة في أية ساعة من النهار أو الليل.

ضيفة ؟.. ومرغوبة ؟ ضحكت ضحكة قصيرة جافة: كنت صديقة وأصبحت ضيفة لكن مرغوبة، ولماذا مرغوبة ؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا يمكن أن يرغب الناس في امرأة مثلي.

يا " نينا " ما الذي جرى حتى تتحدثي عن نفسك بهذه الطريقة ؟ أنت صديقة، وقفت معي موقفا نبيلا ولن أنسي هذا أبدا، ومشاعر الصداقة التي أحملها لك حقيقة يجب ألا تشكي فيها ".

إذن لماذا تنظر إلى هكذا ؟ هل تظن أنني لا أدرك معنى هذه النظرات ؟ أنت ضقت بي وتريد أن تتخلص مني، كلكم تريدون أن تتخلصوا مني، كنت أحلم أنني في يوم من الأيام سأفلت مما أنا فيه، أنني لن أكون مضيفة يتفقد الرجال الجالسين ببطونهم الكبيرة صدرها عند تميل لتضع أمامهم زجاجة النبيذ، فأصبحت رهينة سرير رجل وحش يريد أن يلقي بي إلى قارعة الطريق بعد أن أخذ مني ما يريده، وأنت مثل كل الرجال، لا تريد صديقة مثلي تطاردها

الأشباح وتبحث عن وسيلة للخروج مما هي فيه، أنت تريد عشيقة مسلية تحتويك بجسمها كلما اعترضـ تك الصـ عاب، عشيقة تمتص منك التوتر، والضيق، أما أنا فلا نفع لي.

لا تقولي هذا الكلام كنت نائما واستيقظت من حلـ م فظيع، حلمت أنني مسافر في طائرة وهوت بي.

سألت: مسافر وحدك ؟

قال: نعم وحدي، لكن أنت لم تجيئي إليّ حتى أحكي لك أحلامي، لست في حالتك الطبيعية، يبدو أن هناك شـ يئا حدث، كما يبدو عليك التعب الشديد بل والفزع ، ولذلك لـ م فتحت الباب ورأيتك انزعجت أخذت على غـ رة، فارتبكـ ت ولذلك لم أستقبلك بطريقة لائقة، أنا آسف إن كنت جرحتـ ك في شيء فأنت حقا إنسانة عزيزة علـ يّ ولـ ولا الظـ روف المعقدة التي نحن فيها لعبرت لك عن هذا الإعزاز على نحو أفضل بكثير، أرجوك احكي لي ما الذي دفعك إلى المجيء ؟

ظلت صامتة، ثم بدأت تبكي بكاء متصلا بلا صـ وت مثل تمثال من الحجر الأبيض تسقط منه عينيه الدموع، بكت طويلا، فتركها إلى أن توقفت، مسحت على عينيها بمنـ ديل ثم قالت:

أنا آسفة لم أبك منذ مدة طويلة.

أحس بالأسى سألها:

هل أصنع لك شيئا ساخنا لتشربيه، شاي، أو أعشاب، أو قهوة.

قالت: أريد كأسا من الويسكي، ولا داعي لهذه النظرة ، كأس أكثر أو أقل لم يعد يغير شيئا.

قام وأعد كأسا من الويسكي وعاد به ومعه بعض الفطائر، أخذت الكأس وابتلعت منه رشفتين ثم وضعته إلى جوارها.

قال: احكي لي، لا تتركني شيئا، خذي راحتك لن أذهب إلى العمل اليوم.

قالت: سأحاول صمتت لحظة طويلة كأنها تلملم شتات أفكارها ثم بدأت تحكي قالت:

بالأمس كنت راقدة في غرفتي أقرأ قبل النوم، فجأة فتح الباب ودخل " نبيل " اندهشت فمنذ مدة تعودت أن يتركني لحالي طالما أنه لا يريد أن يطلب مني شيئا يتعلق بالبيت، أو " البوتيك " كان وجهه محتقنا وكان يتمايل وهو يمشي فأدركت أنه شرب.

توجست. ما الذي أتي به في هذه الساعة من الليل ؟ لكنه لم يقترب مني، سحب مقعدا، قربـ ـه مـ ـن السـ ـرير وجلس، كان ينظر إلى كأنه يتأملني، في عينيه لمعة ألمحها في لحظات الانتصار أو التشفي، قال: " يا حبيبتي عنـ ـدي لك نبأ سار " .

توجست من جديد لكني لم أساله فأنا أعرفـ ـه، لـ ـن يحكي إلا عندما يريد يرضيه الإحسـ ـاس بـ ـأنني أنتظـ ـره، وأشعر بالقلق. فلما صمتت استأنف كلامه قـ ـائلا إن النبـ ـأ يتعلق بعشيقي " يوسف صفوان " .

بدا عليه الانزعاج، أعـ ـادت نظرتـ ـه بضـ ـيق ثـ ـم استطردت.

قلت له إنك لست عشيقي، وأنه هو الذي طلب مني أن أسعى إلى إقامة علاقة معك تسهل لي معرفـ ـة المكـ ـان الذي تخفي فيه أوراق البحث، رد بأن هذا صحيح إلا أنـ ـي نفذت ما طلبه مني شكلا لكنني في الواقع وقفت معك ضـ ـده وأصبحت أعطيك أنت المعلومات عنه، كشفت لك أسراره لا لسبب غير أني امرأة مومس خائنة أبحث عن رجـ ـل آخـ ـر ربما أستطيع أن أستغله بعد أن انكشفت أمامـ ـه، وبعـ ـد أن

أصابه الملل مني فلا يوجد إلا رجل تافه شـ حاذ يمكـ ـن أن يهتم بامرأة مثلي لا تصلح إلا لكي تعمـ ـل " معلمـ ـة فـ ـي ماخور، أو خادمة في بار " .

قلت له إنه مخرف، وأنني أتحداه لكي يثبت حقيقـ ـة ما يقوله، فأصر انه متأكد من كل كلمة قالهـ ـا، رفـ ـض أن يكشف كيف وصل إلى ما وصل إليه، ثم أضاف أن كل مـ ـا حدث لم يعد مهما عنده الآن بعد أن عثـ ـر علـ ـى وسـ ـيلة يستطيع بها الحصول على المعلومات التي يريدها، إنه لـ ـم يعد في حاجة إلى وإلى خدماتي بعد أن عرف كـ ـل شـ ـيء عني، وعنك فقد تتبع كل خطواتي ومنها تحركاتي في يـ ـوم أن التقينا في " عوامة " " بانوراما " وبدلا من أن نفترق في نهاية جلستنا ذهبت معك إلى شقتك، وبت الليلة عنـ ـدك " .

لمحها ترتعش فسألها: هل أحضر لك غطاء ؟

هزت رأسها فقام وعاد حاملا " عبايـ ـة " أخـ ـذتها منه ولفتها حول كتفيها، وخلف ظهرهـ ـا، ارتشـ ـفت مـ ـن الويسكي ثم استطردت: أحسست ألا فائدة من الإنكار، لكني

تعجبت كيف وصل إلى ما وصل إليه ، بعد أن تركني فتشت كل أشيائي الخاصة.

سهرت الليل كله إلى أن اكتشفت هذا.

مدت يدها إلى أذنها وخلعت الحلق الفضي الكبير الذي كانت ترتديه، كان مخروطا في شكل قلب، فتحت فكشف عن تجويف في داخله وضع فيه مستطيل معدني صغيرة طوله أقل من سنتمتر. قالت:

هذا جهاز تسجيل، أفرغ الخلق من الفضة ووضعه فيه كنت أخلعه عندما آوي إلى الفراش، أخذه مني غالبا وأنا مستغرقة في النوم وتمت عملية إخفاء الجهاز بدقة فوزن الحلق لم يتغير بعد أن وضع فيه.

تتبعها مشدوها وهي تواصل حكايتها:

كان هادئا على غير عادته، قال إنني مومس خائنة لا يمكن أن يعتمد على إخلاصها، أنني طعنت الرجل الوحيد الذي مد إلى يد المساعدة وأنقذني يوم أن التقطني من الباب في " طشقند " كان مصيري الشوارع أو المواخير، الضياع والتشرد بلا مأوى ألجأ إليه، حماني وأوجد لي بيتا لم أكن أحلم به.

عرفني بعلية القوم في بلاده وقدمني لهم زوجة رجل سليل أسرة من الأسر العريقة، كان يجب أن يتركني لمصري، أن يدرك أن امرأة مثلي ولدت في ظل الشيوعية ورضعتها كان لا بد أن تكون منحطة، بلا دين، ولا ملة، ولا وفاء لأي شيء، أنني لا أستحق إلا الكرباج على ظهري ورجل حيوان يركبني، لكن الآن يستطيع أن يرمي كل ذلك وراء ظهره، سيصل إلى ما يريده بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر، وبعد ذلك سيفكر فيما يريد أن يفعله بي.

أشعلت سيجارة من العلبة الموضوعة أمامها، قال:

وأنت هل ستبقين هكذا تحت رحمته، إنه قادر على أي شيء يجب أن تتركيه فورا.

قالت: أتركه إلى أين ؟

أنا مستعد لمعاونتك، سأبحث عن مكان لك، ويمكن أن تقيمي عندي لبعض الوقت.

حملقت أمامها دون أن تقول شيئا فقال:

أنا جاد في هذا، لا يمكن أن تبقى معه يوما واحدا بعد ذلك، إنه لا يؤمن جانبه.

لم ترد أخذت رشفة من الويسكي، قالت:

أريد أن أسألك لماذا يتحدث بكل هذه الثقة عن اهتدائه إلى وسيلة للحصول على أوراق البحث ؟

ظل يقبل سؤالها في ذهنه، لماذا تسأله ؟ قالت:

لم ترد.

ليست لدي أية فكرة.

هل تخفي الأوراق في بيتك ؟

تردد لحظة خاطفة ثم قال: لا.

فوجئ بالدموع في عينيها، مسحتها بسرعة دون أن تقول شيئا سألها:

لماذا تبكين ؟

قالت: لا شيء، إنه التوتر.

قال: لا.. هناك شيء.

قالت: لأن لا أحد يثق فيّ حتى أنت ؟

احتار قال: هذا الجو يجعلني احتاط في كل خطوة ويفسد كل لحظاتنا.

قال في عصبية: تحتاط مني أنا بعد..

دارت بعينيها حول الغرفة كأنها تتفادى النظر إليه، أحس انها تصارع حتى لا تسقط الدموع من عينيها، قام

وجلس إلى جوارها، مد ذراعه ليحيط بكتفيها فابتعدت عنه، أطفأت سيجارتها في المنفضة سريعة من أصابعها قالت:

أريد أن أتحدث في التليفون.

أشار إلى جهاز تليفون أخضر اللون موضوع علـ ـى رف قرب مكتبه، قامت وأدارت رقما وقفت تنتظر، ثم أعادت السماعة إلى مكانها كأن أحدا لم يرد عليها، عـ ـادت إلـ ـى المقعد وأخذت حقيبتها قالت:

إن كان لديك أوراق هنا في الشـ ـقة أنصـ ـحك بـ ـأن تنقلها بعيدا حتى إن كنت واثقا من طريقة إخفائها، ألم يكن عندك شغال اسمه " محمود " تركك منذ شهور ؟

تملكه إحساس بالفزع، إنهم وراءه، ولن يتركـ ـوه، أصبح ضوء المصباح واهنا كأن التيار الكهربائي انخفـ ـض فجأة، وقفت أمامه طويلة نحيلة كالشبح في ثوبها الأسـ ـود، تشبه امرأة في مأساة إغريقية قديمة تواجه قدرها، مصـ ـير غامض يحلق فوقها كالطير الجارح، لـ ـم يبـ ـذل أي جهـ ـد لمساعدتها، أما هي فإلى آخر لحظة لم تنس أن تنبهه إلـ ـى ما يدبر له، اختلط الألم في نفسه بالعجز والخجل.

قالت: سأنصرف.

قال: لماذا لا تبقي معي هنا، يمكنك أن تستريحي قليلا ثم نتناول إفطارنا في مكل على النيل، أو إن فضلت هنا.

قالت: شكرا " نبيل " سافر إلى " ليماسول " و " أنقرة " ولا أعرف متى يعود.

قال: انتظري.. سأرتدي ملابسي، وأوصلك حتى سيارتك.

قالت: ليست معي سيارة، جئت بسيارة أجرة، وأريد أن أمشي على قدمي حتى المنزل.

في هذه الساعة و وحدك ؟ سأوصلك أنا بسيارتي.

قالت في إصرار: لا الفجر شقشق وبعد قليل ستطلع الشمس، وأنا في حاجة إلى المشي إلى التفكير، وأنا سائرة، فاتركني لست في حاجة إلى أحد.

قال: على الأقل أهبط معك، ففي هذه الساعة العمارة عتمة.

قالت: إن أردت.

فتح الحارس عينيه، ورمقهما وهما يخرجان من الباب الحديدي الموارب تدلى منه قفل مفتوح مربوط في سلسلة.

قالت: إلى هنا ونفترق.

قال: يمكن أن أمشي معك حتى المنزل.

قالت: لا شكرا..

مدت إليه يدها فأمسك بها ثم مال وقبلها على وجهها نظرت إليه طويلا ثم استدارت، وسارت فوق الرصيف، بعد قليل اختفت في الشبورة الرطبة المثقلة بالدخان.

(٢٤)

جلسا يتناولان إفطارهما على شرفة الاستراحة الصغيرة بناه " إسماعيل أبو سمرة " في النوبارية ليقيم فيها أثناء إشرافه على شئون المزرعة، أمامها امتدت المساحات المزروعة بشجر التفاح تدلت منها الثمار الوردية اللون، أو العنب تسلقت غصونها الرفيعة الأسلاك الممدودة بين القوائم، أو المانجو ما زالت يانعة لم يكتمل نموها ما عدا نصف فدان زرع في البداية لتجربة تربة الأرض، أخذ يحكي له عن آخر التطورات في نشاط الاتحاد.

أجمع أعضاء مجلس الإدارة على تنظيم مظاهرة صامتة تبدأ من سوق " الناصرية " وتتجه إلى مجلس الشعب مارة بميدان لاظوغلي، و وزارة العدل، توقف لحظة، وقال " أنت لم تحضر آخر اجتماع فأريد أن أسمع رأيك " . كان سارحا في زيارة " نينا " الأخيرة إليه وفي تأمل أوراق الشجر لمعت فوقها نقاط الندى كاللآلئ في الشمس، فلما توقف " إسماعيل " عن الكلام أحس بالصمت، التفت إليه:

هذا المكان يا " إسماعيل " بديع، لو كانت عندي مزرعة مثل هذه لأقمت فيها، وذهبت إلى القاهرة فقط كلما احتجت.

دار " إسماعيل " بعينيه حول المساحات الخضراء بنظرة المالك الراضي عن نتائج الجهد قال:

ربما يأتي اليوم لكن " يا يوسف " سألتك سؤالا، ولم ترد عليّ، فيما كنت تسرح ؟

ابتسم: هل أجيبك على سؤالك أم أخبرك عما كنت أسرح فيه ؟

قال ضاحكا: أجبني على سؤالي الأول ثم بعد ذلك اسرح بي.

لست خبيرا في المظاهرات لكن عندي سؤال لماذا اخترتم هذا الطريق ؟

قال: لعدة أسباب.. سوق " الناصرية " فيه زحام شديد يجعل الاعتداء على المتظاهرين مستبعدا، الزحام يمكنهم من الاختفاء وسط الناس وهم يتجمعون الشوارع والحواري التي تتفرع من السوق عديدة مما يسهل الوصول إليه بأكثر من طريق، ثم المواكب التي تتجه إلى مجلس

الشعب تأتي إليه عادة من شارع قصر العيني، اختيارنا فيه عنصر المباغتة، أنت ستمشي في الموكب أليس كذلك ؟

قال: بالطبع متى سيكون ؟

غدا الساعة الثامنة صباحا.

غدا ؟ وفي الساعة الثامنة صباحا ميعاد غريب لعمل مظاهرة لن يكون هناك أجد في مجلس الشعب.

ابتسم ابتسامة القائد المحنك الراضي عن تخطيطه.

رئـ يس مجلـ س الشـ عب سـ يتهرب مـ ن اللقـ اء بالمشاركين في الموكب، لذلك فالتوجه إلى المجلس لـ يس سوى مسألة رمزية، هذا التبكير مفيد لأنه غير متوقع، ثـ م أغلب الناس يذهبون إلى عملها في هذا الوقت، هكذا نضمن أن أعدادا كبيرة منهم سيشاهدون الموكب، وربمـ ا انضـ م بعضهم إليه.

أين سألقاك ؟

في الساعة السابعة صباحا عند باب المسجد، اترك سيارتك في مكان قريب فقد نحتاج إليهـ ا، واحضـ ر معـ ك ثلثمائة جنيه واتركهم فيها، لا تحضر معك أي شيء يمكـ ن اعتباره آلة حادة، مطوة مثلا إذا قبض عليـ ك لا نريـ د أن

تقول الصحف " العالم المعروف " يوسف صفوان يضـ بط في مظاهرة حاملا مطوة قرن غزال، والآن احك لي عـ ن " سلما باتشينو " هه لماذا يبدو عليـ ك الانـ دهاش كـ أنني اكتشفت سرا عويصا لا أحد في مصر، أو على الأقـ ل فـ ي قاهرة المعز يجهل حكايتك مع " سلما باتشينو " .

كيف ؟

لأنكما تتجولان سويا في كل أنحاء المدينة ابتـ داء من جامع " عمرو بن العاص " مرورا بـ ـالأوبرا حتـ ى " الباطنية " هل ستتزوجها ؟ الشـ ـرع يسـ ـمح لـ ـك بـ ـأربع زوجات، وإذا تزوجتها يكون عندك اثنان فقط، إذن لا حرج عليك شريطة أن تسلم هي، أو ربما تكون مسلمة فتسهل لك الأمور، اسم " سلما " يوحي بهذا:

لا هي يهودية.

يهودية ؟ على رأي المثل " لما شطح نطـ ـح: إلـ ـى وقت قريب كنت رجلا مقتصرا، من البيت إلى المعمل، ومن المعمل إلى البيت، لكن في الأيام الأخيرة يبدو أنك أصـ ـبحت زئر نساء وتفرغت " لسلما باتشينو " اليهودية و " نيـ ـنا القرنفلي " الروسية بدلا من البحث العلمي.

قال وهو يكتم ضحكاته:

" نينا القرنفلي " إنت عارف حكايتها، كشفت لـ ـي عن حقائق هامة خطيرة، وأنا مدين لها بذلك، لا أستطيع أن أقطع صداقتي بها خصوصا في هذه الظروف التـ ـي تعـ ـاني منها، أما الزواج من " سلما باتشينو " فهذه قضية أخرى لم أفكر فيها، ثم الورقة لن تغير شيئا.

ربما احتجت إليها في يوم من الأيام.

هناك ما يشغلني أكثر من الزواج بامرأة ثانية فـ ـي الفترة الأخيرة توسطت " سلما " لدى الشركة التي تعمـ ـل فيها فأبدوا استعدادهم لإعطائي عقد عمـ ـل لمـ ـدة خمـ ـس سنوات قابلا للتجديد، وشراء الاكتشاف الذي توصلت إليـ ـه بمبلغ مجزي، فما رأيك، أنا متردد:.

طبيعي متى يجب أن ترد عليهم.

قبل نهاية الشهر الحالي.

مهلة كافية... أنا ليس لي رأي، هذه مسألة يجـ ـب أن تقررها وحدك.،

أعطيتني رأيك في أشياء كثيرة أقل أهمية، فلمـ ـاذا تصمت في مسألة تتعلق بمستقبلي كله ؟

لأنني لا أعرف الظروف التـ ـي سـ ـتواجهك هذ ـاك، تجربتي كما يقول أصدقاؤنا خبراء المراك ـز الاسـ ـتراتيجية محلية القرار متعلق بحياتك أنت ولا أحد يستطيع أن يضع نفسه مكانك، أنا لا أريد أن أجد نفسي في موقف من أخط ـأ النصيحة لتتحمل أنت النتائج.

لكن أنا الذي سأقرر في النهاية، علـ ـى أي حـ ـال " صمت ثم قال: " ليس قرارا سهلا لأسباب كثيـ ـرة ومنهـ ـا طبعا " سلما " أنت لا تعرفها، إنها امرأة وإنسانة نـ ـادرة " .

لا أشك في ذلك، الواضح أنك لم تحتج معهـ ـا إلـ ـى الفياجرا.

أنت أحيانا سخيف.

طبعا عندما أقول الحقيقة ؟

حبي لها أكبر من هذا.

أكبر أو أصغر، لا تحاول أن تقنعني أن الجنس لـ ـم يكن عنصرا مهما في علاقتك بها.

صب لنفسه كوبا من الشاي شـ ـربه فـ ـي رشـ ـفات سريعة ثم قال:

الزراعة تحتاج إلـ ى المخصـ بات واتفقـ ت علـ ى استلامها من أحد التجار عند محطة البنزين، لكن قبـ ل أن أذهب هناك مسألة يجب أن تفكر فيها.

ما هي ؟

نجوى.. سأتوجه أنا لتسلم الكيماوي وأثناءها تفرغ أنت للتفكير في مشاكل الحب، عندما أعود يمكننا أن نرحـ ل حتى نصل إلى القاهرة مبكرا، أقترح أن نمر علـ ى شـ قتك لتأخذ السيارة وأي شيء قد تحتاج إليه، يمكـ ن أن تبيـ ت الليلة عندي، ذهني مشغول بما سيجري غـ دا، و وجـ ودك معي سيخفف عني، المرأة خرجت من حياتي منذ مدة وأنـ ا في حاجة إلى من يعيشني في الحب، ولو نظريا، يجـ ب أن تحكي لي عن زيارة " نينا " إليك.

صحيح انك مسحت الديسك وتخلصت منـ ه لكنـ ك صمت حول التفاصيل الأخرى.

ضحك ثم أضاف:

لا تنس أنني مستشارك في كل الأشياء بمـ ا فيهـ ا شئون المرأة.

في تلك الليلة نام نوما متقطعا وأيقظه الشغال في الخامسة صباحا، قال له إن " إسماعيل " لا بد أن يسمع نشرة السادسة من لندن، إنها أهم عنده من طعام الإفطار إذا افتقدها يصاب بدوار طوال اليوم.

جلسا إلى جوار المذياع مع قدحين من القهوة، سمعا دقات الساعة الثامنة تلتها النشرة كان يقرأها المذيع بلكنة سورية.

" المرشح الأمريكي للرئاسة " بوتش " يؤكد أهمية القيم، والأخلاق كدعامة للأسرة واستقرار المجتمع الأمريكي ويطالب بإدخال الصلوات الصباحية في جميع المدارس " زكرمان " نائب الرئيس يقول إن ختان الذكور منصوص عليه في التوراة، أمر به الله اليهود لشعبه المختار مقابل الأرض الموعودة في فلسطين، ولا يمكن التنازل عنه تحت أي ادعاء لأنه جزء من التراث اليهودي المسيحي الذي أنار الطريق أمام البشرية، الإرهابيون في الجزائر يقتلون ثمانية وعشرين شخصا أغلبهم أطفال، ونساء دراسة تقول إن التدخين له فوائد جمة منها أنه مورد اقتصادي مهم، فإلي جانب الاستثمار والأرباح التي

يحققها والعاملين الذين يوفر لهم فرصة العمل يؤدي إلى الوفاة المبكرة عند المدخنين ويوفر على الدولة مصاريف الخدمات لكبار السن التي تتزايد أعدادهم مع مرور الوقت بسبب تحسن الظروف الصحية وإطالة العمر، والخبر الأخير من مراسلتنا في القاهرة " جيني أوزبورن " تقول فيه إن اتحاد المعاقين المصريين سيقوم صباح اليوم بمظاهرة صامتة لتقديم مطالب المعاقين إلى مجلس الشعب وأن هذا الاتحاد من المنظمات المناوئة لسياسات النظام في مصر، وتعتبره الدولة عنصر تهديد للاستقرار الاجتماعي، والأمن القومي " .

ارتعشت يد " إسماعيل " وهو يعيد قدح القهوة إلى المنضدة، بدا عليه الغضب قال:

أولاد الأبالسة، هذه أخبار أم استخبارات كأنهم يحرضون علينا.

قال " يوسف " :

يجب ألا تفاجأ بمثل هذه الإشاعات فأنت تحاول تنظيم من لا صوت لهم وهذه معصية يعتبرونها من الكبائر

لا يمكن أن يتغاضوا عنها، ثم ربما الخبر لن يضـ ـر، إنـ ـه إعلان مجاني ينبه الرأي العام في العالم لأشياء تحدث " .

قال " ربما " ثم نظر إلى ساعته، هيا بنا الوقـ ـت أزف.

كان يعرف مناديا في وزارة الصحة فأدخله بالسيارة إلى الفناء ليتركها في حراسته، قال " عيناي الاثنتان لك يا بك " ثم أضاف " نهارك فل " عندما لمح ورقة الخمـ ـس جنيهات تمتد إليه، وأصل السير على قدميه وأثناءها لمح " إسماعيل " قادما في سيارته مـ ـن الميـ ـدان، كـ ـان احـ ـد مساعديه ينتظره بمقعد متحرك عند باب المسجد، عاونه في النزول ثم استقل السيارة ليتركها في مكان قريب.

لم يكن قد ذهب إلى السوق منذ مدة طويلة فانشغل بتتبع عربات النقل وهـ ـي تفـ ـرغ حمولتهـ ـا مـ ـن أقفـ ـاص الطماطم، أو أكياس البصل، والبطاطس، أو حـ ـزم الجـ ـزر، والخس والسبانخ، بالملامح الخشنة لمع العرق فوق جلدها الأسمر، بالظهور تميل تحت ثقل الأحمال، وبالأيدي الخشنة تلقفها من أعلى الشاحنات بالباعة يرصون الطماطم الحمراء على عرباتهم، وتلال البرتقال تلمع بلونهـ ـا الزاهـ ـي فـ ـي

الشمس، بالبطيخ الأخضر الغامق محمي تحت الشوادر، فعاد في لحظة خاطفة إلى الطفل الذي كان يجري في الحقول خلف الفراشات، ويقطف القرون الخضراء للفول " الحراتي " أو يستمع إلى أنين الساقية تدور تحت شجرة الجميز.

إلي ملامح جدته، ويديها الكبيرتين تلقي بالحطب في جوف الفرن ليصبح حاميا، أحس بالراحة وهو يدور بعينيه على حركة السوق ويستمع إلى أصوات منغمة تنادي " ملوخية صابحة، بامية، كوسة، بدنجان، طماطم " كأنه يعود إلى أشياء الحياة الجوهرية.

توافد المعاقون في جماعات صغيرة جالسين في مقاعدهم أو سائرين على أقدامهم، تسللوا في مختلف المسالك كالجداول الصغيرة البطيئة دون أن يتنبه أحد إليهم، تجمعوا حول المسجد فتضخم السوق وأصبح كالبحر تتحرك فيه رؤوس الناس في أمواج.

كان " إسماعيل " جالسا في مقعده ومن حوله أعضاء مجلس الإدارة ومندوبو الأفواج التي جاءت من أحياء القاهرة وبعض الأقاليم تشكلت منهم لجنة للتنسيق،

تفرقوا ليعود كل منهم إلى الفوج الذي جاء منه بعد انتهت المشاورات فيما بينهم، وفجأة زعق " إسماعيل " بصوت عال " الساعة الثامنة الآن " فارتفعت لافتة كبيرة من القماش الأبيض كتب عليها بطلا أخضر " اتحاد المعاقين المصريين " تحركت إلى الأمام مشدودة بين عامودين من الألومنيوم ارتفع كل منهما فوق مقعد أحد المعاقين.

سار الموكب خلف اللافتة بخطوة بطيئة وفي صمت كامل فتوقف الناس في السوق عما كانوا يفعلون، والتفتوا إليه، لمح رجلا عجوزا وضع كيسا من البرتقال على الأرض وصعد فوق دكة من الخشب ليتابع الموكب، وفتاة خلعت منديل رأسها وأخذت تلوح به، وشحاذا فاقد الساقين يدفع نفسه بسرعة فوق الطريق جالسا على لوح من الخشب مزود بعجلتين حتى ينضم إلى الموكب.

اصطف الناس على الجانبين يشاهدون الموكب، بدأت أصواتهم تخف بالتدريج حتى كادت أن تسكت تماما ما عدا سؤال هنا أو تعليق هناك " من هم " ؟ معوقون!! إلى أين يتجهون ؟ إلى مجلس الشعب، من هو رئيسهم ؟

سار في مقدمة الموكب شعر بشيء من الانفصال عما يحدث فأخذ يلاحظ الناس والمشاركين في الموكب، امرأة تقول " منظرهم مخيف " فردت زميلتها " حرام عليك... ربنا خلقهم مثلك " أحس أنه ليس منهم، فلماذا يسير في هذا الموكب، ما الذي جمعه مع هؤلاء ؟ تعجب لنفسه، طوال عمره يندفع في الأشياء دون أن يوزنها بدقة، مع ذلك يراهم يبتسمون إليه، أحدهم يلوح ناحيته بالبوريه الذي يرتديه ثم يعيده إلى رأسه، وهذه الفتاة القزمة أمسكت بيده وسارت معه، بين الحين والحين ترفع رأسها وترنو إليه، الفيونكة التي تربط بها شعرها تتأرجح كالفراشة الضخمة، أحس بالدفء ينتقل إليه منهم، يتسرب بالتدريج من هذه الأجسام تعاني التشوه، بقلبه يكبر، بالغصة في حلقه، بأن الدنيا أصبحت واسعة تمتد أمامه بحجم الإنسانية كلها، بأنه نقطة في بحر يستمد منه القوة، ثم فجأة سمع امرأة تصرخ " العسكر العسكر جاءوا " .

بدا له أن عاصفة هوجاء هبطت عليهم وبعثرتهم في كل الاتجاهات، لم يدر ماذا حدث بالضبط، رأى شيئا كالجدار الأسود يسقط فوقهم ويسد المنافذ عليهم، فاختفت

السماء، واختفي الذين كانوا سائرين معه، ترددت في أذنيه فرقعات متتالية، وبعدها حاصرته غيوم كثيفة فلم يعد يرى شيئا، أحس بأنفه وحلقه يشتعلان فأخذ يسعل، ثم انهالت عليه ضربات فيها شحنة فخطر في باله وهو يسقط " إنهم يضربوني بالعصي الكهربائية " ثم فقد الوعي.

أفاق بعد مدة لا يعرف مداها، وجده نفسه راقدا على بطنه نصفه الأعلى على الرصيف وساقاه فوق الأسفلت، ظل راقدا لا يتحرك ثم أخذ ينظر حوله، فوجئ على امتداد السوق بعملية دمار أهوج، أكوام من البرتقال تطير في الهواء وتتبعثر، أكشاك وعربات ومقاعد تتطاير أجزاؤها فيسمع صوت الخشب يتكسر، ورنين المعدن يحتك بالمعدن، الأسفلت مغطى بطبقة حمراء من الدم أدرك أنها آلاف من حبات الطماطم داستها الأقدام في الميدان أو من أكوام البطيخ، انشقت لتسكب قبلها الأحمر على الأرض. لاحظ أن العسكر قد حاصروا المتظاهرين في جزء منه، وانهالوا عليه ضربا فبدا له أنه يسمع صوت عظام تنكسر.

دفن رأسه في يديه حتى لا يسمع، لكن الصرخات والآهات كانت تصل إليه، ترتفع إلى السماء كأنها تستنجد

بالقوي العليا التي لا ترحم، تختلط بنهيق الحمير، وصهيل الخيول أخذت تجري هاربة من ضربات العصي تنهال عليها، تبحث عن منفذ ثم تعود من حيث أتت، تنطلق مرة أخرى في جنون أو تدور حول نفسها.

جلس على الرصيف و وضع يديه حول رأسه، الدنيا تدور من حوله وهو فاقد القدرة على الحس.

في لحظة هيئ له أنه يسمع شيئا مثل صوت طفلة تبكي، جاءه الصوت مرة أخرى على مقربة منه، فابعد يديه عن رأسه، والتفت، لمح فتاة جالسة على الرصيف وهي تحني رأسها أحس أنه رآها من قبل، إنها ليست أول مرة يرى فيها هذا الوجه.

أبعد نظراته عنها كأنه يحاول أن يتذكر ثم قال عليها وأمعن النظر في وجهها، رأى نفسه جالسا في غرفة " إسماعيل " وعلى الأريكة فتاة حول يديها أربطة من الشاش، نظر إلى يديها، فوجئ بكتلتين من اللحم الأحمر راقدتين في حجرها، بالدماء تنتشر في الثوب الممزق يكشف عن جسمها، مرت لحظة وهو لا يتحرك.

عيناه تحملقان في يديها كأنه عـ ـاجز عـ ـن إبعـ ـاد نظراته عنهما، كان المنظر بشع يشده إليه، ثم صرخ:

يا فتنة.. يا فتنة " فالتفتت إليه " انتظريني هنـ ـا.. لا تتحركي سأعود إليك حالا " .

ثم قام وأخذ يعدو في اتجاه وزارة الصحة.

(٢٥)

كانت مستلقية على الأريكة تقرأ في حجرة المعيشة، وكان هوت جالسا خلف مكتبه يراجع الجداول التي تسلمها من " تامر " قبل أن ينصرف من المعمل بالأمس زار " فتنة " في مستشفي قصر العيني " الفرنسي " قالت له إنها تحب " المانجو " فأخذ معه قفصا صغيرة من النوع الهندي أكد له " الفكهاني " أنه أجود ما وصل إليه من أصناف هذا الموسم.

وجدها راقدة في حجرة في سريران، في السرير الثاني فتاة ولدت باعوجاج في قدميها فأجريت لها عملية ووضعت ساقاها في الجبس، أحس أن المشرفين على العلاج مهتمون بهما وأن الرعاية التي تتلقاها جيدة فاطمأن قاله له الطبيب إنهم سيفعلون كل ما يمكن حتى تستطيع " فتنة " أن تستخدم يدها اليسرى، أما اليمنى فلا بد من بترها وتركيب جهاز تعويضي بدلا منها، مكث معها مدة قصيرة ثم انصرف، كانت سعيدة بزيارته، وبهدية المانجو لكنه أدرك أنها تفضل أن تثرثر مع زميلتها في الحجرة عن أن تتحدث مع رجل مثله كبير السن بالنسبة إليها.

خرج من المستشفى وتوجه إلى بيت " إسماعيل أبو سمرة " وجده راقدا في السرير حول رأسه رباط من الشاش عينه اليمنى متورمة، ازرقت جفناها والخد من تحتها، في يده أمسك بملعقة كبيرة كان يغترف بها من علبة " آيس كريم " . بدا حزينا مكتئبا رغم علبة " الآيس كريم " التي ابتلع نصفها.

جلس أمامه يتأمله فتملكته رغبة لا تقاوم في الضحك، كتمها، لكن بعد قليل افلتت منه الضحكات وعلت في الغرفة حملق فيه " إسماعيل " بضيق ثم ارتعشت شفتاه وصار يبتسم قبل أن تتحول ابتسامته إلى ضحكة مجلجلة، تصاعدت ضحكاتهما حتى ملأت الشقة، اطل عليهم الشغال كأنه يطمئن على حالهما.

صمتا ليستردا أنفاسهما ثم انفجرت منهما الضحكات والشهقات مرة أخرى وسالت الدموع من عيونهما قبل أن يتوقفا لمح البريق أخذ يطل من عين " إسماعيل اليسرى " .

صمت لحظة ثم قال:

هل أنت تشمت فيّ ربما استحق هذه الشماتة لكـ ـن الحقيقة يا " يوسف " ما حدث كـ ـان مأسـ ـاة ... مأسـ ـاة بالأمس جلست أفكر فيما جـ ـرى وأبكـ ـي، دمعـ ـت عيذ ـاه فمسحهما بسرعة، بذل جهدا لكي يتملـ ـك " أشـ ـعر أنـ ـي أدخلتهم في معركة دفعوا ثمنها غلبا، إنهم مساكين، مساكين " ، دمعت عيناه من جديد فنطر الدموع بيده في ضيق، لـ ـم أكن أتصور لم أكن أتصور أن الوحشية يمكن أن تصل إلـ ـى هذا الحد، أنا مغفل لا أتعلم، سـ ـاذج والسـ ـذاجة لعنـ ـة لـ ـم أتخلص منها، أصبحت أكره نفسي، أكره هذا التفاؤل الذي لا أعرف من أين جاءني.. طبيعة ولدت معي، أبي.. أمي ؟ من غرسها في حتى ألعنه إلى يوم القيامة ؟ هل رأيتهم يـ ـا " يوسف " ؟ هل رأيت هؤلاء المساكين يزحفون على الأرض و الضرب ينهال عليهم، كأن الضرب هو الذي كان ينقصهم.

كأنهم يريدون أن يقضوا على قدرة على الحركة أو التفكير أو النطق ما زالت عندهم، وأنـ ـا السـ ـبب أردت أن أنظمهم، أردت أن يكون لهم صـ ـوت، شـ ـيء مـ ـن القـ ـوة يدافعون بها عن أنفسهم لكنه نظام قذر لا يرحم، لا يـ ـرحم أحد حتى العاجز عن السير أو النطق أو التصرف في أبسط

أمور الحياة، نظام لا يعرف إلا لغة المال والسلطة، يـ دافع عنها بالكرباج، أو الدبابة أو السجن، بالأكاذيب ينشرها في الصحف، والتليفزيون بالمآذن والجوامع، والكنائس يخففون بها الظلم، صورهم، صورهم وهم يزحفون على بط ـونهم لا تغيب عن ذهني.

تدفقت منه الكلمات كأنه عاجز عن إيقافهـ ا، قـ ـام واحتضنه بين ذراعيه وأخذ يربت على ظهره قال:

يا " إسماعيل " لا أنت، ولا غيـ ـرك يسـ ـتطيع أن يغسل ويضمن جنة، يجب ألا تلوم نفسك، اللوم يقـ ـع علـ ـى الذين يصمتون وليس عليك، بالعكس طوال عمري كنت أنت شخصا أحترمه، وأحبه لأنه لا يستسلم أنـ ـت عشـ ـت فـ ـي السجن ويجب أن تتوقع مثل هذه الشراسة، عنـ ـدما دخلـ ـت عليك كنت تأكل في " الآيس كريم " قلت لنفسي هذا هو " إسماعيل أبو سمرة " فيه قوة الحياة كلها، ما فعله سينقلب ضدهم فالناس ليسوا غافلين تماما حتى يمر ما وقع دون رد فعل، سمعت البعض يتحدث عن المظاهرة وما قوبلت به من عنف " .

صحيح أين ؟

عندي في المعمل.. خذ أكمل " الآيس كريم " يجب أن أنصرف الآن سأتصل بك غدا. آه. نسيت أن أسألك عن الجرح " .

قال ضاحكا:

ضربت عسكري " روسية " لكنها جاءت في الخوذة.

بسيطة أربع غرز فقط.

بعد أن انصرف من عند " إسماعيل " عاد إلى المعمل، صعد إلى مكتبه أعطي بعض التوجيهات " لتامر " و " صفية " وأخذ منهما الجداول ثم هبط ليستقل سيارته فوق كوبري الجامعة، عند آخر الكوبري أضاء النور الأحمر فتوقف، أحس فجأة انه يختنق، أنه لم يعد قادرا على التحمل وعندما أضاء النور الأخضر كان قد اتخذ قراره.

طوال الأسابيع الماضية كان صامتا يكاد لا ينطق كأنه مستغرق في شيء عجز عن أن ينتزع نفسه منه أو كأنه يخشى أن تفتح موضوع الرد الذي يجب أن يبعث به إلى الشركة، فالأيام تمر، والشركة أخبرتها بأن المهمة التي

أرسلت من أجلها انتهت، أنه مطلوب منها أن تعود قبل نهاية الشهر.

شيء واحد فقط لم يتوقف عن الكلام عنه، كأنه سيطر عليه، صار يحكي لها عن موكب المعاقين المرة بعد المرة، وفي كل مرة يضيف تفاصيل جديدة كأنه يتذكرها أو ينسج في خياله المحمود تفاصيل أخرى عن منظرهم والعسكر ينهالون عليهم ضربا، عن الخراب الذي لحق بسوق الناصرية، عن الفتاة " فتنة " وما أصاب يديها، عن " إسماعيل " كيف انقلب به المقعد، وشدوا رأسه فزحف على بطنه دافعا جسمه بيديه والدماء تسيل منه، وعن الكلمات الغاضبة التي ظلت تتدفق منه وهو راقد في السرير كأنه يجتر الهزيمة التي لحقت بالمظاهرة، والعنف الوحشي الذي مورس ضد رجال ونساء وأطفال بؤساء لا حول لهم ولا قوة.

تشعر أثناء الحكي كأنه انفصل عنها، أن هناك هوة بينه وبينها حفرتها الأحداث التي مر بها في هذا اليوم، أنه تغير، وأصبح يحيا في حالة انعدام وزن، انه يراجع ما فعله في الماضي بعين باردة، قاسية تحتاط من التحيز أو

المساومة لأنه يريد أن يواجه نفسه، وأن يصل إلى قرار فيما يجب أن يفعله في المستقبل.

لذلك لم ترد أن تسأله، قررت أن الأفضل هو أن تتركه لنفسه، لكي يحل المعضلة التي شغلته دون تدخل منها، فعاشت أياما من القلق في انتظار القرار الذي سيصل إليه.

عندما جاء خطاب الشركة بإنهاء مهمتها اقترح عليها أن تنتقل من شقتها في المقطم لتقيم معه، تعودان أن يقضيا أغلب الوقت في المقطم فسألته لماذا جاءته هذه الفكرة فقال إنه يريد أن ترتبط كل الأشياء التي توجد حوله بالأيام التي سيقضيانها سويا قبل أن ترحل، أن تكون لمستها، أو نظرت إليها أو سارت فوقها، أو فعتها بين يديها، أو أضفت إليها من جمالها، وروحها، من رائحة جسدها من رقتها، أو قوتها، أو من الحيوية التي تتدفق منها، فزاد قلقها، أحست كأنه يستعد لفراقها، ويريد أن يختزن أكبر كمية ممكنة من الذكريات قبل رحيلها.

ظل الكتاب مفتوحا بين يديها دون أن تقرأ فيه، أو تقلب في صفحاته، الأفكار تمر في ذهنها دون توقف، قاربت

الساعة على منتصف الليل، والضجيج في الشارع أخذ يخفت، وفجأة رفع نظرات إليها، تأملها راقدة على الأريكة فأحس أنها لا تقرأ قال:

سأسافر معك يا " سلما " .

سمعت ما قاله ولكن بدا لها أنها أخطأت السمع وأنه قال شيئا لا علاقة له بالسفر لكن لشدة رغبتها في سماع هذه الكلمات سمعتها، نظرت إليه كأنها لم تفهم، أو كأنها فهمت ولم تصدق.

قال مرة أخرى:

سأسافر إلى " نيويورك " معك يا " سلما " .

قامت من رقدتها واندفعت إلى حيث كان يجلس خلف المكتب، أحاطته بذراعيها وقالت:

أحبك ... أحبك ..

أمسكت بيديه وسحبته منها ليجلس إلى جوارها على الأريكة، قبلته ثم ابتعدت عنه كأنها تريد أن تتأمله قالت:

لا تتصور مدى سعادتي، في الأيام الأخيرة عشت في كابوس الفراق، كانت الدنيا تظلم في عيني، وأتساءل

كيف يمكن أن أرحل وحدي فأشعر كأن قلبي سينتزع منـ ـي، أصبحت جزءا مني جزءا من جسمي أحملك تحت جلدي، لا تنظر إلى في دهشة، أنت حتى الآن لم تفهمني، لـ ـم تحـ ـس بي، لم تدرك كم أحبك، أريد أن أرقص من الفرحة، لا بد أن نحتفل الليلة يا حبيبي هل كنت تتصور انه يمكن أن نفتـ ـرق ؟

قال: أحيانا كنت أفكر في الفراق فأستسلم للاحتمال، وأحاول أن أتجلد أمامك، وأحيانا كنت أشعر أن الحياة ستفقد كل ما هو جميل فيها إن رحلت، وأصبحت أنا هنا وحـ ـدي، كلما اقترب يوم السفر كنت أتوجس منه، وأشـ ـعر بـ ـألم لا يحتمل، ولما جاء عرض الشركة طرت من الفرحة، ومـ ـع ذلك تتملكني الهواجس عندما أفكر في السفر، فلا أعرف ما يمكن أن يحدث لرجل لم يعد شابا عندما يبدأ حياة جديدة لم يتعود عليها، وفي بلد لا ينتمي إليه ليصبح غريبـ ـا، بعيـ ـدا عن أشياء كثيرة ارتبط بها.

قالت: لا تقلـ ـق يـ ـا حبيبـ ـي .. سـ ـنكون سـ ـويا، وسأساندك بكل ما أملك، أنا وأنت مع بعض قوة، صدقني.

رفعت ذارعيها في الهواء وقالت "أشعر أنني كالطائر المجنح أستطيع أن أطير معك فوق كل الصعوبات لكن مثل هذه السعادة النادرة تخيفني، هل هي حقيقية ؟ هل يمكن أن تبقى، أم أننا نحيا حلما سيتبدد، احتضنني يا "يوسف" لا بد أن نحتفل أن نشرب زجاجة شامبانيا ونمارس الحب حتى الصباح دون أن نتوقف.

قال ضاحكا:

موافق، لكن عندي تقرير لا بد أن أسلمه غدا وسيحتاج مني أن أسهر عليه، ثم لا تنس أنه لم يبق إلا أسبوع واحد على موعد السفر، ويجب أن أرسل إليهم فاكس لأعتذر عن تأخيري في الرد عليهم، أن أوضح لهم أن موافقتي على السفر لا تعني أنني قبلت العرض.

قالت في شيء من التوتر:

هذا بديهي، لا تفسد فرحتي بتفكيرك المتعقل، أنا واثقة أن الأمور كلها ستسير على ما يرام، لو كان السفر غدا! هذا الانتظار سيقتلني.

قال: يمكنك أن تسافري، ثم ألحق بك في "نيويورك" لا بد أن ابنتك وحشتك.

مستحيل منذ هذه اللحظة أنت أسيري، ولن أسافر إلا ويدي مربوطة في يدك.

قال:

ليتني كنت أسيرك منذ مدة، لكن الآن لا بد أن أفك أسري قليلا وأعود إلى ما كنت أفعله حتى انتهى منه ونفتح زجاجة " الشامبانيا " غدا سأذهب إلى العمل مبكرا، ولكن أعود سوى قرب السابعة مساء، سأزور " إسماعيل أبو سمرة " مرة أخرى حتى أطمئن عليه ولا بد أن أتوجه إلى السفارة لأستخراج الفيزة، وبعد ذلك يمكننا أن نحصل على تذاكرنا، أقترح أن نسافر على طائرة خطوط إيرفرانس إلى " نيويورك " عن طريق باريس حتى نستريح قليلا أثناء الرحلة.

مر الأسبوع في غمضة عين كان يوم السفر ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٠ كتبه في المفكرة الزرقاء دون أن يسجل تحت هذا التاريخ شيئا، مضت عدة شهور قبل أن يكتب عن هذا اليوم، لكن ظلت التفاصيل محفورة في ذهنه لم تضعف منها الأيام.

كان ميعاد إقلاع الطائرة صباحا في السادسة والربع.

ليلتها نامت هي، وظل هو راقدا إلى جوارها يحملق في الظلام.

في الساعة الثالثة رن جرس المنبه، فتحت عينيها وأضاءت النور، ظلت راقدة كأنها تستجمع أحاسيسها، تأملها فخطر في باله أنها امرأة لا تفقد شيئا من جمالها أثناء النوم، أنها عندما تستيقظ تكون كالزهرة تتفتح للحياة مع خيوط الشمس الأولى، اندهش.

تذكر فيما بعد أن في كل مرة رآها وهي تستيقظ من النوم كان يحس بالدهشة، أن مع كل موجة من الدهشة كان يتزايد حبه لها.

أدرك أنه لن يحب امرأة أخرى كما أحبها، أحس بالألم يعتصر قلبه فتساءل لماذا هذا الألم هل لأن لحظات السعادة سريعا ما تنقضي ؟ أم لأن الحب الجارف يختلط بالألم ؟ أم لأن هناك قرارا اتخذه ولا يريد أن يفصح عنه حتى لنفسه ؟

ظل يتأملها وظلت هي راقدة كأنها أسلمت نفسها لهذا الفيض من الدفء، والرقة، والحزن يتدفق في نظراته. أحس أنه يريد أن يقبلها على عينيها، وشفتيها، على يديها، وعلى قدميها على كل جزء من جسمها، لم تكن الشهوة هي التي حركت هذه الرغبة، كانت شيئا آخر يحدث بعد أن تكون الشهوة مشبعة، أو انقضت ولم يبق إلا ظلالها، شيء آخر مرتبط بالجسد ومنفصل عنه، كان يشعر بالامتنان لكل ما أعطته له، وكان يريد أن يعبر عن امتنانه وحزنه وحبه كل شيء في هذه الإنسانة الراقدة إلى جواره.

قرأ السؤال في عينيها قبل أن تنطق به.

لماذا تنظر إليّ كذا ؟ إنك تقهرني بهذا الفيض.

لأنني لم أستطع أن اعبر لك عن امتناني، ربما عيناي تعبران عما اختزنته نفسي.

امتنان فقط ؟ لماذا إذن يطل فيها كل هذا الحزن ونحن مقبلان على حياة جديدة سويا.

قال: لا أعرف ربما لأن السعادة تقترن بالحزن دائما.

بعد أن نطق بالجملة أدرك أنه كذب عليها فقال بسرعة:

لا بد أن نتحرك، وإلا تأخرنا عن موعد إقلاع الطائرة.

ذهب ليغسل وجهه ويرتدي ملابسه التي أعدها للسفر، وأثناءها تناولت حمامًا ساخنا، حمل الحقائب ووضعها في الصالة، أربع حقائب، ثلاث حقائب لها، وحقيبة واحده له تكفي احتياجاته لمدة أسبوع أو عشرة أيام، لمحها تنظر إليها عندما خرج بها من غرفة النوم.

دارت حول غرف الشقة كأنها تلقي عليها نظرة وداع، وظل هو ينتظر في الصالة، تفقد الكتب الراقدة فوق رفوفها وتساءل لماذا الكتب، ونظر إلى الصينية يلمع نحاسها في ضوء الفانونس فتذكر صديقه الذي مات ولم ير خلف نعشه، لمح الكومبيوتر، راقدا على المكتب كتلة عاجية اللون، صامتة، الصور تمر في ذهنه جالس في مدرج الكلية، أو سائر في مظاهرة، أو راقد فوق البرش يستمع إلى أصوات العنبر تجيئه عبر باب الزنزانة، " محمود " يقف أمامه في الصباح وفي يده صينية القهوة.

ترى هل مات في قريته ليدفن تحت ترابها أم استقر في فدان من الأرض يزرعه بقصب السكر، و " إسماعيل أبو سمرة " و " نجوى " رأى وجهها فأحس بقلبه يضطرب، عينا أمه وهو ذاهب إلى المدرسة، ورائحة الحطب في الأفران يجيئه وهو عائد.

يتساءل ما هو الوطن بالنسبة إليه، ولماذا حاربه منذ أن ولد على ترابه. " فاروق الدجوي " كالأرنب المذعور و " نبيل القرنفلي " ترتشف من كأس الحياة المليء بالمرارة.

سمعها تقول:

فيما سرحت السائق دق الجرس.

الشوارع خالية تضيئها المصابيح بلونها الأصفر تحني أعناقها كأنها تتأمل السيارة، قطة تجري بسرعة لتفلت من تحت عجلاتها، رجل ينام فوق جدار الكورنيش موليا وجهه إلى السماء سيارة نقل تحمل أقفاص الطماطم خطر في باله انها ربما تتجه إلى سوق " الناصرية " و " إسماعيل أبو سمرة " يشخر في نومه، ترى هل ولدت " نجوى " طفلها ؟

" سلما " تمسك بيده بين يديها وتنظر إليه بعينها الزرقاوين، تقول " عندي منزل في " تشابيل هيل " حوله حديقة ورود ألوانها نادرة، أجمل ورود في ولاية " ذ ورث كارولينا " سنقطفها في الصباح والندي ما زال يرقد ف وق أوراقها ذهبية، وحمراء، وقرمزية، وبرتقالي ـة، وصـ فراء تفترش الأرض بسجاد من الألوان الرائعة، ستكون رياضاتنا اليومية كل صباح، وعندما تستقر في " شيكاغو " سأنتقل إليها مدينة جميلة خصوصا حول بحي رة " ميتشـ يجان " سنبحث عن شقة هناك، إنها غالية لكن عندي صديقة تسعى إلى استبدال السكن معي لأنها ستنتقل إلى " تشابيل هيل " .

تثرثر في سعادة وهو منتبه بنصف ذهنه، السـ يارة تنهب الشوارع كأنها تترك السنين وراءه ـا، فيشـ عر أذ ـه يجتاز معها كل حياته، تتوقف أمام المطار والشرطي يقول: " بسرعة الانتظار هنا ممنوع، والسائق يقول: حاضر حاضر يا سيدي لم نصل إلا منذ لحظة " ، يهبط من السـ يارة ثـ م تهبط هي. السائق يرص الحقائب فوق عربة اليد أحضـ رها بسرعة، يسلم عليهما باليد ويبتسم قائلا: " مع السلامة " ، يدفع العربة أمامه وتسير إلى جواره، يقفان ف ـي الط ـابور

انتظارا للكشف الإلكتروني على الحقائب، رجل لـ ـه شد ـارب كبير وعيناه صغيرتان يرفع حقائبها فوق السير الواحدة تلو الأخرى، فيتأملها وهي تختفي، يهم بوضع حقيبته في السير، فيمد يده إليها ويقول له " لا أترك هذه " تنظر إليه وتتسع عيناها يتصارع فيهما التساؤل، والدهشة، وشيء كـ ـالفزع، ثم فجأة تدرك تضغط على شفتها السفلي بأسنانها كأنها تكتم صرخة، تمسك بذراعه كأنها لا تريد أن يفلت منها، يقف ـان وجها لوجه، وتلتقي عيونهما لحظة قصيرة تدوم إلى الأبد، يقول " سلما " أحبك، لكن لا أستطيع أن أرحل.

تتعلق عيناها الزرقاوان بعينيه السوداوين في عناق صامت ثم تستدير، ويراها تبتعد مثل الرمح الأسـ ـمر فـ ـوق البلاط الأبيض قبل أن تختفي خلف الحاجز، يمسك بحقيبتـ ـه ويخطو إلى الخارج يسمع أحدهم يقول: لا... من هنا يا بك " .

فيشعر أن الدنيا أصبحت وراءه.

خرج من باب المطار، توقف على الرصيف حائرا لا يعرف إلى أين يذهب، سمع صوت رجل يقول بالإنجليزية.

" مستر يو وانت تاكسي ؟ فالتفـ ـت إليـ ـه، مربـ ـع الجسم، تغليط الشفتين، عند خده جرح قديم التأم فترك خطا ابيضا يرتفع على جلد وجهه، رمقه بنظرة سـ ـريعة كأنـ ـه يوزن " الزبون " في ذهنه.

ظل واقفا على الرصيف ينظر إليه دون أن يرد كأنه لم يفهم كلامه فخاطبه الرجل مرة أخرى قائلا:

مستر يو وانت تاكسي ؟

بدا عليه خيبة الأمل سأله:

مصري ؟

قال: نعم وضحك ثم صمت ، لم يعرف لماذا ضحك، ربما بدا له ما يحدث مضحكا، ولم يعرف لماذا صمت، هـ ـل لأنه يتألم ؟ أنه غريب في هذا العالم من الناس يحتضـ ـنون العائدين، ويثرثرون ويـ ـدفعون أمـ ـامهم جبـ ـال الأمتعـ ـة، ويضحكون، فلماذا لا يضحك مثلهم ؟ لماذا لا يفتح فمه عن آخره ويخرج الضحك كما يفعلون، أنه غبي، رجل جاد يعتبر أن ما يفعله مهم، مع أنه ليس إلا عبث، لا طائل منه.

تأمل الرجل الواقف إلى جواره وانفجر بالضحك، علت ضحكاته، فحملق فيه وفي عينيه خليط من الدهشة والفزع كأنه بدأ يشك في عقله، صمت ثم سأله:

وأنت.. مصري .. أليس كذلك ؟

بدت عليه الحيرة من السؤال كأنه لم يفهم مغزاه ثم قال:

طبعا يا بك مصري ومن المنوفية بلد الريس.

قال: إذن لماذا بدت عليك خيبة الأمل عندما عرفت أني مصري.

يا بك المسألة أرزاق لا تدقق معي هات الحقيبة.

معك حق الغبي هو الذي لا يجري وراء الأجنبي، وأنا غبي المصري في مصر لا قيمة له.

العفو يا بك.. هيا بنا حتى أوصلك وأعود. ربما ألحق بالأفواج القادمة.

إن شاء الله المرة القادمة تصطاد أجنبي.

أنا وحظي يا بك ربنا يسمع منك.

جلس في المقعد الخلفي، كانت الشوارع لا تزال خالية فقطع السائق المسافة إلى الجيزة في نصف ساعة، لم

ينته إلا عندما توقفت السيارة أمام البـ ـاب، دفـ ـع الأجـ ـرة وأعطى الحقيبة لحارس الأمن ليصعد بها، دخل إلى الشقة، وأغلق الباب وراءه بالمفتاح، وضع الحقيبة في غرفة النوم ثم توجه إلى المطبخ، وفتح المبرد حملـ ـق فـ ـي الأشـ ـياء المرصوصة أمامه، أخرج زجاجة من المياه المعدنية وثلاث صوانٍ من الثلج أفرغ منها المكعبات في وعاء فضي خاص بها، حمل زجاجة المياه، و وعاء الثلج إلى غرفة المعيشة، و وضعهما على منضدة إلى جوار الأريكـ ـة، فـ ـتح البـ ـاب وأخرج منه زجاجة من الويسكي وكوبا كبيرا مضلعا، صب كمية من الويسكي في الكوب وأضاف إليه ثلاثة مكعبات من الثلج ثم أضاف إليها رابعا، أمسك زجاجة المياه، ثم أعادها إلى المنضدة دون أن يفتحها.

مر يومان وفي صباح اليوم الثالث فتح " مبروك " الباب بالمفتاح الذي تركه معه، وضع بعض الأشـ ـياء فـ ـي المطبخ ثم اجتاز الصالة ودخل فـ ـي غرفـ ـة النـ ـوم ليفـ ـتح النوافذ.. وجد الحقيبة راقدة على الأرض، ولما رفعها أدرك أنها لم تفرغ من محتوياتها، كان " يوسف " قد أبلغه أنـ ـه

عائد بعد عشرة أيام ففوجئ بالحقيبة، دخل إلى غرفة النوم الثانية ثم عاد إلى الصالة وتوجه إلى غرفة المعيشة.

وجده نائما على الأريكة بملابسه كاملة ما عدا السترة إلى جواره منضدة عليها كوب فيها بقايا ويسكي، و وعاء الثلج، وزجاجة مياه نقص منها نصفها، وزجاجة ويسكي فارغة، وأخرى فيها ثلثها، كانت رائحة الويسكي تفوح من أنفاسه الثقيلة، فمه نصف مفتوح ووجه محتقن، كان يصدر عنه شخير متقطع وأحيانا أصوات كأنه ينطق بكلمات مدغمة.

أصيب بالفزع، حاول أن يوقظه عدة مرات دون جدوى.

فزاد انزعاجه فكر في أن يتصل بالإسعاف، أو بالبوليس لكنه عدل عن هذه الفكرة خوفا من الفضيحة التي يمكن أن تحدث.

هبط من الشقة مسرعا واستقل سيارة أجرة إلى بيت " إسماعيل أبو سمرة " وعاد به جالسا على مقعده المتحرك، وعلي رأسه ضمادة وقطعة عريضة من المشمع اللصاق.

قاده إلى غرفة المعيشة، أمسك بيد "يوسف" المتدلية قرب الأرض وجس نبضه، كان واهنا، وسريعا فأخرج المحمول من جيبه، واتصل بطبيبه الخاص، فجاء الرجل على الفور، بعد أن فحصه قال إن حالته ليست خطيرة، إنه شرب أكثر من اللازم لكن الكحول سيحترق في جسمه فينخفض منسوبه في الدم ليعود بالتدريج إلى حالته الطبيعية، أعطاه بعض الحقن، وأوصاهما بضرورة مراقبة حالته وإبلاغه بأي شيء يبدو مقلقا، وبإعطائه سوائل كثيرة عندما يفيق، ثم إطعامه بالأكل المسلوق، وعصير الفواكه لعدة أيام.

خلعا حذاء "يوسف" وجوربه ثم هبط "مبروك" ليبتاع برتقالا وليمونا ودجاجة، وبعض الخضروات ليصنع له حساء ظل "إسماعيل" جالسا معه في حجرة المعيشة بحث عن رواية يقرأ فيها إلى أن يستيقظ "يوسف" من شبه الغيبوبة التي سقط فيها، فوقعت عيناه على عنوان "الحب في زمن الكوليرا" خطر في باله أنها رواية مناسبة لحالة صديقه.

كان يقلب إحدى صفحاتها عندما تنبه إلى أن " يوسف " فتح عينيه، وأخذ يلتفت حوله كأنه يحاول أن يتذكر ما الذي جرى، وكيف أصبح راقدا في غرفة المعيشة بشقته، وإلي جواره " إسماعيل أبو سمرة " جالسا على مقعده المتحرك وفي يده كتاب نحاه جانبا قبل أن يميل عليه ويسأله.

هه كيف حالك يا " يوسف " ما الذي تشعر به الآن ؟

قال: صداع فظيع كأن رأسي سيفلق إلى نصفين.

بسيطة.. زجاجة ونصف من الويسكي كفيلة بأن تفلق رأس ثور، أحضرنا لك الطبيب، وقال إن حالتك مطمئنة، ولا تحتاج إلا إلى الراحة، وشرب سوائل كثيرة وتناول أكل مسلوق.

" مبروك " موجود وقد أعد لك بعض العصائر وسيصنع لك حساء دجاج وخضارا مسلوقا.

قال: أريد أن أقوم.

رفع جذعه ليجلس ثم عاد إلى وضعه الراقد بسرعة.

قال " الغرفة تدور من حولي، وأريد أن أتقيأ.

نادى " إسماعيل " بصوت عال:

" مبروك.. مبروك " أحضر جردلا بسـ ـرعة، ثـ ـم التفت إليه وقال:

تقيأ يا صديقي تخلص من كل الهم الذي فيك، وبعد ذلك ستستريح.

ظل يعوي إلى أن أفرغ معدته في الجردل امتلأ الجو برائحة حامضة من الويسكي ففتح " مبروك " النافذة، رقد " يوسف " على الأريكة يستريح وأغلق عينيه كأنه يريد أن ينام لكن بعد أن مر بعض الوقت قال:

أريد أن آخذ دشا ساخنا، وأن أغير ملابسي، يمكن أن تنصرف يا " إسماعيل " طالما أن " مبروك " موجود.

سأنصرف عندما أطمئن عليك.. انتظـ ـر لا تقوم وحدك. " مبروك " سيسندك حتى الحمام، والأفضـ ـل أن يبقى إلى جوارك إلى أن ترتدي ملابسك، لا تعاند يا أخي ليس هذا وقت العناد، استرجع قواك الأول ثـ ـم عانـ ـد كمـ ـا تريد.

كادت الشمس أن تغرب عندما جلسا على المائدة ليتناولا الطعام الذي أعده لهما " مبروك " أخذ " إسماعيل " يثرثر في شئون المزرعة، ثم انتقل إلى اتحاد المعاقين قائلا:

بعد المظاهرة لا بد من تقييم الموقف، الحقيقة هي أننا أخطأنا التقدير، لم يخطر ببالنا أن الحكومة يمكن أن تستخدم العنف مع المعاقين، لكن هذه الشراسة من النظام لها منطقها، إذا تحركت الفئات التي تحيا في القاع فهذه علامة خطر، لكن الدرس كان قاسيا.. قاسيا جدا، وأخشى أن ييأس الذين وقفوا معنا حتى الآن. هل عندك رأى في هذا الشأن ؟

يجب أن أفكر في الموضوع.

سنعقد اجتماعا لمجلس الإدارة بعد أسبوعين ولا أعرف من منهم سيأتي إليه، هل ستحضره أنت ؟

بعد أسبوعين ؟ أنا محتاج للراحة، ربما أذهب إلى الساحل الشمالي لبعض الوقت.

متى ؟

لم أحدد بعد ذهني ليس صافيا الآن وأفضل أن أؤجل التفكير في أي شيء.

يمكنك أن تسافر ثم تعود لحضور المجلس الـ وزارة أرسلت إلينا خطابا تقول فيه إن تنظ يم المظ اهرات ضد د القانون.وأنها سائرة في إجراءات حل الاتحاد، لكن لن يكون حل الاتحاد سهلا، احتطت لهذا الاحتمال، أنا غبي أحيانا لكن ليس دائما... عندي صديق في الأمن أصدر لنـ ـا تصـ ـريحا بعمل موكب صامت يتجه إلى مجلس الشعب، عنده مزرعة في النوبارية، وفي بعض الليالي نسهر سويا هناك.. رج ل طيب، كان أبوه صديقا لمصطفى النحاس. عل ى أي حـ ـال سنرى والآن يجب أن أتركك، هل تريد مني شيئا ؟

لا شكرا يا " إسماعيل " أنت دائما سـ ـداد، أشـ ـعر بالخجل منك في بعض الأحيان.

لا يا رجل أنت أنقذت حياتي وهذا دين لا يمكـ ـن أن أنساه.

ثم نحن أصدقاء، أليس كذلك ؟ لكن بقي شيء واحد أريد أن أسألك عنه قبل أن أنصرف.

ما هو ؟

قال: سلما باتشينو.

سافرت منذ يومين.

وأنت ؟

أعددت نفسي للسفر ووصلت معها حتى المطار. ثم عدت.

نظر في وجهه طويلا ثم قال:

لا تنس اجتماع المجلس ولا تنس السوائل، والطعام المسلوق، يجب أن تسترد قوتك بسرعة، نحن فـ ـي حاجـ ـة إليك سأراك قريبا، لا لا داعي للقيام " مبروك " سيوصلني حتى السيارة إنها واقفة أمام الباب.

(٢٧)

ظل معتكفا في البيت لمدة ثلاثة أيام يقرأ ويشـ ـاهد أفلاما للفيديو، ويأكل الطعام المسلوق الذي كان يعده لـ ـه " مبروك: في اليوم الرابع أحس أنه لا يطيـ ـق البقـ ـاء فـ ـي الشقة، فهبط في الصباح وتوجه إلى المعمل في سيارة أجرة ، وهو سائر في الطرقة التقى وجها لوجـ ـه بـ . . " نبيـ ـل القرنفلي " فوجئ به يلقي ناحيته بابتسامة عريضة فبدا مثل القط الرومي الشرس، لـ ـم يـ ـرد أن يسـ ـلم عليـ ـه ولا أن يتجاهله، فهز رأسه، وأسرع الخطوة كـ ـأن أمـ ـرا عـ ـاجلا ينتظره.

وضع حقيبته على المكتب، وخلع سترته ثم جلـ ـس ليفحص البريد.

كان يفتح أحد المظاريف عندما دق جرس التليفون، تردد صوت " فاروق الدجوي " الرفيع في أذنه:

" يوسف.. صباح الخير، كنت أظن أنك سافرت، ما الذي حدث ؟ طاردتني لأنهي الإجراءات الإدارية بسـ ـرعة، وإذا بك هنا في مكتبك، أريد منك أن تأتي إلى فورا، عندي أخبار مهمة " .

بدا له صوته مضطربا فخرج من حجرته بسـ ـرعة دون أن يرتدي السترة مرق أمام غرفة السكرتارية ودفـ ـع الباب المبطن بيده دون أن يستأذن، كان جالسا خلف مكتبه وجهه متعب، وحول عينيه دائرتان من السواد، لكن رغـ ـم الاضطراب في نظرة عينيه لم يبد عليه الفزع الذي رآه في أوقات سابقة.

قال " اجلس فجلس أمامه، لم يعـ ـرض عليـ ـه أن يشرب شيئا، أمسك بفتاحة ورق فضية كانت علـ ـى مكتبـ ـه وأخذ يديرها بين أصابعه الناعمة البيضاء كأنه يفكر كيـ ـف يبدأ، قال:

سأسالك فيما بعد عن موضوع السفر، ربما سمعت النبأ الذي سأكلمك عنه فقررت ألا تسافر.

لم أسمع شيئا، ما هو النبأ الذي تتحدث عنه ؟

عرفت اليوم قبل أن أهبط من الشقة أن عقـ ـدا تـ ـم توقيعه بين وزارة البحث العلمي و " تكنو سبايس كيميكالز كوربوراشون " يتعلق بالبحث الكيميائي إلكترون ١٠٧ :.

ظل صامتا كأن الصدمة أفقدته القدرة على النطق، لمح عيني " فاروق الدجوي " تنظران إليه بمزيج من العطف والفضول.

خرجت منه كلمة واحدة نطقها بصعوبة قال: كيف ؟

قال " فاروق الدجوي " : يبدو أنهم توصلوا إلى الاكتشاف بوسائلهم.

توصلوا إليه ؟ هل تقصد أنهم كانوا يجرون أبحاثا في الاتجاه الذي سرنا فيه، ونجحوا في التوصل إلى النتائج نفسها.

لا أقصد إنهم نجحوا في الحصول على صورة من أوراق البحث، هذا هو ما فهمته من الصديق الذي اتصل بي اليوم في الصباح.

ألقى إليه بنظرة فيها شك ثم قال:

مستحيل، المستندات الوحيدة موجودة، في خزانة البنك حتى الديسك الذي كان عندي في البيت تخلصت منه.

يا " يوسف " أريد أن تثق في، وفي كلامي، يكفيني ما حدث فلا تضف إلى الضيق الذي أشعر به.

ربما الخبر غير صحيح.. قالها كمن يتعلق بقشة.

مده يده بالجريدة. لا؛ صحيح هذا الخبر نشر اليـ ـوم في الصفحة الثامنة أسفل صور مقابلات الرئيس.

أمسك بالجريدة وأخذ يقرأ تحت عنـ ـوان " تعـ ـاون أمريكي مصري في مجال التصنيع الكيماوي " وقعت وزارة البحث العلمي والتكنولوجية اتفاقية مع " تكنـ ـو سـ ـبايس كيميكالز كوربوراشـ ـون " للتصـ ـنيع الكيميـ ـائي، سـ ـتنفذ الاتفاقية على المرحل ثلاث تمتد في مجموعها إلـ ـى عشـ ـر سنوات، المرحلة الأولى مبنية على الاكتشاف الهـ ـام الـ ـذي توصل إليه مركز البحـ ـوث الكيميائيـ ـة والمعـ ـروف باسـ ـم إلكترون ١٠٧ ومدتها أربع سنوات، أما المرحلـ ـة الثانيـ ـة والثالثة فستتوقفان إلى حد كبير على النجـ ـاح فـ ـي تنفيـ ـذ المرحلة الأولى.

وقد وقع على هذه الاتفاقية عن الجانب المصـ ـري الدكتور " أنيس الضبع " نائب رئيس الـ ـوزراء لشـ ـئون البحث العلمي والتكنولوجيا، وعن الجانب الأمريكي المستر " جون ماكينون " نائب رئيس " تكنو سـ ـبايس كيميكـ ـالز كوربوراشو " لشئون البحث العلمي.

طال الصمت فضغط " فـ ـاروق الـ ـدجوي " علـ ـى الجرس، وسأله: تشرب قهوة ؟

أومأ برأسه وقال: لكن كيف توصـ ـلوا إلـ ـى أوراق البحث ؟

الإجابة الوحيدة عندي ليست إجابة وإنمـ ـا مجـ ـرد تخمين أنا أعتقد عن طريق السلطات العليا التي أرسلت إليّ وسيطا منذ شهور وطلبت مني أن أسلمها نسخة، لاحظ أنني أنا أيضا استبعدت من كل ما يتعلق بهذه الاتفاقيـ ـة بسـ ـبب الموقف الذي اتخذته، هل نظرت إلى الصورة المنشورة مع الخبر ؟

قال: لا .. أمسك بالجريدة مرة أخرى وحملق فـ ـي الصورة، لم يلاحظ شيئا سوى وجه المسـ ـتر " بوجمـ ـان " المتجهم وإلي جواره رجل نحيل اسمه تذكر أنه الباكسـ ـتاني ممثل الوكالة الدولية للتنمية في الشرق الأوسـ ـط فقـ ـام " فاروق الدجوي " وأشار بإصبعه إلى رجل قصير يقف عند الصورة منسحبا قليلا إلى الخلـ ـف إلـ ـى جـ ـوار مسـ ـتر " بوجمان " سأله:

" ألم تر هذا الرجل أبدا ؟

هتف:

إنه :نبيل القرنفلي "

قال: نعم " نبيل القرنفلي " هذا هو الوسيط الـ ذي كنت أحدثك عنه، الآن لم يعد هناك مبرر لكي أخفـ ـي هـ ـذه الحقيقة عنك.

ارتشف من القهوة أغلق عينيه لحظة كأنه يعـ ـاني من وطأة ما سمعه ثم قال:

يا " فاروق " بقي السؤال كيف وصلوا إليها ؟

" السلطات العليا لا يصعب عليها شيء، يكفـ ـي أن تكون قد تتبعت خطواتك حتى البنك، ثم قليل مـ ـن الضـ ـغط وبعض النصائح الودية للمدير كانت كفيلة بفـ ـتح الخزانـ ـة وتصوير الأوراق أو نقل الديسك ثم إعادة كل شيء كما كان ".

لكن من هي هذه السلطات العليا يا " فـ ـاروق " ؟ من حقي أن أعرف.

يا صديقي يبدو أنك غافل عن العصر الذي أصـ ـبحنا فيه

هل نعرف بالدقة من يقف و راء أهم الأحداث فـ ـي أنحاء الكرة الأرضية، لماذا تصر وكالـ ـة الاسـ ـتخبارات أن تظل وثائقها سرية لمدة خمسين عاما، ألم تسمع في أيامنـ ـا هذه أن " السي أي إيه " رفضت أن تفـ ـرج عـ ـن وثـ ـائق خاصة بالانقلاب العسكري الذي قاده " بينوشيه " ضـ ـد " الليندي " في شيلي رغم أن الانقلاب مر عليه أكثـ ـر مـ ـن خمسين سنة، أقولك لك الحقيقة شعرت بنوع مـ ـن الراحـ ـة عندما وصلني الخبر، استسلمت لما وقع ، أحسست ألا فائدة من كل الجهود التي بذلناها من هذا الصراع الذي لا ينتهي ".

قال فجأة: يا " فاروق " أشعر بالتعب.. لو أذنـ ـت لي أريد أن أعود إلى مكتبي.

نظر إليه بشيء من القلق قال:

يمكنك أن تستريح هنا على الأريكة، لا داعـ ـي لأن ترهق نفسك بالتفكير فيما حدث، لم أعد أهتم بما يجري في هذا البلد لا فائدة.

ربما أصل إلى ما وصلت إليه، لكن الآن أشعر بتعب شديد ولا بد أن أنصرف.

أحس بالدموع تصعد في عينيه، وقف و خطا نحـ ـو
الباب بسرعة، وانطلق أمام السكرتارية ثم في الطرقة حتى
وصل غرفته، دفع الباب بيده ليدخل، واسقط نفسـ ـه علـ ـى
الأريكة، وضع وجهه بين يديه وأخذ يبكـ ـي بكـ ـاء طـ ـويلا
متصلا كأنه يغسل الألم.

(٢٨)

صرخت سارينات البوليس في الشارع، ففتح عينيه وظل يحملق في السقف دون أن يتحرك، نظر إلى وجه المنبه الصغير الاحمر المنتصب على " الكومودينو " إلى جواره، كان يشير إلى الساعة السابعة وخمس دقائق، انقلب على جانبه باحثا عن غيوم النوم المتقطع الذي سقط فيه منذ ساعات قليلة، لكن عادت " السارينات " تولول بأعلى صوتها فألقى بالغطاء جانبا وقام إلى المرآة يفحص وجهه، لمح التجاعيد الزاحفة حول عينيه.

أصبحت ملامحه نحيلة، ونما نبت من الشعر حول ذقنه، تحسسه بأصابعه، ذهب إلى الحمام أخرج الفرشاة، والصابون، وصنع رغوة كثيفة على الجزء الأسفل من وجهه حتى السوالف ثم أخذ يحلق، بعد أن حلق غسل وجهه وهو يتأمل الشعيرات القصيرة، السوداء، والرمادية اللون التي تعلقت بسطح الحوض، فتح عليها الصنوبر بقوة ليزيلها، وقف تحت الدش وترك المياه الباردة تنهمر على جسمه كأنه يريد أن تخرجه البرودة من الوخم الذي ما زال يحيط بجسمه.

تناول إفطاره المعتاد من الخبـ ـز المقـ ـدد، والجـ ـبن الأريش، وزيت الزيتون، والزعتر، وشرب معه ثلاثة أقداح من الشاي.

ارتدى ملابسه و وضع أوراقه في الحقيبة دون أن يضبط الشفرة، ثم توجه إلى الصالة فخرج " مبروك " من المطبخ ليعرف منه ترتيبات اليوم، افهمه بسرعة انه ربمـ ـا عاد إلى البيت متأخرا فلا داعي لإعداد أكثـ ـر مـ ـن بعـ ـض السلطات، ثم هبط إلى الشارع ليستقل السيارة كانت واقفـ ـة أمام البنك.

قادها ببطء وسط الزحام، علـ ـى جـ ـانبي الشـ ـارع العريض الذي سار فيه طابور من العسكر يقفون بلباسـ ـهم الأسود مولين ظهورهم إليه، عند ناصية الشـ ـارع ضـ ـابط برتبة كبيرة يتأمل المرور، ومن حوله ضابط آخرون، يسمع اللاسلكي في يده تصدر عنه تعليمات غير مفهومة بصـ ـوت خشن.. بين الحين والحين تنطلق دراجة بخارية في جنـ ـون فتصرخ " السارينة " بأعلى صوتها.

إلى جواره سيارة تقودهـ ـا سـ ـيدة بدينـ ـة ترتـ ـدي عوينات إطارها ذهبي، وطرحة سوداء تهبط فـ ـوق رأسـ ـها

والجزء الأعلى من جسمها كالخيمة، عند الزجاج الخلف ـي للسيارة قرآن قرمزي اللون، ثم قط ـط، ودبب ـة، وأراذ ـب، وعرائس فروهم ناعم أبيض وعيونها من الزجاج الأسـ ـود، كانت تتحدث في المحمول بصوت عال فيـ ـه بحـ ـة، طال ـت الإشارة الحمراء، فأخذت تضغط على آلة التنبيه بعصـ ـبية، فتبعها آخرون، ثم تنبهت إلى أنها كانت تتحدث في المحمول فعادت إليه، وفي تلك اللحظة أضاء النور الأخضر فحاول ـت أن تنطلق دون تأخير لكن السيارة قفزت منها، واصـ ـطدمت بالسيارة التي كانت أمامها في الطابور، هبط منهـ ـا أربعـ ـة رجال كأنهم مستعدون للعراك.

علت الصفافير وتوقف المرور لكنـ ـه اسـ ـتطاع أن يفلت بالانحناء ناحية اليمين، ليجتاز الكوبري، ويتجه إلـ ـى شارع قصير العيني، وصل إلى ناصية مجلس الشعب، حياه الصول ذو الوجه الأسمر والشـ ـعر الأبـ ـيض يشـ ـبه لـ ـوزة القطن، في موسم المحصول، فابتسم لـ ـه، قبـ ـل أن يـ ـدخل يسارا إلى حي " جاردن سيتي " .

أوقف سيارته أمام مبنى الإدارة إلى جوار سيارة " فاروق الدجوي " ثم صعد السلالم، واجتاز الطرقة، دخـ ـل

عرفته، و وضع الحقيبة على المكتب فتحها حتـ ى يخـ رج الأوراق التي سيحتاج إليها، ثم فحص البريد بسرعة، سمع نقرا على الباب، ودخل " عم سليمان " حاملا قـ دحا مـ ن القهوة وكوبا من الماء المـ ثلج علـ ى الصـ ينية المعدنيـ ة الصغيرة، قال:

صباح الخير يا دكتور " يوسف " كيف الأحـ وال ؟ غبت عنا أياما، لعله خير.

قال:

خيرا يا " عم سليمان " وأنت كيف أحوالك ؟

الحمد لله نشكر فضله، ونطلب غفرانـ ـه ورحمتـ ـه علينا جميعا.

هل تحتاج إلى شيء ؟ لا تتردد يا " عم سـ ليمان " إذا كان هناك ما تحتاج إليه.

الله يكرمك يا بك مستورة والحمد لله، عـ ن إذنـ ك هناك بريد مطلوب مني توصيله إلى المعمل.

شرب القهوة في بطء، أحس أنه لا يريـ د أن يظـ ل جالسا يقرأ في الأوراق انتقل إلى الأريكة أخذ يحملق أمامه ثم قام ليقف خلف النافذة، عند باب السفارة، وقف طـ ابور

طويل أغلبه من الشباب، عندما ذهب ليستخرج " الفيزة " لم يقف في الطابور.

صعدت معه " سلما " إلى مكتب القنصل وأنهى إجراءاته في نصف ساعة، يتذكرها جالسة في المقعد وقد مدت ساقيها الطويلتين أمامها، في يدها قدح كبير من القهوة تشرب منها وهي تنظر إليه من فوقها بعينيها الزرقاوين.

عاد ليجلس خلف مكتب كأنه يفكر في الخطوة القادمة.

ثم رفع سماعة التليفون، وطلب المعمل، من الجانب الآخر جاءه صوت " تامر " فيه دفء يذكره بصوت " إسماعيل " قال:

يا " تامر " صباح الخير، " صفية " موجودة ؟ سأصل اليكما بعد ربع ساعة، الجداول الجديدة جاهزة ؟ حسنا سأراجعها معكما.

ارتفع به المصعد الزجاجي تأمل مساحات النيل تبرق في الشمس، والجزيرة الخضراء تتمايل فيها أشجار النخيل، والسيسبان والسنط زوارق البوليس النهري تروح

وتجيء كأنها تبحث عن شخص أفلت منها، تذكر يوم أن رأى العاصفة الرملية تقدم مثل نيران البركان تنقلب من فوق بعضها، منظر لن ينساه مثل لحظات كثيرة أخرى في حياته.

فتح الباب ودار بعينيه حول الغرفة كأنه يراها لأول مرة، كل شيء ك ما هو في مكانه: المكتب، والمقاعد، والأريكة، والمبرد، والرفوف المعدنية تحمل الكتب، والكومبيوتر، والفاكس، والشمس تتسلل من النافذة العريضة، سار نحوها ليطل على المدينة كأنه يطمئن على وجودها.

ترك حقيبته على المقعد، خلع السترة، وارتدى المعطف الأبيض، خرج من الغرفة ليتوجه إلى صالة الاختبارات التي خصصت للبحث، الفراشة تلمع أكر الأبواب وحول رأسها منديل احمر، والأجهزة في الصالة الكبيرة تصدر الصوت الذي تعود على سماعه، نقر على الباب ثم دخل، كانا جالسين إلى جوار النافذة في انتظاره قال:

صباح الخير ، مبروك الدبل، متأسف لم أتمكن من حضور فرحكم ، اضطررت إلى السفر في مهمة.

قالت " صفية " والاحمرار يصعد إلى وجهها:

لكن ستزورنا في شقتنا أليس كذلك ؟

قال: طبعا.

قال " تامر " : الجداول جاهزة ؟

سأله: أين دفتر الملاحظات.

قال: مع الجداول في الملف.

جلس على المنضدة وجلسا إلى جواره، راجع الجداول في بطء، ثم قال:

إذن الظاهرة التي لاحظناها فيما يتعلق بدرجات الحرارة العليا، وتأثيرها لم تتغير، يبدو أنكم أجريتما كل شيء بدقة.

رأى البريق في عيونهما، مد يده بالملف إلى " تامر " وقال:

ضعه في درج " الشنن " رقم ٣ واحفظ المفتاح معك إلى أن أطلبه منك، ولا تعطه لأحد.

قالت " صفية " : تشرب قهوة يا دكتور، عندنا قهوة أحضرناها من البيت في الترموس.

قال: نعم.

قامت من جلساتها، صبت القهوة مـ ـن الترمـ ـوس الموضوع على الرف في قدح ملون وحملته إليه، لاحظ أن بطنها ترتفع خلف المعطف.

سأله " تامر " : ما هي الخطوة القادمة ؟

لا توجد خطوة قادمة، هذا البحث انتقـ ـل إلـ ـى أيـ ـد أخرى لاستكماله، قصة طويلة سأحيكها لكما في يـ ـوم مـ ـن الأيام.

رأى الوجوم يكسو ملامحهما، ظـ ـلا صـ ـامتين ثـ ـم سألت " صفية " : معنى هذا أننا سنعود إلى العمل الروتيني العادي في المعمل ؟

تردد .. هل يطفئ الشعلة التي رآهـ ـا فـ ـي هـ ـذه العيون منذ قابلهما لأول مرة ؟ هـ ـل يتركهـ ـا تخبـ ـو ؟ وإذا تركها.. قال:

بالعكس معناه أننا سنبدأ بحثا كيميائيا جديدا ربمـ ـا يتضح أنه أهم ، سنعمل فيه سويا منذ أول خطوة، منذ مدة وأنا أفكر في ظاهرة تحتاج إلى دراسـ ـة، هنـ ـاك تركيبـ ـات كيماوية ثابتة جدا، وأخرى غير مستقرة قابلة لتحلل، هـ ـل هناك عوامل مشتركة تفسر هذا الثبات أو التحلل ؟ وما هي

؟ وإذا كانت موجودة بالفعل ما هي العوامل التي يمكـ ـن أن تؤثر فيها، إذا توصلنا إلى بعض النتائج يمكن أن نفتح فتحا جديدا في التخليق والتحليل الكيماوي، حتى الآن ما أقولـ ـه ليس سوى مجرد ملاحظة، لم أتأملها، ولم أفكر فيها لكـ ـن كل عمل مبدع يبدأ في الخيال، نريد أن نتأمل ونفكر سويا.

وأن نخطط بالتدريج للتجارب التي سنجريها، هـ ـذه الفرقة الصغيرة ما زالت في بداية عملها ولكـ ـن يمكـ ـن أن يكون لها مستقبل إذا بذلت جهدا مثابرا.

لمح البريق عاد إلى عيونهما، قال " تامر " : هـ ـل سنبدأ الآن ؟

نعم لا شيء يمنعكم من أن تفكرا فـ ـي الموضـ ـوع، وابدأ بالأشياء الصغيرة البديهية فمنهـ ـا تخـ ـرج الحقـ ـائق الكبرى، ولا تستهينا بقدراتكما أبدا مهما واجهتهمـ ـا مـ ـن صعوبات في البداية، أنا سآخذ إجازة لمدة أسـ ـبوعين ثـ ـم أعود إليكما لا تنتظرا عودتي.

أريد عندما أعود أن تعرضا على ما وصلتما إليـ ـه، أحضرت معي كتابا ربما رغبتما في قراءته اسمه " علماء فنانون " عن حياة بعض المبدعين في العلم " ضحك... "

هدية إليكما مني بمناسبة الزواج. ثم القراءة خير وسـ يلة لتنظيم النسل " .

كانت ساعة الميدان تشير إلى الواحدة ظهرا عندما وصل إلى البيت، أكل وجبة سريعة من الجـ بن، والطمـ اطم والخس أنهاها بسلطانية مهلبية، أخبر " مبـ روك " أنـ ه سيغيب لمدة أسبوعين، ويمكنه أثناءها أن يقـ وم بزيـ ارة أهله، وطلب منه أن يصنع لـ ـه ترمـ وس مليئـ ا بعصـ ير البرتقال، ثم ذهب إلى حجرته ليعد الحقيبة.

بعد أن انتهى وضعها قرب باب الشقة حتى يهـ بط بها " مبروك " ويضعها في السيارة، ألقى نظـ رة حـ ول الشقة ليتأكد أنه لم ينس شيئا، على رف إلى جوار المكتب لمح ملفا أزرق اللون، فتح الملف وقرأ العنـ وان " عمـ ق البحر " لماذا لا يأخذ الرواية معه ليقرأ ما وصل إليه ؟ كاد أن ينسى ما كتبه في تلك الفترة، حمل الملف من حقيبة لليد وضع فيها بعض الأقلام ورزمة من الورق المسطر تعود أن يكتب عليه.

هبط إلى الشارع كان " مبروك " ينتظره بالحقيبة.

وضعها على المقعد الخلفي ثم سـ لم علي ـه، قـ ـاد سيارته حتى ميادان " لبنان " و واصل السير حتى يصـ ـعد على المحور، بين الحين والآخر ينظر إلى المـ ـف الأزرق ويربت عليه بيده ثم يتلمسه كأنه يطمئن علي ـه، ويقـ ـيس سمكه، ترى كم عدد الصفحات التي كتبها قبل أن يتوقف ؟

توقف عن البوابة لي ـدفع الرسـ ـم.. أخـ ـرج مائـ ـة وخمسة وخمسين قرشا وأعطاه ـا للرجـ ـل القـ ـابع فـ ـي " الكابينة " قال:

الرسم أصبح اثنين من الجنيهات يا حاج.

نظر إلى الرجل في ضيق وقال: لست حاجا.

ترك البوابة وقاد السيارة مسافة ثم توقـ ـف، فـ ـتح الملف وقرأ الرقم المكتوب على آخر صفحة ثم ربطه برباط من المطاط وجده في جيبه، استأنف السـ ـير وهـ ـو يدنـ ـدن بأغنية قديمة نسي اسمها.

عندما وصل إلى القرية ترك السيارة فـ ـي الطريـ ـق الجانبي المسفلت، أخرج الحقيبة، والملف، وحقيبة اليد من السيارة، وأغلقها، ثم صعد فوق التل الصغير حتى بـ ـاب " الشاليه " .

أنزل الحقيبة على الأرض، ووضع فوقها الملف ثم غطاه بحقيبة اليد حت ى لا يطي ر، وق ف يتأم ل البح ر التركوازي اللون يذكره بالمنضدة الزجاجية في شقتها، ترى أين هي الآن ؟ كانت مثله تعشق البح ر، ف تح ذراعي ه، واستنشق بعمق، فوق الشاطئ طي ور الن ورس البيض اء تسقط نفسها في المياه ثم تخرج منه، لا صوت سوى همس الأمواج الصغيرة تسقط واهنة فوق الرمل.

استدار ليضع المفتاح ف ي الب اب، فتح ه، أدخ ل الحقائب والملف و وضعهما في الصالة على الكنبة، لاح ظ أن النوافذ كلها مفتوحة غريبة ؟! هل نسي أن يغلقها عندما حضر في المرة السابقة ؟ مستحيل، أحيانا ينسى ولكن ليس إلى هذا الحد، تقدم في الصالة في اتج اه الش رفة، ب اب الحمام مغلق ومن خلفه يسمع صوتا مثل الدش، خرج م ن النافذة إلى الشرفة ووقف يتأمل الحديقة، والزهور، وزرقة البحر، ثم استدار ليعود من حيث جاء.

من ركن عينيه لمح شيئا في طرف الشرفة الطويلة قرب نافذة حجرة النوم، فتقدم نحوه.

فوجئ بساقين صغيرتين عاريتين تتحركان بقوة في الشمس فاقترب، لمح بينهما شيئا كالشق، من أسد فل دروة المهد أطل عليه وجه الطفلة، تنظر إليه بعينيها العسد ليتين كأنها تتساءل عن هذا القادم، تأملها في اندهاش، فابتسمت إليه كأنها تطمئنه، فأحس بيد صغيرة تلتف حولها، حاول أن يفلت إصبعه منها، فتشبثت بها كأنها لا تريد أن تتركها.